

## الدرس الأول



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

## الإخلاص في طلب العلم.



• مجالس العلم مجالسٌ عظيمةٌ، مَنْ استبطأ الطريقَ فيها هَلَكَ وانصرفَ، وَمَنْ استصغَرَ فيها الوقتَ فإنه أَسْلَمَ وهُدِيَ ونجا، وصلَّ إلى الطريقِ، وحصلَ الغاية، واجتمعَ له العلم، وتتابعت عليه الفوائدُ والخيراتُ والرحماتُ، وإنَّا لَنرجو أن يُبلغنا الله -جلَّ وعلا- خيراً كثيراً إن استحضرنَا الإخلاصَ ، الإخلاصُ الإخلاصُ! فهو أحوَجُ ما نكونُ إليه في كلِّ مرحلةٍ ومنزلةٍ ودرجةٍ من درجاتِ العلمِ، لذلك نَعرفون الحديثَ ربما أَعَدَنَاهُ وسنعيده ونحنُ أحوَجُ ما نكونُ إليه، حديثُ أبي هريرة، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ»، مَنْ هم؟ ليسوا السُّرَّاقُ ولا الزُّنَاةُ ولا شاربو الخمر! بل أولُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ: قارئ القرآن، والمتعلم للعلم والباذل للمال، قارئ القرآن والمتعلم للعلم شيء واحد، والباذل للمال، والمجاهد في سبيل الله، «يُؤْتَى بِهِ فَيُعَرَّفَ نَعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيُعَرِّفُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ فهذا يقول: يَا رَبِّ أَقْرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ وَأَقْرَأْتُهُ النَّاسَ، وهذا يقول: بَذَلْتُ وَتَصَدَّقْتُ، وهذا يقول: قَاتَلْتُ وَجَاهَدْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ -جلَّ وعلا- كَذَبْتَ إِنَّمَا قَرَأْتَ وَأَقْرَأْتَ لِيُقَالَ قَارِئٌ، وَلِيُقَالَ مُتَصَدِّقٌ، وَلِيُقَالَ شَجَاعٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> لفظ الحديث للترمذي (2382)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أَمَةٍ جَانِيَةٌ، فَأُولُو مِنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثُرَ الْمَالُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أَعْلَمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: فَلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَقَالَ: فَلَانٌ جَوَادٌ وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ.

- قلوبنا متقلّبة ونفوسنا متغيّرة، والإخلاص أعزُّ ما يكونُ على المرء، وإنّما الأعمالُ بالنيّات، ربّما نكون أُمَّة كثيرة، نجتمعُ على هذه المجالس، فيُرفعُ هذا الرجلُ بها درجاتٍ كثيرةٍ، وهذه المرأةُ تبلغُ منازلَ عظيمةٍ. النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>٢</sup>، يعني ربحها.
- نحن أحوجُّ ما نكون إلى استحضار الإخلاص، وأن نفرح بنعمة الله -جلَّ وعلا- علينا، فإنّكم ترون كيف وصلّتم إلى هذه المرحلة، وأناسٌ كُثُرَ ربّما كانوا من أصحابكم وأصدقائكم، بدؤوا فانقطعوا، أو سوّفوا وتواكلوا، فلم يُوفّقوا لهذا العلم، فانصرفت بهم الأيام، وتلاطمت بهم الأمواج، فذهبت أيّامهم وأوقاتهم، ولا شيء يحملونه، ولا شيء يُحصّلونه، ومَنْ لَزِمَ هذه المجالس، ومَنْ قَابَلَ هذه الشّاشات، ومَنْ حرصَ وبذلَ من وقته، وجاهدَ نفسه، واستغنى عن كثيرٍ من الأوقاتِ والمجالسِ التي لا فائدةَ فيها، فأقبلَ وقصدَ، وجدَّ واجتهدَ؛ فسيُحصّلَ غايةً عظمى.
- تذهب الأيامُ، وتذهب الأوقاتُ، ثم لا تحصد إلا الثّمار والنّتائج، فمَنْ زرع فاسدًا فإنّه يحصدُ خبيثًا، ومَنْ زرع وجدَّ واجتهدَ عملاً صالحًا، فإنّ الثّمار يانعة، والخيرات مُتكاثرة.
- إخلاص النّيّة حقيقته: أن يطلبَ الإنسانُ رفعَ الجهلِ عن نفسه، ورفعَ الجهلِ عن غيره، فقد رفعَ الإنسانُ الجهلَ عن نفسه، فعبدَ الله على بصيرةٍ، ثمّ انتقلَ إلى المرحلةِ الثّانية، وهي هدايةِ النَّاسِ، تعليمِ النَّاسِ، تبصيرِ النَّاسِ، بيانِ الخيرِ والهدى للعبادِ والبلاد.
- ولذلك لو تأملّتم حديثَ أبي موسى في البخاري ومسلم، وغيرهما من كتب السُّنن، لمّا قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالةً عظيمةً: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»<sup>٣</sup>، أو كما جاء عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- لا يكون فرحٌ أعظمُ من الفرحِ بالعلمِ، وبالهدايةِ، وبالاستقامةِ، وبالعبادةِ، وبالاستئناسِ بسُنّةِ نبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والدّلّيل على هذا: قول الله -جلَّ وعلا: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21]، فحقيقَةُ التّفْضيلِ، والتّفْضيلُ العَظيمُ إنّما هو في الآخرة، والتّفْضيلُ في الآخرة ليس بالمالِ، ولا بالجاهِ، ولا بالمناصبِ، ولا بإتيانِ الشّهواتِ، ولا التّمَتُّعِ بالملذّات، وإنّما حقيقته بالهداية والاستقامة، بالخير والطّاعة، بالبرِّ والاستئناسِ بسُنّةِ نبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

**إذا مات الإنسان فماذا يبقى له؟**

وَيُوتَىٰ بِالذِّكْرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فِيمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَاقَاتِلْ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذِبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذِبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلِ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فَلَانْ جَرِي، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِجْلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ: أَوَّلُ الْخَلْقِ اللَّهُ ثُمَّ نَسَعُ بِكُمْ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

<sup>۲</sup> مسند الإمام أحمد، وصححه أحمد شاكر (193/16).

<sup>3</sup> البخاري (78)، ومسلم

هل يُقال خَلَفَ فلان أموالاً طائلة؟

هل يُقال لقد بنى دوراً عامرة؟

هل يُقال للإنسان: كان عنده زوجات كثيرات؟ أو تزوج وتمتع؟ أو خَلَفَ ونَسَلَ؟ كل ذلك لا.

يُقال له: كان يعمل من الصَّالِحَاتِ كذا، كان يُعَلِّمَ العلم، كان يُدْرِسه، يُقرؤه، يُحَفِّظُ القرآن، إلى غير ذلك، حتى إنَّ الرَّجُلَ ليعملَ عملاً يسيراً، يُقال: يوم من الأيام أنا رأيناه مرَّ على فلانة المسكينة، فدخلَ بيتها فقضى حاجتها، أو أعطاهَا، أو مدَّ يده إلى يَتِيمٍ، فمَسَحَ دمعته، وأعانَه على لوعته وما يجدُ في نفسه من فراقِ والدِه.

● فالعلم يُفْضِي إلى الخشية، والخشية إنَّما يُوْتَاهَا حَقُّ الإِتيانِ أَهْلُ العلم وصفوةُ الخلق، وَمَنْ اقتدوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبخلفائِهِ وأصحابِهِ، وَمَنْ سارَ على نهجِهِ وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمَنْ سارَ على نهجِهِمْ إلى يومِ الدِّينِ.

● جاء عن ابن تيمية -رحمه الله تعالى، حينما كان يقول: "إنَّه لَتُشْكِلُ عَلَيَّ الْمَسْأَلَةُ، وَتَنْغَلِقُ عَلَيَّ الْمَسْأَلَةُ، فَلَا أَزَالُ أَعْفِرُ وَجْهِي بِالثَّرَابِ -يعني يسجد لله، ويخبت بين يديه، ويستغفر الله جلَّ وعلا- حتى تنفتح لي" <sup>٤</sup>، ولمَّا كان في صباحه يجلس ويذكر الله -جلَّ وعلا- كان يقول: "هذه غدوتي، لو لم أتعُدَّ بها لم أستطع أن أعمل بقية يومي" <sup>٥</sup>، فهذا العلم أَيْضًا يُفْتَحُ لِلْعَبْدِ متى مَا أَقْبَلَ على الله -جلَّ وعلا.

**فقه الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.**

● تعريف الفقه من حيثُ أنه فقه ،

✓ فالفقه هو: الفهم.

✓ وبعضهم يقول: الفقه لا يكون فقهًا حتى يكون فهمًا للمسائل الدَّقيقة، فالأشياء العامَّة لا.

"فَقَّه" صفة مشبَّهة وغالبةٌ ولازمةٌ للعبد، يعني إذا لازمَه الفقه وكان مَلَكَةً له، "فَقَّه" إذا غالب في الفقه، و"فَقَّه" مَنْ تَعَلَّمَ وَتَفَقَّه.

✓ وحقيقةُ الفقه: هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية أو العملية، المكتسبة من أدلِّتها التَّفصيلية.

✓ ولبعضِ أَهْلِ العلم تعريفٌ لطيفٌ يقولون: هو معرفةُ الأحكامِ الشرعيةِ بِأدلِّتها التَّفصيليةِ بالفعلِ أو بالقوَّةِ القربية.

**ما معنىالفعلِ أو بالقوَّةِ القربية؟**



● يعني أَنَّ الفقيه إمَّا أن يكون مُستحضرٌ للدَّلِيل، وهذا يكون في مسائل كثيرة، كسُنيَّة الأذان، أو القصرِ في

السَّفر أو نحو ذلك، فيقول الدَّلِيل عليها: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: 101].

<sup>٤</sup> نقل الحافظ ابن عبدالحادي عن بعض قدماء أصحاب شيخ الإسلام ابن تيمية قال: "ولقد سمعته في مبادئ أمره يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليّ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل". «العقود الدرية» (21-22).

<sup>٥</sup> ذكره ابن القيم في الوابل الصيب: "ابن القيم -رحمه الله- قال: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتعُدَّ الغداء سقطت قوتي. أو كلاماً قريباً من هذا» الوابل الصيب (ص42).

- لكن في بعض الأحيان تقول له: ما صفات صلاة الخوف؟ يقول: ست. تقول: ما هي؟ يقول: أذكر حديث سهل بن خواد. تقول أين الباقي؟ يقول: لا أتذكر الآن، لكن ائني بالكتاب الفلاني، فيأتي بالكتاب الفلاني، فيفتحه فيقف عليها.

فهو عنده من القوة والمكنة والقدرة على الوصول إلى المسألة ودليلها، أمّا العامي لو أتيت له بكل الكتب، وفتحت له الكتب، وأردت أن يستخرج من ذلك دليل، يستطيع أو لا يستطيع؟ لا يستطيع.

### الفرق بين الفقه بالفعل والفقه بالقوة القريبة:



- الفقه بالفعل: أن يكون مُستحضرًا للدليل بالفعل في الحقيقة، يعني حاضر الدِّهن.
- الفقه بالقوة القريبة: أن لا يكون حاضر الدِّهن، كما يكون في بعض المسائل الخفية ونحوها، ولكنه قادر على الوصول إليها، لوجود الآلة والقوة الممكّنة له من الوصول إلى ذلك بيسر وسهولة.

### ما معنى الدَّعوة إلى الله؟



- الدَّعوة أصلها من دعا يدعو دعوة، وحقيقة "دعا": تأتي بمعنى نادى، دعا فلانًا إذا ناداه، أو طلبه، أو تكون بمعنى الالتماس في بعض الأحوال، وفي بعضها رجاء، وتكون من الدَّعوى القضائية؛ لأنَّ المتداعيان كلُّ يطلب حقه، فكلُّها مشتملة على طلب، هذا في الجملة.
- تعريف الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا: الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- لها مساران:
  - ❖ إمَّا إلى الأصل، فتكون الدَّعوة مرادفةً للإسلام، فتكون الدَّعوة إلى الله يعني الدَّعوة إلى الإسلام.
  - ❖ أو الدَّعوة إلى تفاصيل الأحكام، وموضوعنا في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- يشمل الأمرين جميعًا.
- من أشهر ما نُقل عن ابن تيمية -رحمه الله تعالى- أنَّ الدَّعوة إلى الله: "هي الدَّعوة إلى الإيمان بالله وبرسوله، وما أمروا به من الأوامر ونهوا عنه من النواهي".
- يقول شيخ الإسلام: "فمقتضى ذلك أن تكون الدَّعوة إلى الشَّهادتين، وإلى الصَّلَاة، وإلى الزَّكاة، وإلى الصَّيَام، وإلى الحجِّ، وإلى سائر الأوامر، واجتنابِ جميع النواهي التي جاء الشَّرع باجتنابها، والبُعد عنها".
- بعضهم يقول: "إنَّها دعوةُ الخلق إلى الحقِّ؛ ليستمسكوا بدينهم، ويتعبَّدوا ربَّهم على أصلٍ صحيحٍ متَّبعين لا مبتدعين".

هذا التعريف فيه معانٍ لطيفة:

- دعوة الخلق: يعني أنها شاملة للخلق من الإنس والجن.
- إلى الحق: الذي هو الله -جلَّ وعلا- موحدٍ له، ومستمسكين بكتاب الله -جلَّ وعلا- وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأيضًا فيه الدَّعوة إلى شهادة أن محمدًا رسول الله في الاتباع والافتداء، لا في الابتداع والضلال.

### ما هي أركان الدعوة إلى الله؟



- الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- لها أركان: الدَّاعي إلى الله، المدعو، ما يُدعى إليه، والوسيلة.



- إذا جئنا إلى كلام الأصوليين، فلا بد أن يكون التعريف جامعاً مانعاً، وهذا لا يكاد يأتي على التعاريف السابقة، فنقول: "هو دعوة العالم -أو إن شئت أن تقول العالم أو المتعلم- إلى توحيد الله -جلّ وعلا- وأحكام الكتاب والسنة، لمن كان جاهلاً ونحوه، بالوسائل الصحيحة المشروعة".
- وأوّل ما يجب أن يكون من العالم هو تحقيق العلم بالإيمان والتّوحيد، ودعوة إلى توحيد الله؛ لأنّها أهم ما يُدعى إليه.
- وقوله: بالوسائل الصحيحة المشروعة : إشارة إلى أنّ ما يُستحدث من بعض الوسائل والتّكليفات التي قد تُوجد في أواخر الأزمان، كما وُجدت في أزماننا هذه، هي ليست على وجه صحيح، وربما كان فيها خللٌ كثير، أو كان خللها أكثر من صوابها، فلا بدّ أن تكون الدّعوة أيضاً بوسيلة صحيحة مشروعة، دلّ الدليل على مشروعيتها، أو الإذن فيها.

### ؟ ما تعريف فقه الدّعوة إلى الله؟

- ما فيه تعريف لها باعتبارها جملة مركبة، لكن نقول: فقه الدّعوة لا ينفك عن أن يكون موجود في تفاصيل مسائل الفقه، وما يعرض له الفقهاء، لكن إذا تكلمنا عليه بهذا المعنى، أو بهذا اللّقب بخصوصه، فإنّه أدعى إلى أن يُستحضر فيه كمالُ الفقه بالمسائل، وبدقائقها، مع العلم بالسياسات الشرعيّة، والقدرة على تنزيل الأحكام على الوقائع، ومعرفة ما يضادّ ذلك وما يمانعه؛ لأنّه في بعض الأحوال يأتي في الواقعة الواحدة أمران متدافعان، أو أمران متقابلان، ولا يستطيع أن يحكم أيّ واحدٍ في أيّهما أولى بالحكم، أو أحسن بالنظر، إلا من كان فقيهاً عالماً عارفاً متبصّراً، له دُرّة في ذلك.
- فهو حقيقة فيه فقه في السياسات الشرعيّة في بعض الأحوال، قد تكون بعض الأمور فيها خلل؛ لكن ليس من الحكمة البدء بها؛ لئلا يُفضي ذلك إلى حصول ما هو أشد من ذلك، أو منع خيرٍ أتم.

### ؟ ما هو أوّل شيء يجب تعلمه في فقه الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا؟

- أوّل شيء يجب تعلمه في فقه الدّعوة إلى الله هو معرفة حكم الدّعوة إلى الله، هل هي واجبة؟ هل هي مستحبة؟
- الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- من حيث الأصل هي بلا شك واجب، وهي أوّل الواجبات وأهمّها، وهي وظيفة الأنبياء والرّسل، ومن جهة المكلفين فهي فرض كفاية.
- ذكر أهل العلم أنّها فرض كفاية تجب على من قدر عليها، وسيأتي متى يكون الإنسان قادراً، ومتى لا يكون قادراً، ومتى يكون أهلاً، ومتى لا يكون أهلاً، فإذا كان قادراً عليها، تعلّق به وجوبها إلا أن يقوم بها غيره، تعلّق حكمها به إلا أن يقوم بها غيره.
- ونحن في وقت كثرت فيه الجهالات، وتتابع النّاس على فعل الشّهوات والغفلة، والإعراض عن الخير، حتى مع وجود داعي الخير، لكن لم يزل الجهل كثيراً، والتّابع على الضّلالات ظاهراً، فلأجل ذلك كان لزاماً على طلبة العلم، وأهل الفضل ممّن جعل الله -جلّ وعلا- لهم نوراً في بصائرهم وفي قلوبهم، وتعلّموا العلم، وحفظوا القرآن، واهتدوا بسنة خير الأنام -عليه الصّلاة والسّلام؛ تعلّق بهم من لزوم است فراغ الوُسع، وبذل الجهد

أكثر، حتى يرجع النَّاسُ، وحتى يتعلَّموا، وحتى يتفقهوا، وهذا من الأمور التي ينبغي أن نتواصى عليها في وقتٍ عمَّت فيه الجهالات.

فأنتم يا مَنْ دخلتم في هذا البناء، وبُني لكم صرحه، وأيضاً بنيتُمْ أنتم مسائله في نفوسكم، واستحضرتُم دقائقه، وجمعَ الله -جلَّ وعلا- لكم من فنونِ العلمِ التي درستُموها في هذه المجالس، وفي نحوها في مساجدكم، وأيضاً ما أضفتموه إلى ذلك من قراءة الكتب وغيرها، ما يُحْتَمُّ عليكم أن تؤدُّوا الأمانة التي ائتمنكم الله عليها، من تبصير النَّاسِ وهدايتهم.

### ❓ متى تكونُ الدَّعوة مُحَرَّمةً وممنوعةً وليست بجائزة؟

- إذا كان الإنسان جاهلاً، فلا ينبغي له أن يقول: أعلِّم النَّاسَ حتى ولو كنتُ جاهلاً.
- تعلمهم ماذا؟! وهذا سيأتي -إن شاء الله- في شروطِ الدَّعوة، وأولها: العلم، لأنَّ مَنْ دعا النَّاسَ، فإنَّما أن يدعوهم إلى علمٍ، وهو غيرُ محصِّلٍ للعلم، وإنَّما أن يدعوهم إلى جهلٍ وضلالةٍ، والدَّعوةُ إلى الجهالة دعوةٌ إلى النَّارِ، ودعوةٌ إلى الشَّيطان، فتكون في مثل هذه الحال مُحَرَّمة.
- فنحن نتحدَّث عن هذا الحكم بخصوصه؛ لأهميَّة الحديث عنه؛ لأنَّنا بين حالين:
  - ❖ أناس فقهُوا وتعلَّموا وتقاصروا عن الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا، وهداية الناس، فهم في ذلك آثمون؛ لحاجة النَّاسِ إليهم، ولتقصيرهم فيما مَنَّ الله عليهم من العلم والهدى والبصيرة.
  - ❖ وفي جانب آخر، مَنْ وُجدت عنده عزيمةٌ وعاطفةٌ جيَّاشةٌ وحرصٌ؛ لكن على غير هدى، فيدعو فيضِل النَّاسَ، ويأتي بشيءٍ على وجهه، وشيءٍ على غير وجهه، ويأخذُ بعضَ العلم، فينزله في غير منزلته، فلا يزال في تخبُّطٍ وجهالاتٍ، وضلالاتٍ عظيمةٍ، فلا تسأل عمَّا يُحدث من أثر!
- ولذلك تذكرون، وهذا مرَّ بكم في أوَّل ما درستُموه من كتاب الطَّهارة، لما كانوا في الغزوة، فحصل لأحدهم احتلامٌ، وكان فيه شجَّة -يعني جرح في رأسه- فسأل فقالوا: لا نجد لك رخصة، وأنت تستطيع أن تستعمل الماء، فاغتسل فمات، فلما جيء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبر بذلك، ماذا قال؟ «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا» ما قال: هَلَّا دعوا إذ لم يعلموا، «فَإِنَّمَا شَفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»<sup>٦</sup>.
- وسيأتي الحديث ما يحتجُّ به البعض من قول النَّبي صلى الله عليه وسلم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>٧</sup> هذه حجةٌ عليهم ليست لهم، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله -جلَّ وعلا- لأنَّ معنى الحديث: بلغوا عني الآية التي حفظتموها؛ وليس معنى ذلك أنَّ مَنْ حفظ آيةً يُبلِّغ بكلِّ كتابٍ الله، أو بجميع التَّفاصيل والأحكام.
- **فضل الدَّعوة، أو مكانة الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- أو أهميَّة الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى.** 
- لاشك أنَّ البحث في الأهميَّة هو علمٌ بمنزلة هذه الدَّعوة؛ لأنَّ مَنْ لم يعلم أهميَّتها لن يتفانى فيها، مَنْ لم يعرف قدرها فإنَّه لن يجتهد في أدائها، ومَنْ لم يعرف بفضلها، فإنَّه لن تُحَثَّ نفسه على أن يُفرِّغ لذلك وقته وجهده، وأن يُمضي لذلك حياته، ففضل الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- من الأهميَّة بمكان، وهذا أن قد نهت

<sup>٦</sup> سنن أبي دود (284)، حسنه الألباني في صحيح أبي داود (337).

<sup>٧</sup> صحيح البخاري (3461).

عليه لما كنّا ندرس بعض مسائل العلم في الفقه، وقلت لكم: إنّ طالب العلم بحاجة ماسّة، إذا كان مثلاً يدرس كتاب الصيام، أو كتاب الحج، أو كتاب الفرائض، أن يعرف ما في هذا الباب من أحاديث التّرهيب والفضائل، وما فيه من التّرهيب والتّحذير؛ لأنّ النّاس إنّما يقتدون ويهتدون ويعانون ويتحرّكون إذا عرفوا الفضل والمنزلة، والدّرجة الرّفيعّة لذلك الأمر، فإذا عرفوا ذلك استعانوا عليه، وأيضاً إذا كان أمراً محرّماً فعرفوا ما فيه من الوعيد، وما فيه من النهي، فإنّهم ينزجرون عنه، فانزجارهم عن الرّزا لما جاء فيه من الأدلّة العظيمة أشدّ من انزجارهم عن السّباب أو الشّتام؛ لأنّ الأحاديث والوعيد في هذا أشدّ من هذا، وقل مثل ذلك في أنواع كثيرة ممّا جاء بها الشّرع في النّهي عنها والتّحذير منها.

- معرفة الفضائل والتّرهيب في ذلك، ومعرفة عظيم النّهي، والتّحذير منه، هو سبب من أكبر الأسباب التي تدعو إلى الاقتداء والاهتداء، ولذلك صنّف بعض أهل العلم في ذلك مصنّفاً، ومن أشهرها مصنف الإمام المنذري - رحمه الله تعالى - وهو نافع لأئمة المساجد، ومن تصدّى لتدريس النّاس ودعوتهم؛ أن يحفظ ما في ذلك من الأحاديث التي فيها التّرهيب والتّرهيب، والله - جلّ وعلا - يقول عن نبيه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب: 45]، بشاراً ونذارةً، بشاراً بالخير، ونذارةً وتحذيراً من الشّرّ.

**بعض ما جاء في فضل الدّعوة إلى الله - جلّ وعلا.**

✓ جاء في حديث علي بن أبي طالب، وهو حديث عظيم: «لأنّ يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من أن يكون لك حمر النّعم».

✓ الآية التي تقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

✓ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً»<sup>٨</sup>.

✓ حديث أبي هريرة، وحديث عبد الله بن مسعود: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»<sup>٩</sup>.

- أول مهمّة للرسول والأنبياء هي الدّعوة إلى الله - جلّ وعلا - فحسبك أنها وظيفة الرّسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

- تعال إلى ما جاء في ذكر الله - جلّ وعلا - لهذه المعاني وإعادتها: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 65]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 73]، وجاء في لوط، وفي نوح، وفي نوح من ذلك، وفي قوم شعيب، وردت في سور كثيرة، في سورة الأعراف، في سورة هود، في سورة الشعراء، ذكرت مثل ذلك في آيات وفي أحوال كثيرة، هذا يدلّ على أنّ أعظم وأبلغ ما يكون لأنبياء الله - جلّ وعلا - ورسله من الوظيفة والمهمّة: هو التّبليغ والبيان، والدّعوة إلى الله - جلّ وعلا. وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

<sup>٨</sup> صحيح مسلم (4837).

<sup>٩</sup> صحيح مسلم (1893).

## الدرس الثاني



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

### فضل الدعوة إلى الله -جلّ وعلا-

- الحديث عن فضل الدعوة وأهميتها مما يُشجّد الهمة، ويُحرّك النفس، ويُعرّف الإنسان بمكانة هذا العمل، وهذه الوظيفة، وهذه المرتبة، وهذه المنزلة، التي يتوجّه إليها.
- الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- حينما نتكلّم عن فضلها فنحن نتكلّم عن الدعوة إلى الإسلام، أليس كذلك؟ والدعوة إلى الإسلام دعوة إلى الله، والدعوة إلى الله -جلّ وعلا- هي دعوة إلى توحّيده، وإلى تحقيق الإيمان به، وليس شيء أعظم من الله، وليس شيء أعزّ من الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- ولذلك كانت أشرف المقامات، وأعلى المنازل، وأرفع ما يكون من الوظائف.
- من يتحدّث عن الدنيا كمن يتحدّث عن الآخرة؟! لا، فبين ذلك فرقٌ شاسعٌ، هذه فانية، وتلك باقية، تلك فيها جنّةٌ ونارٌ، وهذه إنّما هي دارُ ابتلاءٍ وتمحيصٍ وتنغيصٍ، ليس فيها صفوٌ إلا ويتبعه كدرٌ وبلاءٌ ومحنةٌ.
- فإذا كان الأمر كذلك، فكيف تكون الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- فلا يساويها دعوة إلى الخلق، ولا دعوة إلى أحدٍ، ولا دعوة إلى أمرٍ، فالفرقُ بينها كالفرق بين السماء والأرض، كالفرق بين الحق والخلق.

### أهم أولويات الدعوة.

- أهم ما يدعى إليه وهو: توحيد الله -جلّ وعلا- وعبادته ، لكن لا ننفك من العلم من أن بعض الفضائل مصدرها الأهمية، أو الأولوية أو غيرها، فبينهما تقاربٌ وتداخلٌ؛ لأنّ الحديث والباب واحدٌ.



- نرجعُ إلى أنَّ هذه أشرف الوظائف، ولذلك كانت وظيفة الأنبياء والرُّسل، وهذا هو الذي بالتَّحديد قد انتهى بنا الحديث إليه، حينما ذكرنا كم في كتاب الله -جلَّ وعلا- من آيةٍ فيها سياقُ دعوةِ أنبياءِ الله -جلَّ وعلا- ورسوله لأقوامهم وأهلهم وبلدانهم، وكم تكررَ ذلك في كتابِ الله من مرَّةٍ، وأُعيدَ فيه الحديثُ من كرَّةٍ، على أيِّ شيءٍ يدلُّ ذلك؟ حينما تأتي إلى ما في سورة آل عمران، سورة الأعراف، سورة هود، سورة يوسف، سورة الشعراء، سورة غافر، وكلِّ الآياتِ في كتابِ الله -جلَّ وعلا- فيها معرضٌ للحديثِ عن ذلك، لكن هذه من أبرزها، وفيها معاني تخصُّها، وإلا ما من سورةٍ من كتابِ الله -جلَّ وعلا- يكاد يخلو فيها الحديث عن الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى، ودعوة الأنبياء والرُّسل، ولأجلِ ذلك قالَ اللهُ -سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، فهذا فيه إشارةٌ إلى ما ذكرنا من الدَّعوة إلى توحيدِ الله، وفيه الإشارةُ إلى أنَّها وظيفةُ الأنبياء والرُّسل، ومثلُ ذلك آيات كثيرة، كقولِ الله -جلَّ وعلا: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَاسٍ لِّيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

- لو قيل لك: هل شيءٌ أعظمُ من أن تخلصَ وتنزلَ وتعتليَ وظيفةً كانت وظيفةُ لإبراهيمَ ولنوحَ ولموسى ولعيسى ولمحمدٍ صلى الله عليه وسلم؟
- والله لو كان مُلكًا، أو رئاسةً، أو وزارةً، أو تجارةً، أو جاهًا، أو قُلَّ ما شئتَ، فلن يكونَ بأعظمَ من أن تسلكَ سبيلهم، وأن تتخلَّقَ بأخلاقهم، وتُمسكَ بزمامِ وظيفتهم التي بعثهم الله -جلَّ وعلا- لأجلها.
- العلمُ بأنَّ هذه الوظيفة أعظمُ الوظائف، هذا من أعظم ما يدعو الإنسان إلى أن يفرح بها، وأن يستمسكَ بها، وأن يتأهبَ لها، أيضًا لما كانت وظيفةً شريفةً فلا يُظنُّ أنَّ كلَّ سالكٍ لها يَقْدِرُ أن يمسكَ بزمامها، وأن يتربَّعَ على عرشها بدون أن يبذلَ ويجتهدَ، ويتعلَّمَ ويعلمَ، ويُضَيِّ لُجْلِ ذلك وقتًا طويلاً، ودهرًا من حياته كبيرًا.

### الدَّلالة على أهميَّة الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.

- قول الله -سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].
- هذه الآية من أعظمِ الدَّالاتِ على شرفِ الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- وعظيمِ منزلتها، وجاءت بالاستفهام، وهو استفهام تقرير، يعني لا شيءٌ أحسنَ، نفياً لتقرير أنَّ الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- أحسنُ الأشياءِ، ومن المتقرَّر في عِلْمِ الأصول: أنَّ الاستفهام في سياق النِّكرة يدلُّ على العموم، يعني لا شيءٌ أحسنَ من ذلك، لا شيءٌ أتمُّ من ذلك، لا شيءٌ في هذه الدُّنيا يُمكنُ أن يكونَ مثلَ الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- والوصول إلى هذه المنزلة.
- لما يقول الله -جلَّ وعلا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، هذه آية عظيمة، فإنَّ فيها خصوصيَّة ليست لأُمَّة من الأمم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ما خيريتها؟ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، ولذلك أشار ابن كثير -رحمه الله تعالى- إلى كلامٍ لطيفٍ في هذا، ومن ضمن ما ذكره في ذلك أنَّه نقل ما جاء عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- قوله: إنَّ خيرية

هذه الأمة في تحصيل هذه الوظيفة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: وَمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا فَإِنَّهُ سِيلْحَقَهُ شَرٌّ مَا كَانَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]، فتأمل هذه الخيرية، وتأمل ضدها؛ لتعرف أين منزلتك في ذلك.

• وجاء عن الحسن البصري في قول الله -جلّ وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ [فصلت: 33] كلام لطيف، قال: "هَذَا حَبِيبُ اللَّهِ، هَذَا وَلِيُّ اللَّهِ، هَذَا صَفْوَةُ اللَّهِ، هَذَا خَيْرُهُ اللَّهُ، هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، أَجَابَ اللَّهُ فِي دَعْوَتِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى مَا أَجَابَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ دَعْوَتِهِ، وَعَمِلَ صَالِحًا فِي إِجَابَتِهِ، وَقَالَ: إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَذَا خَلِيفَةُ اللَّهِ"<sup>١١</sup>، فهي إشارة إلى حقيقة الداعي إلى الله -سبحانه وتعالى- وما تسلمه من لواء الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- وتحقيق التوحيد لله، وهداية الناس إليه.

• مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرَ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»<sup>١٢</sup>. حُمْرُ النَّعَمِ: هي الإبل، وكانت الإبل أعظم ما يُتملَّك ويُتفاخر به عند العرب، فكان هداية الخلق، ودعوتهم إلى الله -جلّ وعلا- أعظم من امتلاك تلك الإبل الحسنة، التي يتفاخر الناس بها، ويتعاطمون، ويسودون، ويتوجّهون.

• مهما كان الإنسان لا يُعبأ به، مهما كان الإنسان ليس ذا مالٍ، مهما كان الإنسان ربّما كان قليل ذات اليد، لباسه مُرَقَّع، أو حالته كفاف، فلأن يهدي فيكون داعيًا إلى الله فيهدي به الخلق؛ خيرٌ ممّن صَفَّقَتْ لَهُ الجماهير، أو تداعى الناس إليه، أو تسامعوا بجاهه، أو أعلنوا بذلك عبر ما جدّ للناس من هذه المواقع، في الإشادة به بذكر أنواع ماله، ما وصل إليه من الحال، وما ارتفع به من المنزلة، خصائص اعتادها في حياته لا يكاد الناس يسمعون بها، كل ذلك لا يفيد، إنّما الذي يفيد هو هذا، ولذلك إذا أردت أن تعرف هذا، فالتبّي صلى الله عليه وسلم لما ذكر «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِهِ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ»<sup>١٣</sup>، هذا في إعتاقه من رقّ البشر، فكيف إذا كان ذلك إعتاقًا له من عبودية غير الله -جلّ وعلا؟ فإنّته أعظم، وأزكى، وأرفع عند الله -سبحانه وتعالى.

• وأيضًا من الأدلة في هذا: مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»<sup>١٤</sup>. وفي الرواية المشهورة: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً»<sup>١٥</sup>، وكلاهما في الصحيح، هذا أيضًا دالٌّ على عظم هذه المنزلة، وحسبك إن لم يستطع الإنسان أن يعرف ما بلغت دعوته، لكنّ الله -جلّ وعلا- لا تخفى عليه خافية، فرّبما قلت كلمة، ولم يعبأ الناس بها، لكن تلقّاها متلقّ، فتلقّاها عن آخر، فتلقّاها عنه رابع، فتلقّى

<sup>١١</sup> ذكره الطبري والقرطبي وابن كثير في تفسير قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

<sup>١٢</sup> صحيح البخاري (3701).

<sup>١٣</sup> صحيح البخاري (6715).

<sup>١٤</sup> صحيح مسلم (4837).

<sup>١٥</sup> صحيح مسلم (1017).

عن الرَّابِعِ خَامِسٍ إِلَى السَّادِسِ إِلَى الْعَاشِرِ، وَالْعَاشِرُ تَلَقَّاهَا مِنْهُ مِائَتٌ أَوْ أَلْفٌ أَوْ مِائَتَيْنِ النَّاسِ، فَكَانَ الْأَجْرُ الْأَوَّلُ لِمُصَاحِبِهِ، وَرَبَّمَا كَانَ قَدْ فَنِيَ، وَرَبَّمَا كَانَ قَدْ مَاتَ، وَتَحَلَّلَتْ أَجْزَاؤُهُ، لَكِنْ أَجْرُهُ بَاقٍ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»<sup>١٥</sup>، فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَمَامِ أَجْرِ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَتَضَاعُفِ فَضْلِهِمْ.

• انظر إلى كم مكث الرُّسُل وهم يدعون؟ هذا نوح على سبيل المثال، أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، يَعْنِي النَّاسَ حِينَمَا يَتَدَاعُونَ إِلَى شَيْءٍ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَيَتَدَاعُونَ إِلَيْهِ فِي وَسِيلَةٍ وَثَانِيَةٍ وَثَالِثَةٍ، لَا يَأْتِي عَلَيْهِمْ يَوْمٌ أَوْ يَوْمَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةٍ، أَوْ أَرْبَعَةٍ، حَتَّى يَمْلُؤُوا وَيَكْلُوا، فَلَوْ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَشَيْءٌ كَبِيرٌ، وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ، لَمَا كَانَ لَهُ لِأَنَّ يُمْكِتَ فِيهِ هَذَا الدَّهْرُ كُلَّهُ - أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا.

تَعَالَى إِلَى مَا ضَحُّوا بِهِ، رَبَّمَا ضَحُّوا بِأَمْوَالِهِمْ، رَبَّمَا ضَحُّوا بِأَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَتَرَكَ النَّبِيُّ وَلَدَهُ، وَتَرَكَ النَّبِيُّ زَوْجَهُ، وَفِي هَذَا قِصَصٌ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

• مَا نُرِيدُ أَنْ نَقُولَهُ: هَذَا الَّذِي حَقَّرَ النَّفُوسَ، وَشَحَذَ الْهَمَمَ لِلدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِأَبَدٍ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَصْلٍ صَحِيحٍ، وَسَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِإِذْنِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ عَنْ ذَلِكَ: لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ سَمِعَ عَنْ فَضْلِ الدُّعَاةِ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَسَلَّمَ الْوَاءَ، وَهُوَ لَيْسَ بِأَهْلٍ، فَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى جَهْلِ فَيَتَخَبَّطُ، يَوْمًا يُصِيبُ الْحَقَّ، وَمَرَّةً لَا يُصِيبُهُ، وَمَرَّةً يَأْتِي بِالشَّيْءِ عَلَى وَجْهِهِ، وَمَرَّةً يَصْرِفُ النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الضَّلَالِ، فَهَذَا فَلَا يُؤْخَذُ الْفَضْلُ مُنْبَتًّا، ثُمَّ يُتَدَاعَى النَّاسُ إِلَى شَيْءٍ لَا يَعْرِفُونَهُ، إِنَّمَا يُؤْمَرُ بِالشَّيْءِ عَلَى وَجْهِهِ، وَوَجْهُهُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - بِهِ سَيَأْتِي مِنَ التَّسْلُحِ بِسِلَاحِ الْعِلْمِ وَالْإِخْلَاصِ، وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ أَشْيَاءَ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُذَكِّرُ فِي هَذَا: أَنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - جَعَلَ الدُّعَاةَ نَوْعًا مِنَ الْجِهَادِ ﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: 52]، "جَاهِدْهُمْ بِهِ" الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى مَاذَا؟ إِلَى الْقُرْآنِ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "جَاهِدْهُمْ بِالْحِجَّةِ

وَالْبَيَانِ"<sup>١٦</sup>، وَالْجِهَادُ مَعْلُومٌ مَنْزِلَتُهُ، وَلَمَّا كَانَتِ الدُّعَاةُ إِلَى دِينِ - جَلَّ وَعَلَا - لَا تَحْصُلُ إِلَى يَهْدِينَ، بِالسَّيْفِ

وَالسَّنَنِ، وَبِالْحِجَّةِ وَالْبَيَانِ، فَإِنَّ الْحِجَّةَ وَالْبَيَانَ أَصْعَبُ مِنَ السَّيْفِ وَالسَّنَنِ، لِمَاذَا؟ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ حَمَلَ سِلَاحًا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَاتَلَ، إِنْ كَانَ ضَعِيفًا أَوْ قَوِيًّا، لَكِنْ بَابُ الْحِجَّةِ وَالْبَيَانِ يَحْتَاجُ إِلَى جَهْدٍ جَهِيدٍ، وَعَمَلٍ طَوِيلٍ، وَتَفَانٍ فِي الْأَوْقَاتِ، وَتَعَرُّضٍ لِلْأَشْيَاخِ وَلِمَجَالِسِ الْعِلْمِ وَغَيْرِهَا، حَتَّى يَتَصَدَّرَ الْإِنْسَانُ لَوَاءَ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا.

وَلِذَلِكَ كَانَ الدُّعَاةُ قَلِيلٌ مُقَارَنَةً بِمَنْ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - بِأَنْفُسِهِمْ وَبِأَسْيَافِهِمْ وَعَدَّتِهِمْ وَعَتَادِهِمْ.

### ❓ كَيْفَ نَتَعَرَّفُ إِلَى الْحَاجَةِ إِلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

• لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ يَتَكَوَّنُ مِنْ بَدَنِ وَرُوحٍ، وَكَانَ الْبَدَنُ غِذَاؤُهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ، فَكَانَتِ الرُّوحُ غِذَاؤَهَا الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَالْقِيَامُ عَلَى أَمْرِهِ، فَلَا يَنْفَكُ بَدَنٌ مِنْ رُوحٍ، فَمِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ يَدُلُّ عَلَى الْحَاجَةِ.

<sup>١٥</sup> صحيح مسلم (1893).

<sup>١٦</sup> ذكر القرطبي والطبري وغيرهم قول ابن عباس في تفسير الآية: "قال ابن عباس: أي جاهدكم بالقرآن"، [جامع البيان]، الجامع لأحكام القرآن.

● فهذه الأبدان إنما هي سفينة الأرواح، والأرواح هي التي لها الحياة، فإذا كانت الأبدان تحيا بالشَّرابِ والطَّعام، وبكسرة الخبز ولقمة العيش، فإنَّما تحيا الأرواحُ بكتابِ الله -جلَّ وعلا- وبما يُصقِّيها، ويذهب عنها دَرَنُها، كالْتعلُّقِ بغيرِ الله، والتعلُّقِ بالمخلوقين، والتعلُّقِ بما لا ينفع شيئاً، ولا يُعطي خيراً؛ فمتى ما صَفَّتِ النَّفْسُ عن ذلك وترَفَّعتْ؛ انقادت وتذَلَّت وخضعت، وعَبَدَتِ الله -جلَّ وعلا- الذي يستحقُّ العبادة، تسجد ولا تسجد إلا لله، تذبح ولا تذبح إلا لله -جلَّ وعلا- كل ذلك يتحقَّق به العلم بالحاجة إلى الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا-، التي بها تحيا الأرواح، فكما أنَّنا نَظُنُّ أنَّ أهلَ هذه الأرض في شرقها أو غربها، أو شمالها أو جنوبها، أو أحداً كائناً من كان، في عرض جبل، أو في بطنٍ وادٍ في المدينة، أو في الغابة، أو على حافة نهرٍ، أو غير ذلك، متعلم أو غيره؛ لا يمكن أن ينقطع عن الطَّعامِ والشَّرابِ، فكذلك حتى تحيا الأرواح فإنَّه لا ينبغي أن يُقطع النَّاسُ أو يُحال بينهم وبين حياة أرواحهم.

● وهذا هو الذي يجزُّنا أو يستدرجُ الحديثَ إلى حاجة النَّاسِ، ما وصلَ إليه البشريَّة، كيف وصلتِ البشريَّة في هذه الأزمنة؟ ومنذ زمنٍ بعيدٍ مِنَ التَّرهات، وَمِنِ البلاءات، مِنَ الشُّرورِ، مِنَ الانقطاعِ والضَّلَالِ والغواية، هؤلاء الذين عبدوا غير الله -جلَّ وعلا- فلم يَرُدِّهم شيءٌ حتى عبدوا أهل القبور الذين لا يصنعون شيئاً، فهم أمواتٌ غير أحياء، والذين عبدوا الشَّجرَ والبقرَ، الذين عبدوا حتى الفئران والحشرات، يعني أيُّ بلاءٍ وصلَ إليه النَّاسُ أعظم من هذا البلاء؟

● فإذا حصلَ الآن في الأرض وباء، ومات عشرة أو عشرين أو خمسين في بلد؛ أعلنوا أنَّه وباء عالمي، وتتم محاصرته، والحجر الصَّحي، وما يسافر أحد إلى هذا البلد، ويسوون إجراءات السَّلامة والوقاية عبر الطَّائرات، أليس كذلك؟ ويموت عشرة أو مائة وقد تَلَطَّخوا بالشَّركِ وعبادة غير الله -جلَّ وعلا- حتى مَنْ كانوا على عبادة الله مِنَ النَّصارى، ما حصل عندهم مِنَ البقاء على ملتهم مع علمهم بما يلحق دعوتهم من دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الإسلام الذي أمروا باتِّباعه، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ»<sup>١٧</sup>.

● هذا يدلُّك على عِظم ما وصلَ إليه النَّاسُ من الارتكاسِ، وإذا ذهبنا إلى الأدغال أو الغابات، أو أهل الجبال، مَنْ لم تتابعهم عدساتُ التَّصويرِ، وتُظهرهم إلى العالم، فهذا شيءٌ لا يحيطُ به إلا الله -سبحانه وتعالى- مِنَ أنواعِ البلاءِ والفتنةِ والشَّرِّ والمحنةِ التي وصلت بالنَّاسِ. فهذا الذي نتكلَّم عليه هو ما نُقل وشُوهِد وعُلم، فكيف بما لم يُنقل! وهو أكثر؟

● إذا انتقلنا إلى ما هو أخصُّ، دع عنك من لم يؤمن بالله -جلَّ وعلا- حتى الذين آمنوا، حتى الذين قالوا: لا إله إلا الله، الذين يرفعون الشَّهادة في كلِّ صباحٍ ومساءً، ويشهدون أنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما حالهم في صلاح عبادتهم، في استقامة دينهم، في معرفتهم بشرائع ربهم؟ سواءً في ما كان أهمُّ الأمور، وألزم الأشياء، وأهمُّ المهمَّاتِ مِنَ شرائع الإسلام الخمسِ، أوركائزه الخمسِ، أو ما يتبع ذلك من أحكامٍ وتعاملاتٍ

(١٧) صحيح مسلم (153)، ولفظ الحديث: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ".



وغيرها؛ فالجهلُ فاشٌ في النَّاسِ، ونخشى أن يكون هذا الوقت قرب من الوقت الذي بلغ به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم- إن لم يكن هو، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْتَزِعُ الْعِلْمَ مِنَ النَّاسِ انْتِزَاعًا ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ ، فَيَرْفَعُ الْعِلْمَ مَعَهُمْ وَيُبْقِي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَلًا يُفْتَوْنَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ»<sup>١٨</sup>.

- الضَّلَالُ كثيرٌ، البلاءُ كثيرٌ، سواءً كان في ذلك ممَّا يتعلَّق بالأعمالِ الشَّرَكِيَّةِ، أو كان ما يتعلَّق بالأعمالِ البدعيَّةِ، ما يتعلَّق بالأهواءِ، ما يتعلَّق بالطَّرَائِقِ المنحرفةِ، سواء فيمَن يَسُبُّ آلَ النَّبِيِّ، أو يَسُبُّ أصحابه، أو يَخْرُجُ ويستبيحُ دماءَ المسلمين، قلْ مثل ذلك أشياء كثيرةٌ جدًّا، مَنْ يتعبَّدون ويجهِّدُون أنفسهم لكن على ضلالةٍ وعلى بلاءٍ وفتنةٍ، وهذا حديثٌ لو استنطقنا الحجرَ لنطقَ مِن شِدَّةِ ما وصلَ إليه الأمرُ، حتى تعبَّد النَّاسُ بما لا يكاد يصدِّقه العاقل من الارتكاسِ في الجهلِ والبلاءِ والفتنةِ.

### ؟ هذا إلى أي شيء يدعوننا؟

- إلى أن نوذِّي الواجب الذي أوجبه الله -جلَّ وعلا- علينا، إلى أن نتحمَّلَ هذه الجمالة ونأخذها بجِدٍّ وبحَقِّها، ولذلك قال الله -جلَّ وعلا- عن نبيِّه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5]، ليس بالأمرِ اليسيرِ، ليس بالأمرِ الصَّغيرِ، ولكنَّه قولٌ ثَقِيلٌ، وإذا كان هذا صفِيَّه من خلقه، ومع ذلك يَبْنِي الله عِظَمَ هذا القول الذي سيتلقَّاه، ولذلك كان إذا أُوحي إليه يتصفَّدُ جبينه عرقًا في شِدَّةِ البردِ<sup>١٩</sup>، من عِظَمِ هذا الأمرِ، للدَّلالةِ على كبره وأهميَّته، فإذا كان هذا هو حال نبيِّنا، فلنعلم أنَّا كذلك، ولما عظُمت الحاجة، تعلَّقت بنا عِظَمُ المسئوليَّةِ.

- إذا كان للدَّعوةِ فضلٌ وأهميَّةٌ من جهةٍ ما جاء فيها من التَّصوصِ، ومن جهةٍ ما تعلَّق بها من الأجرِ والثَّوابِ، ومن جهةٍ ما يحصلُ بها من الخيرِ والهُدَى، فإنَّ ذلك يَعِظُمُ بما شاعَ في النَّاسِ من الجهالاتِ، وما انتشرَ من البدعِ والضَّلالاتِ، وما عمَّ وطَمَّ، حتى صارَ كالبحرِ المتلاطمِ، كالأُمُوجِ الهائجةِ، التي أغرقت جُمُوعَ المسلمين، إلَّا مَنْ رَحِمَ الله -جلَّ وعلا- فاستنار بنورِ العلمِ، واستعصم بهدي الكتابِ والسُّنةِ، فأنازَ الله بصيرته، وعبدَ الله -جلَّ وعلا- على هُدًى وصوابٍ.

- جانبٌ آخرٌ إذا نظرنا إليه هو كالمكمِّلِ لهذا الجانبِ، وهو عِظَمُ وكثرةُ مَنْ يتصدَّى للدَّعوةِ إلى الباطلِ، سواء الدَّعوةِ إلى الوثنيَّةِ، الدَّعوةِ إلى الإِشْرَاقِ بالله -جلَّ وعلا- الدَّعوةِ إلى الأديانِ المبدَّلةِ والمنسوخةِ، كم جُنْدٍ لذلك من أناسٍ؟ كيف وصلوا إلى أطرافِ الجبالِ؟ إلى بلادٍ لا يكاد يُوصَلُ إليها، كيف أنفقوا من أموالٍ وملياراتٍ؟ كيف جَنَدُوا لأجل ذلك من قنواتٍ ووسائلٍ إعلامٍ؟ بل إنَّكم لتعلمون أنَّه سُخِّرت سياساتٌ دولٍ، وتبعَت ذلك التَّسهيلاتُ من دعوة النَّاسِ إلى الضَّلَالِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى، وهذا أمرٌ لا يكاد يخفى، حتى إنَّ الحروبَ التي هي الحروبِ، والتي يكون بها الطَّرْدُ والتَّشريدُ والتَّقْتِيلُ والحبسُ والسِّجْنُ وإلى غير ذلك يَأْبُونُ إلَّا أن تُستغلَّ للتَّهويدِ والتَّنصيرِ والدَّعوةِ إلى تلك الدِّياناتِ الباطلةِ.

<sup>١٨</sup> صحيح مسلم (4835).

<sup>١٩</sup> لفظ الحديث: " كَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ ثَقُلَ لَذَلِكَ، وَتَحَدَّرَ جَبِينُهُ عَرَقًا..." صححه الألباني في صحيح الجامع (4792)

- إذا ما نظرنا إلى المسلمين كم من الدَّعوات الضَّالة التي تأتي عليهم؛ أليست دعوات كثيرة يا إخوان؟ كثيرة للغاية، يعني الدَّعوة إلى المناهج المنحرفة، الدَّعوة إلى الأفكار الباطلة، الدَّعوة إلى المعاني المضلَّة، سواء كان ذلك إلى عبادات طقوس صوفيَّة، أو إلى مسالك منحرفة، أو تشويه الإسلام بالليبراليَّة، أو العلمانيَّة، أو كان ذلك، وهو الذي اصْطَلَى النَّاسُ بناره في هذا الوقت، وهي ما جرى من استباحة الدِّماء، وتكفير النَّاسِ، والإسهال في القتل والتَّشريد، والبلاء على الإسلام والمسلمين.
- وأعظم ما في ذلك أنَّها شوَّهت صورته، ورأها النَّاسُ بغير المعين الصَّافي، الذي جاء به نبيُّنا صلى الله عليه وسلم، وتبع ذلك البلاء على المسلمين، حتى تداعى الشَّرق والغرب بسبب هذه الممارسات إلى الشَّرِّ الكبير والبلاء العظيم.
- ما يدلُّ على الحاجة إلى الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- هؤلاء المتصدُّون ما حالهم؟ كثيرٌ منهم أجهلٌ من جِمار أهله، جهل كثير مع ما أُوتي من العاطفة والبذل والتَّضحية والسَّفر والتَّجريد وترك كثيرٍ من حظوظ الدُّنيا وشهواتها، والانغماس في رغباتها، وخلَّص نفسه ليدعو إلى الله -جلَّ وعلا- لكنَّ دعوته كانت على غير أساسٍ، على غير أصلٍ، على غير منهاجٍ رصينٍ، فأشبهه ممَّن يزيد الطَّين بلاءً، والبلاء بلاءً، فلمَّا تصدَّى للدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- هؤلاء الجُهلة، هؤلاء الذين شوَّهوا صورة الإسلام، هؤلاء الذين يدعُّون إلى غير دين الله -جلَّ وعلا-، وإن ظنُّوا أنَّهم على هدى أو حقٍّ أو صوابٍ، هذا ممَّا يزيد في أهميَّة أو في الحاجة إلى الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- لمن استطاع أن يعرف مقامه فيها، وأن يؤدِّي حقَّها، وأن يقوم بها على منهاج النُّبوة، على دعوة أهل السُّنة والجماعة، بعلمٍ وهدى، وبصيرةٍ ونُهَى، وبُعِد عن الضَّلالات والرَّدَى.
- ولو استعرضنا أمثلةً، أو دخلنا في بعض التِّيَّارات، لرأينا في ذلك شيئاً كثيراً، أعظم من هذا أيضاً وهو أمرٌ مهمٌّ لا بدَّ أن تنتبهوا له، أنَّ ممَّن تصدَّى إلى الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- أناسٌ جُنِدوا لتشويه الإسلام، فأرادوا أن يختزلوا الإسلام في مظاهرٍ، أو في شعاراتٍ، أو في بعض العبادات، ويُنحُوا الإسلام برمته عن حياة النَّاسِ، وعن قلوبهم، وعن أيامهم ولياليهم، فجعلوا ذلك إمَّا في بعض الشَّعائر أو في بعض الممارسات وانتهوا، بعضهم يجعله في الصَّلَاة والزَّكاة، أو في الصَّلَاة والحجِّ، أو في الصِّيَام، بعض الأشياء الأخرى، بعضهم يجعلها في التَّكاح أو المواريث أو غيرها، وما سوى ذلك يكون النَّاس فيه سواء.
- أيضاً جعل بعض الشَّعارات الزَّائفة التي يُرَوِّج لها الكفَّار ومَن جهل من أهل الإسلام فأراد أن يُسَوِّق مثلاً الشُّيوعيَّة على أنَّها شيء من الإسلام، أو أنَّ الإسلام جاء بها، أو الدِّيمقراطيَّة، أو غير ذلك، أو حتى بعض الأشياء الباطلة، كبعض الدَّورات التي يتعاطاها النَّاس إنَّما هي مستقاة من ديانات البوذيين وغيرها من دياناتٍ شركيَّة، ألبست بلبوس بعض الأدلَّة، أُجيب بما يسندها من بعض ما جاء في السُّنة النُّبويَّة، فظنَّ أنَّ ذلك أصلٌ لها، فصَحَّح كلُّ ما جاء في تلك الدَّورات، فابتلي النَّاس في ذلك ببلاءٍ عظيمٍ.
- ما جاء في السُّنة من الدَّعوة إلى الله، البلاغ، تأدية الهدى، الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وجاءت بعض الأدلَّة في هذا، أو بعض الألفاظ، كلُّها متقاربة، من ذلك: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى...»<sup>٢٠</sup>، «لأنَّ يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلًا

<sup>٢٠</sup> صحيح مسلم (4837).

وَأَحَدًا...»<sup>٢١</sup>، «مَنْ دَلَّ...»<sup>٢٢</sup>، الدَّلالة والإرشاد ونحو ذلك، «يَلْغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>٢٣</sup>، البلاغ والتبيين والتوضيح. أيضًا: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا»<sup>٢٤</sup>، إذن التَّأدية والبلاغ جانب منها. «لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»<sup>٢٥</sup>، «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ»<sup>٢٦</sup>، كُلُّهَا تدلُّ على أمرِ الدَّعوةِ إلى الله -جلَّ وعلا.

• هل بينها فرق؟

الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- جاءت بعبارة "الدَّعوة" وجاءت بعبارة "البلاغ والتَّأدية" وهكذا، وهذه تكاد تكون شيئًا واحدًا، لكنها أبواب من الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى.

**هل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعوة إلى الله -جلَّ وعلا-، وهل هما شيء واحد وأسماء لحقيقة واحدة؟ أم بينهما فرق؟**

• ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 104]، هذه الآية بخصوصها هي التي حصل بسببها الكلام؛ لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عطفَ على: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، فبناءً على ذلك الأصل في العطف أنَّه يدلُّ على المغايرة والتَّباين، فهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخالفًا للدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا؟

• هذا فيه كلام، أكثر ما يُمكن أن يُقال: أنَّ بعضَ أهل العلم يقول: هي شيء واحد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بابٌ من أبواب الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.

وهنا يقول في الآية ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾، الخير: هو الإسلام.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الدَّعوة إلى ما في الإسلام من الخير والهدى وحبِّ النَّاس على الأمر والنهي ونحو ذلك.

**ما حقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ما المعروف وما المنكر؟**

• المعروف: كُلُّ ما أَمَر به الشَّارِعُ، يعني المعروف ممَّا حصل العلم به والمعرفة، لكن المقصود هنا في باب الشَّرع: هو ما جاءت معرفته أمرًا معروفًا متقررًا من جهة الشَّارِع، من جهة الكتاب والسُّنة.

• والمنكر: ما أنكره الشَّرع؛ لأنَّه ربَّما تُنكر النَّفوس شيئًا ممَّا لا ترضاه، وهو صحيح، والعكس بالعكس، فبناءً على ذلك: لا اعتبار بالنُّفوس والأذواق وغيرها، وإنَّما الميزان ميزان الشَّرع.

<sup>٢١</sup> صحيح البخاري (3701).

<sup>٢٢</sup> صحيح مسلم (1893).

<sup>٢٣</sup> صحيح البخاري (3461).

<sup>٢٤</sup> مسند أحمد (16388).

<sup>٢٥</sup> مسند أحمد (22690).

<sup>٢٦</sup> مسند أحمد (11246).

✓ منهم مَنْ قال: إِنَّ بينهما فرق، فبعضهم نقل عن أبي العالية أنه قال: "الأمر بالمعروف: هو الدَّعوة إلى التَّوحيد، والنهي عن المنكر: هو الدَّعوة إلى النهي عن الإشراك"<sup>٢٧</sup>.

✓ وقد يُقال أَنَّ هذا ليس بصوابٍ، وقد نقول أَنَّهُ على طريقةِ السَّلَفِ أَنَّ هذا الجواب هو جوابٌ بالمثال، وهذا مشهورٌ عندَ السَّلَفِ كثيرًا، فيقصد أَنَّ هذا أعظمه، أو هذا بابه، أو هذا أتمُّ ما فيه وأكمل.

✓ ومنهم مَنْ قال: إِنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر -وهذا أخصُّ ما قيلَ وأهمُّ ما يمكنُ أن يُقالَ لِمَنْ يُفَرِّق بينهما- وهو: أَنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، هو أخصُّ من الدَّعوة، فهو إبانةٌ عن الحقِّ في وقتِ الحاجةِ إليه، إمَّا لشخصٍ احتاجَ إلى أن يقومَ بالواجب فلم يقم به، أو شخصٌ فعلَ ما لا يجوزُ له فعله، فيجبُ التَّنبيه عليه، ويتحقَّق بذلك الأمر والنَّهي، والقيام بهذه الوظيفة والخصيصة، وهي خصيصة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.

● الدَّعوة بأجها أوسع، تأسيس، ابتداء، تنبيه، قد يكون فيه ما هو واجب، وما هو مستحبٌّ، وأمَّا التَّرقِّي في درجاتِ الفضائلِ فبابه أوسع، بل قد يدخل فيها من باب الإحسان إلى الخلق وحثُّهم على ما يكون فيه صلاح أمور دنياهم، وهذا جاءت به السُّنَّة.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه. وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



<sup>٢٧</sup> ذكره الطبري في جامع البيان، في تفسير قوله: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }. قال: "عن أبي العالية قال: كل ما ذكره الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ف"الأمر بالمعروف"، دعاء من الشرك إلى الإسلام، و"النهي عن المنكر"، النهي عن عبادة الأوثان والشياطين" (ج 14 ص 348).



### الدرس الثالث



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

#### شروط الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.

##### ❖ أولاً: الإخلاص.

- فالدَّاعي إلى الله -سبحانه وتعالى- لابدَّ أن يكون مُخلصاً، قاصداً وجه الله -سبحانه وتعالى- تجرَّد لهذا العمل وأقام هذه الشعيرة، وفعل هذه السُّنة وتخلَّى عن كثيرٍ من رغباته وأمورٍ نفسه، كلُّه لله -سبحانه وتعالى.
- إذا أردنا أن نستدلَّ على هذا المعنى، فأوَّل ما يُمكن أن نستدلَّ به على أنَّها عبادة وأنَّ كلَّ عبادةٍ لا تصحُّ إلا بنِيَّةٍ، هو قول الله -جل جلاله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5].
- فَمَن قال -على سبيل المثال: قُم إلى الصَّلَاة، لكنَّه ما كان مخلصاً وإنَّما أراد أن يخلو له المكان أو يتخلَّص من ذلك الجالس، فإنَّه لم يأمر بخيرٍ ولم يدعُ إلى الله ولم يُحثَّ على طاعة.
- فلا بدَّ إذن أن يكون الذي يدعو إلى الله -جل جلاله- مخلصاً لله، قاصداً وجه الله -سبحانه وتعالى- مُتخلصاً من كلِّ حظوظ النَّفسِ ورغباتها، والتفاتِ القلبِ وتوجُّهاته، وأصل ذلك حديث عمر -رضي الله تعالى عنه: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»<sup>٢٨</sup>.

<sup>٢٨</sup> صحيح البخاري (1).

• إذن هذا دليلٌ أيضًا على أمر الإخلاص، وهذا يتناول جميع الأعمال، لكن إذا دققنا قليلًا أو خُصنا فيما يتعلق بأدلة الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- فستجد أنها أخصُّ في الدَّلالة على هذه الشَّعيرة، لأهميَّة وجود الإخلاص فيها. قل على سبيل المثال: قول الله -جلَّ وعلا: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108] أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، ولذلك قال الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- عند ذكر هذه الآية في باب الدعاء إلى شهادة "أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" قال: "الدَّاعِيَةُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ لَا إِلَى نَفْسِهِ"، فتنبه وهذا كلام عظيم.

وانظر في آيات كثيرة في الدَّعوة إلى الله -جلَّ جلاله- ستجدها لا تنفك من الإشارة إلى هذا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]، ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

• يتنبه الدَّاعي إلى أنه لابد أن تكون دعوته خالصةً مخلصَةً مِنْ كُلِّ هَوًى وَمِنْ كُلِّ رَغْبَةٍ وَمِنْ كُلِّ قَصْدٍ مِنْ قَصُودِ الدُّنْيَا وَرَغْبَاتِهَا وَمُيُولِهَا، كَمَنْ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ تَزَيَّنَتْ بِهِمُ الشَّاشَاتُ -ولا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله- وإنَّما كان همُّه أن يُقال فصيحٌ في كلامه أو حَسَنٌ في بيانه أو رفيعٌ في منطقهِ أو قديرٌ في عبارته... إلى غير ذلك من الأشياء، ولا أدري أنا وأنت والحاضرون هنا وغيرنا، أن نكون ممَّنْ تشبَّت بالإخلاص أو فاتته، فإنَّ النِّيَّةَ سُرْعان ما تتبدَّل والقلبُ ما أكثر ما يتقلَّب، ولذلك كانت النِّيَّة من أيسر الأعمال وأصعبها وأعثرها على النَّفس، وأقرب ما تكون إلى الشَّيْطَانِ مَدْخَلًا يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ إِلَى الْبَلَاءِ وَيُعْرِضُهُ إِلَى الْفِتْنَةِ.

• وفي هذا حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أَنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- لَمَّا قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ ثَلَاثَةٌ» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «قَارِئُ الْقُرْآنِ» وفي رواية «يُؤْتَى بِهِ فَيُعَرِّفُ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَيَعْرِفُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَقْرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ وَأَقْرَأْتُهُ النَّاسَ، وَهَذَا يَقُولُ: بَذَلْتُ وَتَصَدَّقْتُ، وَهَذَا يَقُولُ: قَاتَلْتُ وَجَاهَدْتُ، فَيَقُولُ اللَّهُ -جلَّ وعلا: كَذَبْتَ إِنَّمَا قَرَأْتَ وَأَقْرَأْتَ لِيُقَالَ قَارِئٌ، وَلِيُقَالَ مُتَصَدِّقٌ، وَلِيُقَالَ شَجَاعٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ يُؤَمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»<sup>٢٩</sup>، يقول: وإنَّ أبا هريرة إذا رَوَى هذا الحديث شَهَقَ شَهَقَةً حَتَّى يُغْمَى عَلَيْهِ، لَعَلَّمَهُ بِعَظَمِ هَذَا الْوَعِيدِ، وَكَثْرَةِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ.

• ولذلك الإمام الطيبي -رحمه الله تعالى- نقل عنه شارح كتاب التَّوْحِيدِ في باب الرياء، الشيخ سليمان بن عبد الله ومحمد بن عبد الوهاب، كلامًا عظيمًا في الرياء وكيف يدخل على أهل العلم، وقال لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ أَعْيَى

<sup>٢٩</sup> لفظ الحديث للترمذي (2382)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثُرَ الْمَالُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أَعْلَمَكَ مَا أُنْزِلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِوَآتَاءِ اللَّيْلِ وَأَنَاءِ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَمْ أُوسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعَكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ. وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَوَادٌ وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: فَمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ: يَا أبا هريرة: أَوَّلُكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".  
<sup>٢٩</sup> مسند الإمام أحمد، وصححه أحمد شاكر (193/16).

الشَّيْطَانُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْ قِبَلِ الشَّهَوَاتِ وَمِنْ قِبَلِ الدُّنْيَا وَالْأَمْوَالِ، وَمِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ كَثِيرَةٍ التَّفَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى زَيَّنَ لَهُمْ أُمُورًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذَا الْبَابِ، فَاسْتَجَرَّهُمْ، فَمَالُوا، فَضَاعُوا.

وهذا قد حذر منه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ، الرِّيَاءُ»<sup>٣٠</sup>.

- جاء في بعض الآثار أو في بعض الروايات: "أنه حتى إذا وفي الناس أعمالهم: يأتي أناس فيقول: اذهبوا إلى من كنتم تراءون فيوفوكم أجوركم"<sup>٣١</sup> وهل أحد غير الله -جلَّ وعلا- يوفي الأجر في ذلك الموقف العظيم؟ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93] ولذلك يقول الحسن البصري -رحمه الله تعالى: "لَا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا إِذَا قَالَ: قَالَ لِلَّهِ، وَإِذَا عَمِلَ: عَمِلَ لِلَّهِ"<sup>٣٢</sup>، والله -جلَّ وعلا- يقول في ذلك: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].
- والله يا أيها الإخوة، لو ما أمرنا الله -جلَّ وعلا- بالبيان وتحملنا من القيام بهذه المهمة والأمانة، لكان أن يقعد الإنسان في بيته خيرًا له من أن يتعرض لهذه الفتنة، وليست فتنة أعظم من الظهور، فإنها قاسمة للظهور، ولذلك يقول إبراهيم بن أدهم كلمة عظيمة، يقول: "مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَرَادَ الشُّهْرَةَ"<sup>٣٣</sup>.
- مَنْ مَنَّا يَسْلَمُ فِي هَذَا الْوَقْتِ، حِينَمَا يَتَكَاثَرُ النَّاسُ فَيَتَكَثَّرُونَ بِمَتَابِعِهِمْ، بِمَنْ يَتَلَقَّوْنَهُمْ فِي الطَّرِقاتِ، بِمَنْ يَفْرَحُونَ بِهِمْ، بِمَنْ يَسْتَقْبِلُونَهُمْ فِي الْمَطَارَاتِ، بِمَنْ يُوجِّهُونَ إِلَيْهِمُ الدَّعَوَاتِ، بِمَنْ يُصَفِّقُ لَهُمُ النَّاسُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى الْإِنْسَانِ شَيْئًا، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ \* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89]، ولذلك قال أهل العلم في إتباع العالم: "ذِلَّةٌ لِلتَّائِبِ فَتْنَةٌ لِّلْمُتَّبِعِ"<sup>٣٤</sup>، ولم يزل النَّاسُ يُفْتَنُونَ بِهَذَا حَتَّى يَمِيلُونَ عَنْ إِرَادَةِ وَجْهِ اللَّهِ وَالْقَصْدِ وَالْإِخْلَاصِ وَطَلَبِ مَرْضَاةِ اللَّهِ -سبحانه وتعالى.
- وَلَمَّا كُنْتُ فِي إِقْبَالِ الطَّلَبِ وَبِدَايَةِ التَّحْصِيلِ، وَقَفْتُ عَلَى دَعَاءِ الْإِمَامِ أَحْمَد -رحمه الله تعالى- وَمِمَّا أَثَّرَ مِنْ دَعَائِهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَخْلَعْ ذِكْرِي"<sup>٣٥</sup> فكَنْتُ أَعْجَبُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، مَاذَا يَرِيدُ بِهَا؟ وَكَيْفَ يَرِيدُ إِخْمَالَ ذِكْرِهِ؟ وَالْإِنْسَانُ يَرِيدُ أَنْ يُعْرِفَ وَيُحْفَظَ عَنْهُ وَيُنْقَلَ عَنْهُ الْعِلْمَ وَتُؤَثَّرَ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَيَتَأَمَّى بِهِ النَّاسُ وَيُقْتَدَى بِهِ؟!
- فَلَمَّا مَرَّتْ بِنَا الْأَيَّامُ وَتَوَالَتْ عَلَيْنَا الْأَعْصَارُ، عَرَفَ الْإِنْسَانُ عِظَمَ مَا فِي الشُّهْرَةِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ، وَعِظَمَ مَا فِي الْإِنْكَفَاءِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ -جلَّ جلاله- وَصُولَ الْخَيْرِ، أَوْصَلَهُ وَلَوْلَمْ يَعْرِفَكَ

<sup>٣٠</sup> صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (35).

<sup>٣١</sup> ذكر هذا الأثر عن الفضيل بن عياض: "اليتني أموت وأنا مخلط، أخاف أن أموت وأنا مرئي، يدعى بي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، يا فضيل خذ أجرك من عملت له" (تاريخ دمشق لابن عساكر).

<sup>٣٢</sup> ورؤي عن أنس بن مالك مرفوعاً عند هناد في الزهد (435/2)، رقم (854) بلفظ: «يؤتى بآدم يوم القيامة إلى الميزان، فيقول الله: يا ابن آدم أنا خير شريك ما عملت لي فأنا أحزبك به، وما عملت لغيري فاطلب ثوابه ممن عملت له» (شرح البخاري للسفيري ج 1 - ص 124).

<sup>٣٣</sup> مصنف ابن أبي شيبة

<sup>٣٤</sup> ذكر الحافظ الذهبي - رحمه الله - في "سير أعلام النبلاء" (439/13): "قال عبد الرحمن بن مهدي: عن طلوت، سمعت إبراهيم بن أدهم، يقول: ما صدق الله عبداً أحبَّ الشُّهْرَةَ.

<sup>٣٥</sup> عن حبيب بن أبي ثابت قال: رأى ابن مسعود ناساً فجعلوا يمشون خلفه فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، قال: ارجعوا فإنها ذلةٌ للتابع فتنةٌ للمتَّبوع. (مصنف ابن أبي شيبة/ 3632)

<sup>٣٥</sup> سير أعلام النبلاء (ص 207) قال: دخل على أحمد عثمه، فقال: يا ابن أخي، أئش هذا العلم؟ وأئش هذا الحزن؟ فرفع رأسه، وقال: يا عم، طوبى لمن أحمل الله ذكراً.

النَّاسُ، وَلَوْ لَمْ يَحْفَظُوا لَكَ اسْمًا، وَلَوْ لَمْ يُصَفِّقُوا لَكَ، وَلَوْ لَمْ يَتَكَاثَرُوا عَلَيْكَ فِي مَسْجِدٍ وَلَا فِي دَرْسٍ، فَرَبَّمَا كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً يُخْلِصُ بِهَا الْعَبْدُ لِلَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- خَيْرٌ مِنْ مَجَالِسَ كَثِيرَةٍ لَا حُدَّ لَهَا وَلَا إِحْصَاءٌ، لَا يُؤَفَّقُ فِيهَا الْعَبْدُ لِلْإِخْلَاصِ.

• والعجبُ أنَّها الإخوة أنَّ بابَ الدَّعوةِ إلى الله -سبحانه وتعالى- كان فيما مَضَى يحتَفُّ به الرِّياءُ والسُّمعةُ ونحو ذلك، مع ما فيه من البلاءِ والتَّجَلُّدِ والشَّدةِ وكثرةِ الفتنةِ وقَلَّةِ الحالِ والفقرِ والفاقةِ، وربَّمَا يُعْرَضُ عنه النَّاسُ، وربَّمَا طُرِدَ، وربَّمَا ابْتُلِيَ، ومع ذلك هو بابٌ من أبوابِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ في الانصرافِ عن الإخلاصِ، فكيف به في هذه الأزمنة التي ربَّمَا صارت بابًا من أبوابِ الجاهِ أو التَّكثُّرِ أو التَّكسُّبِ أو التَّعَرُّضِ للمواطنِ وللوظائفِ وللوجهاتِ ولغيرها، أو مخالطةِ أصحابِ الأموالِ والثَّرَوَاتِ وغيرها.

• فَإِنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ فِي حَصُولِ الْفِتْنَةِ بِالْدَّعوةِ، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ قَلَّةٌ فِي الصَّلَاحِ، وَضَعْفٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَإِعْرَاضٌ أَوْ نَقْصٌ كَثِيرٌ فِي الْخُلُوتِ، فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، فِي ذِكْرِ اللَّهِ، فِي الْحَزَبِ مِنَ الْقُرْآنِ، فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ -جَلَّ جلاله- بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الانحرافِ إِلَّا شَيْءٌ قَلِيلٌ، وَلَا يَكَادُ يَسْلَمُ مَنْ إِلَّا مُسْلِمًا، وَأَخْشَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَجْلِسُ حِجَّةً عَلَيْنَا لَا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- لَكِنْ لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ وَطَلَبُنَا وَرَجَائُنَا لِلَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَتَجَاوَزَ وَيَغْفِرَ، وَأَنْ يَعْفُوَ أَوْ أَنْ يَصْفَحَ، وَأَنْ يُصْلِحَ الْقَلْبَ وَأَنْ يَعْفُوَ عَنِ الْعِثْرَةِ، وَأَنْ يَمَحُ الدَّلَّةَ، وَأَنْ يَتَجَاوَزَ عَنِ الْخَطِيئَةِ، وَإِلَّا لَكَانَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْهَالِكِينَ.

• وَإِذَا جَاءَ الْحَدِيثُ عَنِ الدَّعوةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ جلاله- فَإِنَّ أَوَّلَ مَا يُذَكَّرُ فِيهَا، وَأَعْظَمُ مَا يُذَكَّرُ فِيهَا، هُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- ذَلِكَ أَنَّ الدَّعوةَ دعوةً إِلَى اللَّهِ، فكيف لشخصٍ يدعو إلى الله وهو يقصد غير وجهه الله؟ كيف لشخصٍ يأخذ وظيفةَ الرُّسْلِ الَّذِينَ كَانَتْ مَهْمَتُهُمْ وَحْيَاتُهُمْ وَكُلُّ أَحْوَالِهِمْ دعوةً إِلَى اللَّهِ -سبحانه وتعالى- وهو على غير طريقه وأبعد ما يكون عن منهاجه، وهو إنَّما هو في سبيلِ الشَّيْطَانِ، وهو إنَّما يجمعُ حظوظَ النَّفْسِ وَرَغْبَاتِهَا، مِنْ كَسْرَةِ خَبْزٍ أَوْ لُقْمَةِ عَيْشٍ أَوْ رَغْبَةٍ فِي جَاهٍ، أَوْ طَلَبٍ لوظيفةٍ أَوْ تَكثُّرٍ فِي مَجْتَمَعٍ، أَوْ طَلَبٍ تَرْقُعٍ عَلَى الْأَقْرَانِ، أَوْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَطَالِبِ وَالْأَغْرَاضِ. فكم من الذين لمَّا انصرفوا عنهم أهْلُوهم وذوهم، لم يجدوا إِلَّا الدَّعوةَ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- لَعَلَّهَا أَنْ تُعِيدَ لَهُمْ شَأْنًا أَوْ أَنْ تُظْهِرَ لَهُمْ قَدْرًا.

• قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>٣٦</sup> يعني: لم يجد ربحها. إِذَا تَقَرَّرَ أَنَّكُمْ أَهْلُ الطَّلَابِ -طُلابُ الْعِلْمِ وَطَلَبَتِهِ- أَنْتُمْ الدُّعاةُ إِلَى اللَّهِ، الرَّاعِبُونَ إِلَى اللَّهِ، الْمَرْغِبُونَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمَبَاعِدُونَ عَنْ سَبِيلِ الشَّيَاطِينِ، أَحْوَجُ مَا تَكُونُونَ إِلَى اسْتِحْضَارِ الْإِخْلَاصِ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَفِي كُلِّ سَكْنَةٍ، وَفِي كُلِّ قَلِيلٍ وَفِي كُلِّ كَثِيرٍ، وَأَنْ يَتَفَقَّدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ قَبْلَ الْعَمَلِ فِي أَثْنَاءِهِ وَبَعْدِهِ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا حَالَهُ فِي كُلِّ شَأْنِهِ، أَنْ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ.

❖ ثَانِيًا: الْعِلْمُ فِي الدَّعوةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا-.

<sup>٣٦</sup> مسند الإمام أحمد، وصححه أحمد شاكر (193/16).



- العلم هو أساسها وهو سبيلها، فمن لم يكن عالماً فإلى أي شيء يدعو؟ إلى الجهالات، إلى المحدثات، إلى البدع، إلى الشيطان، إلى الشرور.
- يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي مرّ بنا: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ**»<sup>٣٧</sup> فإذا النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو رسول رب العالمين بُعث بالعلم داعياً إليه، فلم يدعُ إلى نفسه، ولم يبتدر بآرائه وحبائل أفكاره -صلوات ربي وسلامه عليه- إنما كان وحي يوحى وسنة يتلقاها، فيؤدّي الأمانة فيها، فهذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكان كذلك المتبعون لسنته، المنتهجون نهجه، الطالبون لهداية العباد إلى دينه وشرعته.
- ولذلك تعرفون تبويب البخاري "بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ" وذكر الآية في قول الله -جلّ وعلا: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ [محمد: 19] قال شرح الحديث: فدلّ ذلك على أنّ العلم سابق للقول والعمل، وأنّه شرط لقبولهما، فإنّه لا يتأتى للإنسان قولٌ صحيحٌ وعملٌ سديدٌ إلّا بالعلم.
- ولذلك جاء في الآية التي سبقت وذكرناها في المقوم الأول من مقومات الدعوة: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ**﴾ [يوسف: 108] والبصيرة من البصر، وذلك أنّ البصر يحصل به رؤية الأجسام والأشياء، لئلا يقع فيها الإنسان ويتدهده، فكذلك البصيرة للقلب، هي تنجلي بها الجهالات ويفتح للإنسان باب العلم والإنارات، فتفتح له آفاق الهدى والاستقامة والبيان والمعرفة.
- ولهذا لن يفلح شخصٌ دخل في الدعوة على غير علمٍ وبصيرةٍ ، ولذلك جاء في دلالات الأحاديث ما يدلّ على هذا الشأن ويؤكد عليه، وكذا في دلالات الله -سبحانه وتعالى- لا ينفك كثير من الأحاديث الدالة على هذا والداعية إليه.
- «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**»<sup>٣٨</sup> فلا بدّ أن يكون سالكاً طريق العلم، طالباً له، مبتغياً لسبيله، غير ملتفتٍ يميناً ولا شمالاً.
- يقول الحسن البصري -وهي كلمة أيضاً جاءت عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى- أنه قال: "وَالْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُ" ، وتأملوا كلمة الحسن، يقول -رحمه الله تعالى: "الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرُ مِمَّا يُصْلِحُ" ، فاطلبوا العلم طلباً لا تضرّوا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا تضرّوا بالعلم، فإن قومًا طلبوا العبادة، وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيا فيهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولو طلبوا العلم لم يدلّهم على ما فعلوا"<sup>٣٩</sup> يشير إلى الخوارج، فإنهم كانوا أصحاب عبادة، وأصحاب صلاة، وأصحاب قيام ليل، وأصحاب صيام، ومع ذلك هم الذين قتلوا عثمان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- وهم الذين فتحوا باب الفتنة وانفتحت إلى آخر هذه الدنيا.

<sup>٣٧</sup> البخاري (78)، ومسلم

<sup>٣٨</sup> مسند أحمد (8115)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (183).

<sup>٣٩</sup> جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (621)

- إذا قلنا من أنه لابد من العلم في باب الدَّعْوَةِ إلى الله -جل جلاله- فهذا أمرٌ ظاهرٌ بَيِّنٌ، ولما بعث النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- معادًا إلى اليمن، قال: «كَيْفَ تَقْضِي إِنْ عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟»، قال: "أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ"، قال: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ»، قال: "فَسُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، قال: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟»، قال: "أَجْتَهِدُ رَأْيِي وَلَا أَلُو"<sup>٤٠</sup>.

- لو نظرنا في قول النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>٤١</sup> هذا من الأحاديث التي رواها البخاري في صحيحه، وهو من أهم الأحاديث الدالة على أهمية العلم في الدَّعْوَةِ إلى الله -سبحانه وتعالى- لم يقل النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- مَنْ حَفِظَ آيَةً فليكن داعيًا إلى الله، وإنما قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

- إذن يُبَلِّغُ الإنسان بقدرِ ما عِلِمَ، بقدرِ ما حَفِظَ، بقدرِ ما تَعَلَّمَ، بقدرِ ما فَهِمَ، لا يجوز له أن يتجاوز ذلك، ويدلُّ على هذا دلالة جلية واضحة الحديث الآخر، أن النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاها، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا»<sup>٤٢</sup>.

أَوَّلُ الحديث: «نَضَرَ اللَّهُ» الدعاء له بأن يُعْطَى نَضَارَةً في وجهه، وهذه دعوة من النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاها، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا» هذا يدلُّ على ماذا؟

✓ هل يدل على أنَّ الإنسان يتخبط بالجهالات؟

✓ هل يدل على أنَّ الإنسان يدخل فيما لا يحسن؟

✓ هل يدل على أنَّ الإنسان يقول ما لا يعلم؟

لا، وإنما هو أداءٌ لما وعى، أداءٌ لما حفظ، أداءٌ لما عرف «فَرَبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى»<sup>٤٣</sup>، وفي رواية «فَرَبَّ حَامِلٍ فَفْهِه لَيْسَ بِفَقِيهِ»<sup>٤٤</sup>.

- إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يخوضون غمار الدَّعْوَةِ مِنْ أَهْلِ الجَهالات وعدم التَّريُّث في العلم والتَّزود منه يستدلُّون بهذا الحديث «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً» وهذا ليس فيه مُسْتَمْسَكٌ لهم بوجه من الوجوه، وذلك لأنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً».

الحديث فيه دلالة على أنَّ الإنسان يُبَلِّغُ ما حفظ، آية أو أكثر، لكن ليس فيه أنَّ مَنْ حفظ آية جاز أن يقول في كلِّ ميدانٍ، أو يتكلَّم في كلِّ سبيلٍ، خلافًا للحال الذي يفعلونه، بمجرد أن يخرج شخصٌ من محلِّ بلاءٍ وفتنةٍ وشرٍّ، حتى يذهبوا به ويعرضوه للنَّاس، يتكلَّم ويدعوا ويعظ، وهذا خللٌ كبير وخطأ ظاهرٌ بَيِّنٌ عظيم، فإنَّما يُبَلِّغُ الإنسان ما عرف وينقل ما حفظ.

**هل من لازم الدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعلا- أن يكون الإنسان عالمًا؟ أو أن الدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعلا- تتجزأ بحسب العلم؟ فمن عِلِمَ قليلًا دعا قليلًا، ومن عِلِمَ أكثر دعا بحسب ما عِلِمَ أو حتى يكون الإنسان عالمًا؟**

<sup>٤٠</sup> مسند أحمد (21527).

<sup>٤١</sup> صحيح البخاري (3461).

<sup>٤٢</sup> مسند أحمد (16388).

<sup>٤٣</sup> سنن الترمذي (2657)، وصححه الألباني.

<sup>٤٤</sup> سنن أبي داود (3660).

- من حيث الأصل فإنَّ الدَّعْوَةَ إلى الله -جلَّ وعلا- هي وظيفة عظيمة، فلا بدَّ أن يكون المتصدّي لها - والمتصدّي هو من تكون هذه وظيفته، كما كانت وظيفة الأنبياء والمرسلين- فلا شكَّ أنَّه لابدَّ أن يكونَ على قدرٍ من العلمِ وافر، وأن يُحصِلَ درجةً مُعيَّنة لها على ما هو فيه، وإلا يوشك أن يذللَّ في حالٍ من الأحوال.
- ولا نَشترط كمال العلمِ حتى لا يفضي ذلك إلى أن لا يتصدّى لها إلا القلَّة القليلة من النَّاس، لكن الأصل أنَّ مَنْ يتصدّى لهذه الوظيفة ويتفرَّغ لها، أن يكون على علمٍ وبصيرةٍ في أقلِّ الأمور بأصولِ الشَّرع، وبما يتعلَّق بما يحتاج إليه عموم النَّاس، وأن يكون عالمًا بفروض الأعيان وما يحتفُّ بها ممَّا تَشتهِر حاجة النَّاس إليه أيضًا من فروض الكفايات؛ ليكون مُستعدًّا لما يعرض للنَّاس من استفتاءٍ ولما يتجدَّد للنَّاس من سؤالٍ ولما يقعُ لهم من إشكالٍ ولما ينتابهم من أمرٍ في زَوَجاتهم أو طلاقٍ أو بيعٍ أو شراءٍ أو غير ذلك، إذن هذا من جهة.
- من جهةٍ أخرى نقول: يمكن أن مَنْ كان ذا علمٍ أقلَّ أن يكون له مُشاركة في الدَّعْوَة، لكن حذاري أن يتجاوز شيئًا لم يعلمه، حذاري أن يقول على الله ما لا يُحسِّنه وما لا يَعلمه، والله الله أن يستجريه الشَّيطان؛ فيتجرَّأ على الحدود والحرَمات، وإنَّ كثيرًا من البلاء الذي وَقَعنا فيه في هذه الأزمنة، أنَّه بدأ أناسٌ بالدَّعْوَة ظانِّين أنَّ عندهم شيء وليس ثَمَّ شيء عندهم، حتى إذا نصَّبهم النَّاس يظنُّون بهم الخير ويظنُّون بهم العلم، وهم ليس عندهم علم، ولم يرجعوا ليعرفوا قدرهم وإنَّما تقدَّموا، فسئلوا فأفتوا، فضلُّوا وأضلُّوا، وما جهالاتٌ كثيرٌ من أهل البدع والأهواء والمتصوفة إلا من هذا، وما ضلالاتٌ كثيرٌ من أعمال الإرهاب وإراقة الدِّماء والتَّسلُّط على المسلمين والمعصومين من أهل الكتاب وغيرهم إلا من هذا الباب.
- قرأ شخصٌ كتابًا أو حفظ القرآن أو تخرَّج من معهدٍ علميٍّ أو دراسةٍ جامعيَّة دينيَّة، أو جلس بين يدي شيخٍ جُلوسًا قليلًا أو أخذَ نَتَقًا من هنا وهناك عبر هذه المواقع وعبر هذه المجالس، فظنَّ أنَّه حاز العلم؛ فتكلَّم وأفتى وأعجبه حلاوة كلامه، وأدخلَ إليه الشَّيطان العجب والهوى، حتى ضلَّ وأضلَّ. فإذا من كان ذا علمٍ قليل، فنقول: إنَّما يَسَعُه أن يقول ما علم.
- لكن هنا مسألة كثيرة الحصول: وهو أنَّ أناسًا ربَّما يحفظوا حديثًا أو يعرفوا آيةً أو يسمعون مسألةً، فيدعون النَّاسَ إليها، على حين أنَّه إنَّما يعرف رأس المسألة، أمَّا قُيُودُها وما يتعلَّق ببعض اعتباراتها وما فيها من دقائقها لا يحسنها، فربَّما يأتي بأصل المسألة ثم ينقضها، وربَّما أتى بالمسألة وما يعارضها، وربَّما أتى بالمسألة على غير وجهها، فلأجل ذلك حتى إذا قلنا إنَّ العلم يتجرَّأ، فلا بد للإنسان أن يكونَ حافظًا لهذه المسألة على وجه دقيق، وأن لا ينقلَ مسألةً إلى مسألةٍ أو حالًا إلى حالٍ أخرى، فإذا اشتبه عليه فالأصل أن يسكت، وأن لا يتكلَّم، وأن لا يدخل في هذا الميدان، فيكون سببًا للبلاء والجهل والضَّلال والإضلال.
- أعجب شيء رأيته خلالَ دراستي أنَّي أنا وغيري كثيرًا ما نذكر عن الصَّحابة أنَّهم يقولون: "مَنْ تكلَّم فيما لا يَعْلَم فقد أصيبَ مقاتله، لا أعلم نصف العلم" <sup>٤٥</sup>، إلى غير ذلك من الأشياء، تورَّعُهم عن الفتاوى، وتَدَأفُهم للفتيا، ونَقَلَ ابنُ القيم وغيره في إعلام الموقعين من هذه الروايات والآثار.

<sup>٤٥</sup> جاء في الآداب الشرعية عن ابن مفلح، قال ابنُ عَسَاسٍ: رضيَ اللهُ عَنْهُمَا إِذَا تَرَكَ الْعَالِمُ لَا أَذْرِي أَصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ، وَقَالَ مَالِكٌ: كَانَ يُقَالُ إِذَا أَغْفَلَ الْعَالِمُ لَا أَذْرِي أَصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ وَقَالَ أَيْضًا: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَسَيِّدَ الْعَالَمِينَ يُسْأَلُ عَنْ الشَّيْءِ فَلَا يُجِيبُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْوُحْيُ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: لَا أَذْرِي نِصْفَ الْعِلْمِ

- ثم إذا جاء الميدان إلى الواقع، تجد أنَّ كثيرًا مِنَّا أسرع ما يكونُ إلى القولِ في المسألةِ، وأسهلَ ما يكونُ عليه الإفتاء، وأهونَ ما يكونُ عليه التَّصدي لها، وهذا من استجراء الشَّيطان لنا، فينبغي للإنسان أن يتَّوَقَّى، فقد يقول المسألة على سبيلِ المَدَارَسَةِ، وقد يقول المسألة على سبيلِ التَّبْيِينِ والتَّعْلِيمِ؛ لأنَّه حفظها على وجه، لكن بابَ الفتيا والتَّصَدُّرِ وتقريرِ المسائلِ خاصَّةً إذا كانت تلك من المسائل المشكِلة أو من مسائل العموم، أو ممَّا يترتَّب عليه مفسد كثيرة، فإنَّه أحرى بالإنسان أن يُحجِّم، أحرى بالإنسان أن لا يَسْتَعِجِل.
- وممَّا يحفظ في هذا وهي مأثورة عظيمة عن الإمام ابن رجب -رحمه الله تعالى- وهي تتعلَّق بالأمرين معًا، سواءً بباب العلم أو بباب الإخلاص، يقولون: إنَّ الإمام ابن رجب -رحمه الله- كان لا يُعرف في وقته كثيرًا، وإنَّما كان ربَّما يكون في مجلس العلم فيذكر المسألة حتى يستوعِب أطرافًا لها كثيرة ودقائق لها عجيبة، لا يكاد يُحسن أحدٌ ما يحسن، يقولون: ثم ينتقل إلى بعضِ مجالس النَّاسِ العامَّة، فَيُعَرِّضُ للمسألة فلا ينطق ببنتِ شفة، فيعجب الطُّلاب ويقولون: يتكلَّم مَنْ هو دونه! وظننا أن لو تكلم شيخنا لكان أتم من كلامهم وأحسن، يقولون: فإذا خرجنا من ذلك المجلس، سئل الشيخ الإمام ابن رجب: لِمَ لَمْ تتكلَّم؟ قال: **"إن هذه مجالس ما أريد بها وجه الله"**.
- يعني أحيانًا هذا العلم إنما هو للتِّجَارِي والتَّنَدَافِع وإظهار النَّفس وأنَّه غلبَ فلانًا بحجته، أو أنَّه أفحَمَ فلانًا في مسألته، فتأمَّل كيف أنَّ أهلَ العلمِ الرَّاسخين لا يأتونَ العلمَ إلا على وجهه، ولا يأتونه إلا بحقِّه، فكيف بمن يتكلَّم ولم يُعرف حقَّ العلم؟ وكيف بمن يتكلَّم ولم يُحِطْ بالمسألة على وجهها وعلى تمامها وبيانها.
- هذان الأمران أمران عظيمان، ولو أنَّنا أيُّها الإخوة استفرغنا الوسخ واستجمعنا كل المجالس القادمة، في التَّأكِيد على هذا الأمر لكثرة المخالفين فيه، الذين يتكلَّمون بغير علمٍ، ولعظم ما يتعلَّق بذلك من دعوة النَّاسِ إلى الجهلِ، وكما قلنا: الرَّجُلُ يدعو وهو جاهل، قال: "نعم حتى يضل ويضل الناس".
- وأيضًا لما يكون فيه من التَّلْبِيس على النَّاسِ والبلاء الكثير، كلُّ ذلك يُحوِّجنا إلى أن نُحجِّم، وما رأينا من كثير من الفِرَق ومن دخلوا في الميادين الدَّعوِيَّة على غير هُدًى وعلمٍ، حتى قلبوا الشَّريعةَ رأسًا على عقبٍ، ودعوا النَّاسَ إلى ضلالٍ عظيمٍ، فزَيَّنُوا الشِّرْكَ وزينوا البدع، وحتى سَوَّقُوا للمَقالاتِ الضَّالَّة التي ربَّما تصلُّ إلى ما يُخرج من المِلَّة ويفارق به الإنسان الإسلام، وكلُّ ذلك إنَّما مَبْدَأُه عدم العلم وعدم التَّوَقِّي في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.





## الدرس الرابع



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- العلم فإنه أصلٌ وأساسٌ في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- وذكرنا وبيَّنا وأسسنا وابتدأنا وبها انتهينا وعدنا إلى أن الدَّعوة لا تكون إلا بالعلم، وأنَّ مَنْصب الدَّاعية الذي يدعو إلى الله -جلَّ وعلا- ويتفرَّغ لذلك لا يكون مهماً كان له من النِّيَّة والبذل والتَّضحية إلا أن يكون مُتعلِّماً مُتسلِّحاً بسلاح العلم والفقه والفهم والحفظ للكتاب والسُّنة وأقوال أهل العلم، واستحضار ذلك، وأن يكون مُلَازماً له في جميع أمورهِ، وإلا فإنه أسرع ما تزلَّ قدمه، وتحصلَ عثرته، وتظهرَ سوءته، وأضعفُ ما يكون بين يدي شيطانه إن لم يكن له علمٌ يتسلَّحُ به ويتبصَّر به الهدى من الضَّلال، كيف يدعو النَّاس إلى بصيرةٍ وهو على ضلالةٍ؟!
  - وكيف يدعو النَّاس إلى خيرٍ وهو لا يحسنه؟!
    - وكيف يدلُّ النَّاس على هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- وهو لا يحفظه؟!
      - وكيف يُبيِّن للنَّاس ما ذكره علماء أهل الإسلام وهو لم يطَّلع عليه؟!
        - أنِّي يكون ذلك؟!
          - إن قلنا أنَّه يُمكن للإنسان أن يدعو وهو ليس بعالمٍ؛ لكن المقصود بذلك أن يحفظ في ذلك سُنَّةً فيُخبرُ بها، أمَّا مَنْ يتصدَّى لهذا المنصب ويرتسم لواء هذه الوظيفة ويُعلي رايته؛ فإنه لا يكون إلا من أهل العلم وطلبتهِ، وأنَّه ينبغي ألا يتصدَّى لهذا إلا مَنْ هو كذلك. وهذه مسألة من الأهميَّة بمكان.
          - أسُس لا يُستغنى عنها، ولا مَناص من العناية بها، وهي أكثرُ ما يكون تفریطاً في هذا الزَّمان، وهو أن يكون للدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- خُلوةٌ برِّه، وحزبٌ من كتاب الله، وصلاةٌ في اللَّيل، وذكرُ الله -جلَّ وعلا- وأنه مهما

كان له من الشُّغل، ومهما كان عنده من الأعمال، ومهما ازدحمت عليه المحاضرات ومجالس العلم والدُّعوة، وتتابعت عليه الرِّغبات والطلُّبات؛ فإنَّه لا ينفكُّ إلا أن يكون له خلوةٌ مع الله -جلَّ وعلا- وأن يتعاهد نفسه بالعبادة والصَّلاح، وأظهر ما يكون ذلك في حالِ نبيِّنا -صلى الله عليه وسلم- أليس هو خير هذه الأُمَّة؟! بل أليس هو خير الأنبياء والمرسلين وأزكاهم عند ربِّ العالمين، وهو صاحبُ الشِّفاعة العظمى، وهو سيّدُ ولدِ آدم، وهو الذي عصمه الله -سبحانه وتعالى- وهو الذي جاء على حينِ كانت الأرضُ مليئةً بالشِّركِ والظُّلماتِ والبلايا والأصنام والأوثان، والتَّشَتُّتِ والتَّفَرُّقِ وأشياء كثيرة؟!

• هل كان النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- يجعل وقته كلّهُ للدُّعوة أم أنَّها خلوةٌ بالله، ووقوفٌ بين يدي الله، ودعاءٌ لله، وذكرٌ لله -جلَّ وعلا؟!

يعتكفُ حتى لا ينشغل بأحدٍ، ويسير للحجِّ وإلى العمرة حتى يتزوّد من الطَّاعة، ويختلي برَبِّه في جُح اللَّيْلِ، ويكون له من الذِّكْرِ والاستغفارِ مائة مرّة في اليوم، وأنواع من ذلك على ما جاء في سيرته وهديه -صلواتُ ربِّي وسلامُهُ عليه.

**؟ على أي شيء يدلُّ هذا؟!**

ليعلم الدُّعاة، وليعلم كلّ مَنْ تصدّى لهذه الوظيفة، ليعلم كلّ مَنْ أراد أن يكون سالمًا من العثرة، وأن يدعو النَّاسَ إلى هداية، وأن يُبَصِّرَ النَّاسَ بالدِّين؛ أن يكون من العبَّاد وأن يكون من الصَّالحين.

**فَيَا مُوقِدًا نَارًا لغيرِكَ ضوؤها \*\*\* وحرُّ لظاها بين جنبتيك يَضْرُمُ**

□ كيف يدعو النَّاسَ إلى السُّنن والنِّوافل وهو لا يؤدِّيها؟!

□ وكيف يدعو النَّاسَ إلى أن يقوموا بين يدي الله وترًا وصلاة ليلٍ وغيرها وهو لا يفعلها؟!

□ وكيف يحثُّ النَّاسَ على ذكر الله -جلَّ وعلا- وهو أسرع ما يكون إلى نسيانه أو إلى الانشغال بغيره؟!

• هذا قوَّةُ القلوب، وزادُ التُّفوس وصلاحيَّها، وتماهيها، وغداؤها، ودواؤها، وخيرها؛ إن لم يفعله الإنسان فإنَّه لا يُوفِّق، وما يجتمع على الإنسان من عجبٍ أو إرادة الخلق أو الرِّياء أو السُّمعة أو التَّكسُّب بالدِّين أو التَّكسُّب بالدُّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- إلا أن يكون له عبادة، خلوة بالله تكسر قلبه، تُخضع نفسه، تُعيدُه إلى رشده، تُصحِّحُ له ما يكون من خطأ في مساره، تُبَيِّنُ له ما يكون من عثرته، يُفيضُ الله عليه من رحمته، ولذلك لعلمكم تعرفون كلامَ الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- وقد قال كلامًا عظيمًا، فحينما كان يجلس بعد الفجر يستغفر الله ويذكر الله، يقول: "هذه غدوتي، لو لم أتغدَّ بها لن أستطيع أن أعمل بقية يومي"<sup>٤٦</sup>. هذا يدلُّ على ماذا؟

<sup>٤٦</sup> ذكره ابن القيم في الوابل الصيب: "ابن القيم -رحمه الله- قائلا: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوتي. أو كلامًا قريبًا من هذا» الوابل الصيب (ص 42).

- على أَنَّ هذا الذكر والدُّعاء له أثرٌ على العبدِ في حياته، وحتى في قوَّة البدن، ولذلك أرشد النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- فاطمة -رضي الله عنها وأرضاها- لما اشتكت ضعفها عن القيام بأعمال بيتها أن تذكَّر الله وتسبحه وتهلله وتكبره مائة مرة إذا أوتِ إلى فراشها<sup>٤٧</sup>، كما في حديث علي رضي الله عنه عند مسلم في صحيحه.
- في كثيرٍ من الأحوال تجد أنَّ من النَّاس مَنْ ينشغل بغيره وينسى نفسه ، يدعو غيره وقد ذهب ذات اليمين وذات الشمال، وما أسرع أن يكونَ عليه الزَّل والخطأ؛ فلأجل ذلك أوصيكم -أيُّها الإخوة- أن يكون للإنسان زادٌ يترَوِّد به بين يدي الله -جلَّ وعلا- ليس يلزم ذلك أن يشمل الإنسان جميع العبادات، لكن أسَّها وأصلُّها وهي التي يعلم أهل العلم أنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- واطب عليها؛ فإنَّه لا ينفك أن يكون لكلِّ واحد منَّا حزبٌ منها، حزبٌ من الذِّكر، حزبٌ من القرآن في كلِّ يومٍ وليلةٍ، حزبٌ من قراءة القرآن في التَّهَارُوفِ في الليل، ومن الصَّلَاة أيضًا في اللَّيْلِ، وحزبٌ من نوافل اللَّيْلِ والتَّهَارِ، وأن يكون للإنسان مال يبذله ولو قليلاً، أو صدقة يحسن بها إن كان ذا مالٍ، أو إن قدر على الصَّيام يوم ويفطريوم، إن لم يستطع فيكن الاثنين والخميس، إن لم يستطع فيكن ثلاثة أيام من كلِّ شهر؛ المهم أنَّه لا ينفك من أن يكون له زادٌ بين يدي الله -جلَّ وعلا-.
- ما ذهبت بركةُ أعمالنا ولا دعوتنا ولا حصول الخلل عندنا إلا لما ضعفنا في تحقيق العبودية لله -جلَّ وعلا- - فحينما تنقاد قلوبنا توكُّلاً، رجاءً، خوفاً؛ فلا يُعَمِّر هذا القلب إلا بالله -سبحانه وتعالى- ولا تُعَمِّر الجوارح إلا بالله -جلَّ وعلا- صلاةً، وعبادةً، وذكرًا وصيامًا، وصدقةً، وأنواعًا من البرِّ والإحسان، حينما يكون لفظُ الإنسان لفظُ خيرٍ، يذكر ربَّه، يقرأ كتابه، يصلي على نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- يدعو النَّاسَ إلى الهدى، ويبشِّرُ بسنةِ المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.
- والنَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- لم يترك ذلك حتى في غزواته وفي حربه، فكان له وقت يدعو الله ويصلي لله، ويلهجُ بين يدي الله -جلَّ وعلا- بذكره، والرَّغبة فيما عنده والخوف من عذابه -سبحانه وتعالى-.
- لعلَّ الله -سبحانه وتعالى- أن يحرك نفوسنا إلى أن نأطرها ونهذبها بالعبادة والصَّلاح، يا حسرتي مَنْ يدعو النَّاسَ وهو أكثر النَّاس تخلفًا عن الصلاة أو نومًا عنها! أو غفلة عن الذكر، أو إعراضًا عنه! أو استغناءً بكثير من المباحات! ناهيك أن يكون طريقه طريق الشَّهوات والمحرمات! وأحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح!

### من مقومات الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- الصَّبْر.



- الصَّبْر هو عبادة من العبادات، صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على أقدار الله، والأحاديث في ذلك والآيات كثيرة جدًّا، لكن ما يهْمُنَّا في هذا المقام هو أخصُّ ما يكون منه وهو: الصَّبْر في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- وبهذا أمر الله -جلَّ وعلا- نبيِّه في مقام الدَّعوة فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، فهو صبرٌ على الدَّعوة، صبرٌ على البلاء، صبرٌ على التَّوضيح، صبرٌ على التَّبَيُّن، صبرٌ على هداية النَّاس للحقِّ، وما يلقي الإنسان في ذلك من البلاء والمحنة والشِّدَّة والفتنة، وما يتعلَّق بذلك من بلاء كثير.

<sup>٤٧</sup> صحيح البخاري (6318) من حديث علي بن أبي طالب: أنَّ فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى في يدها من الرِّحى، فأنت النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسأله خادمًا فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء أخبرته، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت أقوم، فقال: (مكانك)، فجلس بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: (ألا أدلكما على ما هو خيرٌ لكما من خادم؟) إذا أويئنا إلى فراشكما، أو أخذتما مضاجعكما، فكبرا ثلاثًا وثلاثين، وسبعا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، فهذا خيرٌ لكما من خادمٍ)، وعن شعبة عن خالد عن ابن سيرين قال: التَّسْبِيحُ أربع وثلاثون.

- وفي هذا أمر الله -جلّ وعلا- عباده المؤمنين في سورةٍ ملئت بالابتلاء، وملئت ببيانه وما يتعلّق به، وهي سورة: الكهف، فقال الله -جلّ وعلا: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: 28]، أمره بالصّبر والمصابرة مع الذين يدعون الله -جلّ وعلا- ويدعون إلى سبيله، ويهدون النَّاس إلى كتاب الله -جلّ وعلا- وسنة نبيّه، ونهى عن طريق أهل الغواية والضلالة والجهالة والبلاء والشرّ والفتنة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ فكان أعظم ما يحتاجه الإنسان في مثل هذا الطّريق إلى الصّبر والمصابرة، لذلك جاء في حديث مسلم أنّ النَّبيّ -صلى الله عليه وسلم- قال: **"حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ"**<sup>٤٨</sup>، فمن أراد الجنّة فليصبر على ما يكون من المكاره والمتاعب والمشاقّ فيها، ومن أراد النّجاة من النّار فليبعد عن شهواتها ورغباتها وبلائها وفتنتها، وما يدعو الشّيطان وما يزيّن فيها.
  - وهذا أمرٌ عظيمٌ، والدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- يحتاج إلى أن يتزوّد منه، وأن يرتّب نفسه ويهتّبها على ذلك، فإنّ الأمر ليس باليسير، ولذلك اشتهرت المقولة عن السّلف، فجاء عن علي وعن غيره أنه قال: **"الصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد"**<sup>٤٩</sup>، فمن لا رأس له لا جسد له، ومن لا صبر له لا إيمان له، فهذا أمرٌ يدلّ على أهميّة الصّبر والتّصبر والتّجلّد.
  - وإن أردت أن تعلم ما يتعلّق بها في جانب الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- فانظر سورة العنكبوت، فإنّ الله -جلّ وعلا- افتتحها بالكلام عن الفتنة: ﴿الْم \* أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت 2، 1].
- فإنّ الدّنيا هي الفتنة والبلاء والمحن التي تتوالى علينا.
- ثم ماذا قال الله -جلّ وعلا- بعد أن ذكر حال الأنبياء والرّسل ومجاهدتهم لأقوامهم وما حصل من بلائهم وشدّتهم؟
- ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].
- ؟ كيف يكون الصّبر في باب الدّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى؟**
- أهمُّ وأوجب ما يكون الصّبر على ما تقدّم ذكره: الإخلاص والعلم؛ لأنّه لن يدعو إلى الله من لم يُصبر نفسه على الإخلاص، وكلّما عرض له سانح من عرض الدّنيا وشهواتها ملذّاتها كسرّه وقطّعه، وأقبل على ربّه، وطلب مرضاة مولاه.
  - وأيضاً الصّبر على العلم، فلا دعوة إلا بعلم، والعلم لا يمكن أن يتسنى للإنسان بأمرٍ يسير، ولذلك كان بعضهم يقول:

**تَمَنَيْتُ أَنْ تُمْسِيَ فَقِيمًا مُنَاطِرًا \* بَغَيْرِ عَنَاءٍ وَالْجُنُونِ فُنُونُ.**

<sup>٤٨</sup> صحيح الجامع للألباني (3147).

<sup>٤٩</sup> مصنف ابن أبي شيبة (4450).



- لا يمكن للإنسان أن يتحصّل العلم وهو جالس في بيته، ولذلك لا يتحصّل العلم إلا بالبلاء والفتنة، ولذلك يقول بعضهم: "إنّما الفقيه هو الفقير، وإنّما راء الفقير تجمعت أطرافها".  
يعني أنّ الفقه ضجيع الفقر، فمن أراد الفقه فليبشر بالفقر إلا أن يتولّاه الله -جلّ وعلا- برحمته، فلا بدّ أن يصبر النّاس على ما يتجرعون من مرارة البلاء والفتنة في تحصيل العلم.
- ثم بعد ذلك ينتقل إلى الصّبر في التّضحية في العلم والدّعوة، وهداية النّاس إلى الله -جلّ وعلا- فإنّه أظهر ما يكون هذا في العلم وبذله، فإنّه لا يتأتّى للإنسان بسهولة، كان الأئمّة من السّلف يصبرون ويتعبون لأجل الدّعوة وهداية الخلق، ألم يرحل بعضهم لأجل نشر العلم ودعوة النّاس وهدايتهم حتى حبسوا في أذربيجان - وغيرها- بالبرد والثّلج والبلاء والفتنة؟! تركوا مكة والمدينة وذهبوا إلى الكوفة والبصرة وإلى دمشق ومصر، وإلى غيرها من الأمصار لماذا؟ ليدعوا النّاس ويهدوهم ويعلموهم.
- وكانت مدارس ومجالس الصّحابة في ذلك مشهورة، إن شئت معاذ بن جبل، وإن شئت ابن عباس، وإن شئت ابن مسعود في الكوفة، فكانت مجالس مشهورة، وكانت بعد ذلك انطلاقة العلم في تلك الدّيار، وحصول المدارس الفقهية والمذاهب الأربعة، وما تفرّع عن ذلك من علوم محفوظة إلى يومنا هذا؛ فإنّما هي بركة ما كان منهم، أن ضحّوا وتركوا وهاجروا وتغرّبوا وبذلوا وسلّوا النّفس عن الشّهوا والرّغبات.
- تعرفون قصّة ابن القاسم، وكان من أهل مصر، وهو تلميذ الإمام مالك، ترك مصر بعد أن تزوّج، فدخّل بزوجه وما هي إلا أيام قليلة حتى ذهب لمالك وجلس عنده خمسة عشر سنة، حتى ولدت زوجته وكبر ولدها، فلما جاء وفد الحجّ بعد خمسة عشر سنة لمّا وصلوا إلى المدينة، سألوا: أفيكم ابن القاسم؟ قالوا: هو ذا.
- قال: فتقدّم إليّ شابّ صغير، فضمّني فشمتني فيه رائحة الولد.
- لكن هل ضاع ذلك؟!
- ها هو يُذكر في مجلسنا بعد خمسة عشر قرناً أو قريباً من ذلك.
- يقول محمد بن طاهر المقدسي: "بَلَتْ الدَّمُ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِبَغْدَادٍ وَمَرَّةً بِخُرْسَانَ".
- إذا تكلمنا عن التّضحية في العلم، فكان النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- في الدّعوة يعرض نفسه على الوفود؛ فلا يلقون له بالاً -صلوات ربّي وسلامه عليه- حتى إنه خرج من مكة وأدّمي عَقْبَهُ، وقد خرج لا يعلو على أحد، ولم يشعر أين ذهب، فلم ينتبه إلا وقد وصل إلى الطائف، يعني مشى أكثر من سبعين أو ثمانين كيلاً! وقد حصل له ما حصل من البلاء، ونزل عليه جبريل وقال: هل أطبق عليهم الأخشبين؟ قال: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"<sup>٥٠</sup>.
- إذن ثَمَّ تضحية وصبر ومُصَابرة على الدّعوة إلى الله.

<sup>٥٠</sup> صحيح البخاري (3010).

- ولَمَّا أَمْضَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- السَّنَوَاتِ بِمَا تَحْفَظُونَ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْأَحْوَالِ لَهُ -صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- آلَ أَمْرِهِ وَحَالِهِ إِلَى الْهَجْرَةِ، وَأَعَزَّهُ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- بَعْدَ الذَّلَّةِ، وَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ الشَّمْلَ، وَأَقَامَ لَهُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ، وَحَاضِرَةَ الْإِسْلَامِ، وَبَلَغَ دِينَ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَصْقَاعَ الْمَعْمُورَةِ، وَبَلَغَ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، نُوحٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- ذَكَرَ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- عَنْهُ أَنَّهُ ﴿فَلَبِثْتُ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَرَسُولِهِ الَّذِينَ قَصَّاهُمْ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- فِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَقَدْ نَالَهُ أَكْثَرُ الْبَلَاءِ فِي ذَلِكَ!
- أَكْثَرُ مَا جَاءَ فِي هَذَا أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ"<sup>٥١</sup>، وَلَمْ يَتَأَفَّفُوا، وَلَمْ يَتَلَكَّؤُوا، وَلَمْ يَتَرَدَّدُوا، وَلَمْ يَتَوَقَّفُوا عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَهَدَايَةِ النَّاسِ.
- ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَيْضًا صَبْرُ عَلَى الْمَدْعُوبِينَ، فَالصَّبْرُ عَلَى الْمَدْعُوبِينَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي صَعُوبَةِ تَلَقِّيهِمْ، وَهَدَايَتِهِمْ، فَمَا تَزَالُ تُبَيِّنُ لَهُمُ الْمَسْأَلَةَ، أَوْ تَسَهِّلُ لَهُمُ الْأَمْرَ، أَوْ تُوضِّحُ لَهُمْ وَتُعِيدُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَرَبَّمَا فَهَمُّهَا عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا، وَرَبَّمَا فَهَمُّهَا ثُمَّ أَنْسَمَهَا، ثُمَّ عَادَ إِلَيْكَ لِيَذْكُرَهَا؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ صَدْرٌ وَاسِعٌ وَنَفْسٌ طَيِّبَةٌ وَرَحَابَةٌ، يَأْخُذُ مِنْهُمْ وَيُعْطِي، وَيَتَأَلَّفُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ. وَتَعْرِفُونَ فِي مِثْلِ هَذَا حَالِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا كَانَ يَأْتِيهِ مَنْ يُحْسِنُ وَمَنْ لَا يُحْسِنُ؛ فَلَا زَالَ يَعْلَمُهُ، وَلَا يَزَالُ يَتَأَلَّفُهُ، وَلَا يَزَالُ يُبَيِّنُ لَهُمْ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ -صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- مِنَ الْبَيَانِ وَالْحِكْمَةِ. جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَا أَحْسَنُ الْقُرْآنَ، فَعَلِمَنِي شَيْئًا أَقُولُهُ فِي صَلَاتِي، فَقَالَ: "قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ"<sup>٥٢</sup>.
- فَلَا يَزَالُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَذْكُرُهُمْ وَيُعِينُهُمْ وَيُبَيِّنُ لَهُمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَهَذَا حَالِ السَّلَفِ فِي أَنْهُمْ كَانُوا يَعِيدُونَ الْأَحَادِيثَ وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْغَافِلِ وَمَنْ يَصْعَبُ عَلَيْهِ التَّعَلُّمُ فَيَجْعَلُونَ لَهُ مَزِيدًا مِنَ الْعَنَاءِ وَالرِّعَايَةِ حَتَّى يَقُومَ سَاقَهُ فِي الْعِلْمِ، وَيَقْوَى فِيهِ، وَيَنْطَلِقَ فِي مِيدَانِهِ.
- ثُمَّ أَيْضًا يَصْبِرُ عَلَى مَا يَلَاقِي ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، فَرَبَّمَا يَأْتِي لِلْإِنْسَانِ مَنْ يَسُبُّهُ، وَمَنْ يَنْتَقِصُهُ، وَمَنْ يُعَادِيهِ، وَمَنْ يَبْغِضُهُ، وَمَنْ يُؤَلِّبُ النَّاسَ عَلَيْهِ؛ وَهَذَا حَالِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَرَسُولِهِ كَذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: انْفِرُوا عَنْهُ، ابْعُدُوا عَنْهُ؛ يُوصَّمُ بِأَسْوَأِ الْأَلْفَافِ، يَقُولُونَ: هَذَا فِيهِ كَذَا،...، وَتَعْرِفُونَ أَنَّهُ قِيلَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَاحِرٌ وَكَاهِنٌ وَكَذَّابٌ وَمَجْنُونٌ، وَذُكِرَ فِي ذَلِكَ عَنِ السَّلَفِ وَالصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ، وَلَوْ كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ ذِكْرِ السَّيَرِ وَأَحْوَالِ السَّلَفِ فِي مِثْلِ هَذَا لَكَانَ طَوِيلًا جَدًّا؛ لَكِنَّا نَشِيرُ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَى الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فِي هَذَا الْمَقَامِ. فَلَا بَدَّ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى النَّاسِ وَلَوْ عَادَوْهُ، وَأَنْ يَصْبِرَ عَلَى النَّاسِ وَإِنْ أَبْغَضَوْهُ، وَإِنْ أَبْعَدَوْهُ.

<sup>٥١</sup> صحيح البخاري (5297).

<sup>٥٢</sup> صحيح ابن حبان (1846)، جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَحْسِنُ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا، فَعَلَّمَنِي شَيْئًا يُجْزِيَنِي مِنْهُ، فَقَالَ: "قُلْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ"، قَالَ: هَذَا لِرَبِّي، فَمَا لِي؟ قَالَ: "قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَارْزُقْنِي، وَعَافِنِي"

- وأيضًا ينبغي أن يصبر الإنسان على ما يكون بعد ذلك، فإنَّ المرءَ إذا فُتِحَ له باب الدَّعوة واشتهر أمره، وذاع صيته؛ فإنَّه:

❖ **أولًا: تنزيه له الدنيا.**

❖ **ثانيًا: إذا اجتمع النَّاسُ عليه ربَّما أظهر بعض ضغائن نفسه على بعض أقرانه،** أو بعض من في

درجته، فأراد أن يُسِفِّه هذا، وأن يقلِّل من قدر هذا، وأن ينتقص هذا، وأبواب الشَّيْطَان في ذلك كثيرة، فإن لم يكن منه صبرٌ على الحفاظ على دعوته، والحفاظ على صلاح قلبه، والحفاظ على مَنْ جمعهم الله -جلَّ وعلا- عنده واهتدوا بمقالته، وبما دعا إليه من كتاب الله -جلَّ وعلا- وسنَّة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وإلا فإنَّه يتفرَّق عنه الخير ويتلاشى، ويعود الأمر كما كان أو أشدَّ وأنكى.

- فإذن باب الصَّبر في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- أحوَجُ ما يُحتاج إليه في هذا الزمان، فإذا علمنا أنَّ النَّاس في هذه الأزمنة قد تفرغوا لشهواتهم ودنياهم وانفتحت الدُّنيا بكلِّ أبوابها، ثم وُصِمَ أهل الدَّعوة ما وُصِموا به من إرهابٍ أو بلاءٍ أو فتنةٍ، وإرادةٍ إلصاقهم بمثل هذه الفئات الضَّالة والدِّمويَّة الدَّاعشيَّة الظَّالمة، ويُراد أن يُلصَقوا بأولئك حتى ينبذهم النَّاس؛ وإلا فإنَّهم أكثر النَّاس تحذيرًا من مثل تلك المسالك، وتنبهًا على خطورتها، وبلائها وشرِّها.

- فبناء على ذلك ينبغي للإنسان مهما وجد من البلاء في هذا ألا يزيده ذلك إلا صبرًا وتمسُّكًا بهذا الحبل القويم، والصِّراط المستقيم الذي دعا فيه إلى الله -جلَّ وعلا- إلى رسوله، متمثِّلًا قول ربه **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [الأنعام: 153].

- وأيضًا ينبغي أن يعلم الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أنَّ الأمور تتجدَّد وهو أحوَجُ ما يكون إلى المراجعة وإلى زيادة التَّعلُّم والتَّبصُّر بما جدَّ من الأمور لِيُنزِلَهَا منزلها من حقٍّ أو باطلٍ، من صوابٍ أو خطأ، من قبولٍ أو ردٍّ، إلى غير ذلك، وإلا فإنَّ الإنسان إذا فتح الباب حتى لم يرد شيئًا فيدخل عليه من البلاء شيءٌ كثير، وإن منع فلم يسمح بشيءٍ فربَّما صدَّ عن حقٍّ لا يعلمه أو هَدَى لا يعرفه، فيكون أيضًا بسبب ذلك بلاءً، وكلَّما كبرت للإنسان دعوته كثر مخالفيه، وكثر مُناوئوه، واحتاج في ذلك إلى أن يزيد من الصَّبر، فالصبر يزيد معه، وتزيد دعوته بما يزيد من صبره، ولا يتأتَّى له خير إلا بذلك، **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾** [العنكبوت: 69]، **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾** [السجدة: 24].

**؟ ولذلك قيل للإمام الشَّافعي: أيها أعظم: أن يُمكن للمرء أن يُبتلى؟**

قال: **"لا يُمكن للمرء حتى يُبتلى".**

فلأجل هذا لا يكون للإنسان إلا أن يجعل الصَّبر سلاحه، وهو مداده، ومعينه -بإذن الله جلَّ وعلا- على ما هو فيه، وربَّما حصل مع الدَّعوة أن يتملَّك منه أهله، وزوجُه، وولده، فإنَّهم قد لا يرضون بشظفٍ من العيش، أو بكثرة الأشغال، أو أن تفوت عليهم متعُّ يرون مَنْ حولهم وغيرهم وجيرانهم وأقاربهم يتقلَّبون فيها ويتنعمون، ولا يكون شيءٌ أعظم من أن يُسلِّي الإنسان نفسه ويُسلِّي أهله إلا بأن يحملهم على الصَّبر والتَّصَبُّر، وبيان ما للصَّابرين من الجزاء **﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر: 10].

• ذكر الله -جلَّ وعلا- الصَّبر في واضح كثيرة حتى بلغت ثمانين موضعاً من كتابه لِيُعَلِّمَ من ذلك أَنَّهُ من أعظم العباداتِ وأجلِّها.

• يحتاج الدَّاعيةُ إلى الله -سبحانه وتعالى- في مثل هذا المقامِ إلى مُكَمِّلٍ لما يتعلَّق بالصَّبر؛ وهو أن يكون حليماً، فإنَّ الحلم يزدادُ به الإنسان به صبراً، فلا تطيشَ نفسه، ولا يخرجَ عن طوره، ولا يُؤلِّولَ بلسانه لأوَّلِ وهلةٍ، ولا يتغيَّظُ على غيره لحصولِ مخالفةٍ، ولا غير ذلك، وهذا يُبينه حالُ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-

✓ يأتي إليه الرَّجل فيطلب من النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- أن يأذن له في الزَّنا!

حتى أصحاب القلوب الباردة والميَّتة تتحرك نفوسهم في هذا إذا كان الأمر مبناه على الأهواء وغيظ النفوس المعتاد، لكن مَنْ كان ميزانه ميزان الشَّرع والدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- فإنَّ له طريقة أسمى وسبيلاً أقوم، وذياك النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- لم يعنِّفه لأوَّلِ وهلةٍ، فقال: **"أترضاه لأهلك،**

**أترضاه لزوجك؟ أترضاه لابنتك؟ أترضاه لعمتك؟ أترضاه لخالتك؟"** فيقول الرَّجل: لا؟

فيقول النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم: **"وَالنَّاسُ لَا يَرْضَوْنَ لِأَمَهَاتِهِمْ، وَالنَّاسُ لَا يَرْضَوْنَ لِبَنَاتِهِمْ..."** <sup>٥٣</sup>، فما خرجَ ذلك الرَّجلُ إلا وكان الزنا أكره شيءٍ إليه، وقد دخلَ وكانَ أَحَبَّ شيءٍ إليه؛ فإنَّما هو الحلم والتَّحلم.

✓ يأتي شخص ويجذب النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بردائه، يقول: أعطني ممَّا أعطاك الله، فيلتفت النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- وهو يضحك ويعطيه <sup>٥٤</sup>.

✓ يأتي الرَّجل ويبول في المسجد، والصَّحابة يطيشون، فيقول: **"لا تُزِرُّموه"**، ثم يقول: **"إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ، لَا تَصْلُحُ لِسَيِّئٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقُدْرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ"** <sup>٥٥</sup>.

• بمثل هذا يُوفِّق الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- وكلما كان أكثر حلمًا كان أكثر توفيقًا، وأبعد عن الخطأ، مَنْ كان الغيظُ والتَّغيُّظ والغضبُ وسرعةُ الحنقِ، وتقلُّبُ النَّفسِ أقربَ إليه؛ فليعلم أَنَّهُ أسرع في انقطاعه في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- أو وقوعه في الخللِ والزَّللِ والحفرة والبلاءِ والمحنةِ.

فلأجل ذلك ينبغي للدَّاعية أن يحلِّم ويحلِّم، **"إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعْلِيمِ وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحْلُمِ"** <sup>٥٦</sup>، وإِنَّمَا الصَّبرُ بالتَّصَبُّر، فينبغي للإنسان أن يُعوِّدَ نفسه على ذلك.

**ما الفرق بين الصَّبر والحلم؟**



<sup>٥٣</sup> مسند أحمد (21628) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، عن أبي أمامة، قال: إِنَّ فَتًى شَابًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزَّنا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ، فَرَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: "إِنَّهُ"، فَذَنَّا مِنْهُ قَرِيْبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَهَاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَاتِهِمْ"، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَاتِكَ؟"، قَالَ: لَا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ"، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ"، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ الْفَتَى بَلَّتْهُ إِلَى شَيْءٍ.

<sup>٥٤</sup> مسند أحمد (12310)، عن أنس بن مالك، قال: "كُنْتُ أُمَشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِي غَلِيظُ الْخَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ جَبَذَةً، حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحَ أَوْ صَفْحَةَ عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَتَرَتْ بِهَا خَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ."

صحيح مسلم (434).

<sup>٥٦</sup> السلسلة الصحيحة للألباني (342).



✓ **الصَّبْرُ:** هو حمل النفس على ضيِّ مرادها، وما يكون فيه مرارة.

✓ **الحلم:** فإنَّه جبلة تمنع الإنسان من العجلة. الحلم والأناة، وضدّه: الاستعجال والفورة؛ فالحلم أكثر عونًا

للإنسان في أن يتمكّن من فكرته، وأن يتأمّل في نفسه، وأن ينظر في حاله.

والصَّبْرُ: أن يمنع نفسه عن إتيان أشياء محرّمة أو أن يحمل نفسه على أشياء شاقّة، أو يمنعها من التَّسَخُّطِ على قدر الله -جلّ وعلا- إذا نزل من بلاء مصاب، أو شدّة أو محنة، ولا تخلو بعض هذه الأمور من أن بعضها مرتبطٌ ببعض، لا يحصل الحلم إلا بصبرٍ أو بقدرٍ منه، والحلم أيضًا طريقٌ إلى حصول المصابرة ونحو ذلك.

**مسألة من الأهميّة بمكانٍ للدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- وهي: الشّجاعة.**

ليس من السّهولة أن يُظهر الإنسان مقالته، وأن يعلن دعوته، وأن يظهر مخالفة قوميه، النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- كان بمكّة، الكلُّ يعبد الأصنام ويتقرّب إليها، ويفرحُ بها ويعظمها، فليس من السّهل أن يأتي فيخالف أولئك الأقوام، منهم السّادة، ومنهم الكبار، ومنهم الوجهاء، منهم العظماء، ومنهم الأقارب، ومنهم الأعمام، ومنهم الأخوال؛ إلا أن يكون شجاعًا، فالشّجاعة أيضًا لا تتحقّق الدّعوة إلا بها، وليس معنى الشّجاعة في مثل هذا ألا يرى الإنسان عواقب الأمور، ولا يحسب للأمور حسابها، ولكن المقصود بالشّجاعة هنا ألا يمنعه حصول المخالفة أو المباحدة أو ما يلقيه من البلاء أو ما ينزلُ به من إظهار الحقّ عند إرادته، لكن يُظهره على وجه أقرب إلى القبول، وأبعد من الخلاف، لكن لو لم يكن إلا إظهارُ هذا أو البقاء على البلاء والفتنة فإنّه لابدّ أن يظهر، ولذلك كان من أعظم الجهاد "كَلِمَةً حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"<sup>٥٧</sup>، فإذا كان النَّاس قد اجتمعوا وأنسوا وطربوا؛ فهو أحوَجُ إلى ما يكون إلى تنبيههم، فلن ينههم إن لم يكن شجاعًا، أخذًا بالحقّ، داعيًا إليه. ولن يكون الإنسان شجاعًا وهو يرى هذه الأقاويل الباطلة تترامى عبر القنوات، وعبر وسائل التّواصل وغيرها، ويظهر مقالته والنّاس كلهم على خلافه؛ إلا أن يكون شجاعًا.

• إذن الشّجاعة في هذا من أعظم ما يحصلُ بها تبليغ الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- لكن لا يعني ذلك أن يُلقَى الإنسان بنفسه إلى المهالك، وإنّما يطلب لذلك ما يكون من الطّريق الأسلم، والدّعوة الأتمّ بدون ما يكون فيه ضوضاء ولا اختلاف ولا فتنة، لكن لا يكون من العلم أو التّعليم والدّعوة ممتنعًا لأجل خوف المخالفة أو عدم إرادة المباينة لمن حوله وما يألّفه أقرابه وأصحابه وجيرانه وأهل بلده من ضلال أو بلاء أو فتنة.

• ثلاث صور تظهر فيها الشّجاعة من القرآن ومن الأحاديث:

❖ **الصّورة الأولى:** من قصة مؤمن آل فرعون، عندما قام وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ

وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: 41].

هذا استدلالٌ لطيفٌ وجميلٌ ومفيدٌ، وهي المراجعة بين مؤمن آل فرعون وفرعون، وما فيها من العبرة

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ\* تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي

بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: 41، 42].

<sup>٥٧</sup> مسند أحمد (18448).

❖ **الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ:** ففي مقابلة الأب، إبراهيم -عليه السلام- مع أبيه ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: 45].

وهذا أيضًا من مواجهة الأقربين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- له في ذلك قصص مشهورة، "يا عباسُ ابنُ عبدِ المطلب، لا أُغني عنكَ مِنَ اللَّهِ شيئًا، ويا صفيةُ عمةَ رسولِ اللَّهِ، لا أُغني عنكَ مِنَ اللَّهِ شيئًا..."<sup>٥٨</sup> وذكر فيه من تنبيههم ودعوتهم لما نزل قول الله -جلَّ وعلا: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214].

❖ **الصُّورَةُ الثَّالِثَةُ:** رجلٌ داعيةٌ من قبيلته، وهو أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- عندما قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾<sup>٥٩</sup>.

- ما يتعلّق بدعوة السُّلطان ونحوه هي من أكثر المسائل دقّة وخصوصيّة، ويحتاج فيها من الفقه والعلم ما هو كثير، لأجل ذلك في هذا الزّمان خلط النَّاسُ، فمنهم مَنْ يُشِيرُ بِالسُّلَاطِينِ حَتَّى يُولِّبَ الْعَوَامَ عَلَيْهِمْ، فيحصل بذلك من الفتنة والشرّ أكثر ممّا يحصل من الخير، وقد يكون في ذلك أيضًا مآرب أخرى لإرادة أخرى من حصول الفتنة والفرقة والصِّراع، أو الدعوة إلى النَّفسِ وأنّه جريء وكذا.
- ومنهم أيضًا مَنْ يُضَيِّعُ الْحَقَّ خَوْفًا مِنْ إظهاره إذا احتيج إليه، ولكن كما هي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة أن يُحْفَظَ لِلسُّلْطَانِ مكانه، وألا يتجرّأ عليه العوامُ والهوامُ -فإنّهم هوامٌ- وقد جاء عن ابن عباس أنّه قال: "تأخذ بيده فيكون بينك وبينه"، فهذه من الأهميّة بمكان، ومعرفة ما في هذا من مسائل وتدقيقات أمرٍ من الأهميّة بمكان، ولعلّه أن يأتي وقتٌ للحديث عنه، لكن طريقة أهل السُّنَّة والجماعة في هذا محفوظةٌ في أنّ النُّصَحَ لوليِّ الأمر أصلٌ أصيل، وأنّه على وجهٍ صحيحٍ لا يكون فيه تأليبٌ، ولا يكون فيه إرادةٌ منازعةٍ ولا خروجٍ، ولا يكون بسبب ذلك شرٌّ أعظم ولا فتنة أنكى، فإنّ هذا أصلٌ لا ينبغي أن يختلف فيه.

**الرِّفْقُ وَالرَّحْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ -جلَّ وعلا.**

- من أهمّ ما يكون من حال الدّاعية أن يكون رحيماً رفيقاً، وذلك قول الله -جلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، وهذه من أعظم الصِّفَات لبينا -صلى الله عليه وسلم- ولذلك كان الرّحمة المهداة، وأعظم ما يكون وصفه لما جاء في حديث مسلم في الصّحيح: أنّ النبيّ -صلى الله عليه وسلم- قال: "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا أَخَذُ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ وَهُمْ يَفْتَحِمُونَ فِيهَا"<sup>٦٠</sup>.
- يأتي ذلك الرّجل الذي شرب الخمر فيُجلد، فيقول أحد الصّحابة: اللهم العنه! ما أكثر ما يؤتى به! فيقول النبيّ -صلى الله عليه وسلم: "لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكَ"<sup>٦١</sup>.

<sup>٥٨</sup> أخرجه البخاري (4771) واللفظ له، ومسلم (206)

<sup>٥٩</sup> صحيح البخاري (3856).

<sup>٦٠</sup> صحيح البخاري (6483).

<sup>٦١</sup> مسند أحمد (100/6)، وضعفه أحمد شاكر.

- مَنْ كَانَ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَغَيَّظَتْ نَفْسُهُ عَلَى عَاصٍ مَرْتَكِسٍ فِي الْعَصِيَانِ، أَوْ وَاقِعٍ فِي الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ، أَوْ مَتَلَبِّسٍ بِأَنْوَاعِ الضَّلَالِ وَالْمَحَنَةِ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يُوَثِّرَ كَثِيرًا، وَأَمَّا مَنْ كَانَ حَالُهُ كَحَالِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَحْمَةً بِهِمْ وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَدَعْوَةً لَهُمْ، وَمَجَاهِدَةً لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْطِرَهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُدَلِّهِمْ عَلَى الْحَقِّ، وَيُبَصِّرَهُمْ بِهِ، فَلَا هُوَ الَّذِي تَرْكَبُهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَلَا هُوَ الَّذِي حَنَقَ عَلَيْهِمْ وَغَضَبَ مِنْهُمْ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ؛ وَإِنَّمَا هِيَ الرَّحْمَةُ وَالِدَّعْوَةُ، وَإِنَّمَا هِيَ الْهِدَايَةُ وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، فَيَكُونُونَ كَذَلِكَ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَيَرْفُقُونَ فِي دَعْوَتِهِمْ، وَيَحُبُّونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ فِيهِ، طَلَبًا لِمَرْضَاةِ رَبِّهِمْ -جَلَّ وَعَلَا- ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]، هَذَا أَصْلُ أَصِيلٍ، وَأَسَاسُ مَكِينٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- فِي بَيَانِ أَهَمِّيَّةِ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَحَسَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- لِلْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، حَتَّى وَلَوْ كَانَ نَصْرَانِيًّا، حَتَّى وَلَوْ كَانَ يَهُودِيًّا، حَتَّى وَلَوْ كَانَ لَهُ مِنْ سَابِقَةِ الْفَجْورِ وَالظُّلْمِ وَالْفَحْشِ وَالْبَلَاءِ وَالشَّرِّ وَالْمَحَنَةِ وَالْمَخَالَفَةِ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقِّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَالرَّحْمَةِ بِهِ، فَإِنَّ كُلَّ عَاصٍ يَحْتَاجُ إِلَى الرَّحْمَةِ، فَإِنَّهُ مَا تَلَبَّسَ بِهَذِهِ الْمَعْصِيَةِ وَلَا وَقَعَ فِي هَذَا الشَّرِّ إِلَّا لِقَرَبِ الشَّيْطَانِ مِنْهُ، فَهُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى رَحْمَةٍ تَنْتَشِلُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَتَبْعِدُهُ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مَكْتُوبًا عِنْدَ الْعَرْشِ "إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"<sup>٦٢</sup>، فَكَانَ هَذَا مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، أَنَّهُمْ يَرْحَمُونَ وَيَسْعُونَ، وَيَدُلُّونَ وَيَهْدُونَ، وَيَبْذِلُونَ لِأَجْلِ ذَلِكَ مَهْجَهُمْ وَأَرْوَاحَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ رَغْبَةً فِي دَلَالَةِ الْخَلْقِ وَهْدَايَتِهِمْ.
- وَلِذَلِكَ تَشْتَهَرُ مَقَالَةُ زَهِيرِ بْنِ نَعِيمٍ: "وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ اهْتَدَوْا وَأَنْ جَسْمِي قَرَضَ بِالْمَقَارِيضِ"<sup>٦٣</sup> رَغْبَةً خَيْرَ وَرَحْمَةً بِالنَّاسِ وَطَلَبًا لِهْدَايَتِهِمْ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ كَذَلِكَ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَأَنْ نَطْلُبَ هَذِهِ الطَّرِيقَ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



<sup>٦٢</sup> صحيح البخاري (7554).

<sup>٦٣</sup> حلية الأولياء (150/10)، المجالسة وجواهر العلم (312/2).

روى مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(( من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ))

### الدرس الخامس



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كَانَ حَدِيثُنَا فِي الْمَجْلِسِ الْمَاضِي أَتَى عَلَى جُمْلَةٍ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَنْفَكُ الدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- الْمُتَسَلِّمِ لَوَاءِ هَذِهِ الْوُضُفَةِ إِلَى أَنْ يَسْتَحْضِرَ مِثْلَ هَذِهِ الْمَعَانِي مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ وَاللِّينِ، وَاسْتَحْضِرِ الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ سَبِيلٌ إِلَى قَبُولِ دَعْوَتِهِ، وَالتَّوْفِيقِ لَطَلْبَتِهِ، فَإِنَّهُ لَنْ يُوَفَّقَ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ، وَلَنْ يَبْلُغَ الْغَايَةَ مَنْ لَمْ يَكُنْ حَلِيمًا شَفِيقًا رَحِيمًا بِمَنْ يَدْعُوهُمْ، وَلِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّنَا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، لِذَلِكَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا <sup>٦٤</sup>.
  - النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى الصِّرَاطِ: «يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي» <sup>٦٥</sup>، وَقَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ يَدْعُو بِهَا وَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِّأُمَّتِي فِي الْآخِرَةِ» <sup>٦٦</sup>.
- هَذِهِ الْمَعَانِي، وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ، وَهَذِهِ الدَّلَالَاتُ، كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ رَحْمَةِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَحَرَصِهِ عَلَى أَنْ يَكُونُوا أَهْدَى سَبِيلًا، وَأَصْلَحَ حَالًا، وَأُرْشَدَ فِي اسْتِقَامَتِهِمْ وَاسْتِنَانِهِمْ بِسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَيْسَرَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُ كَانَ يَشْقُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ التَّكْلِيفُ عَلَيْهِمْ وَفِيهِ مَشَقَّةٌ، أَوْ رَبَّما

<sup>٦٤</sup> صحيح البخاري (3560)، ولفظه " ما خَيْرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا "

<sup>٦٥</sup> أخرجه البخاري (7510)، ومسلم (193)

<sup>٦٦</sup> أخرجه البخاري (6304) واللفظ له، ومسلم (198)



أدرّكهم فيه صعوبة، وفي ذلك حوادثٌ معلومةٌ محفوظةٌ، مِنْ أعظمها أمرُ الصَّلَاةِ، لَمَّا كَانَ يَطْلُبُ التَّخْفِيفَ مِنْ رَبِّهِ <sup>٦٧</sup>، وما يتعلّقُ بصلَاةِ التَّارَوِيحِ لَمَّا خَشِيَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ تُفْرَضَ عَلَى أُمَّتِهِ <sup>٦٨</sup>.

• الإنسانُ أعظمُ ما يكونُ يَلِينُ قَلْبُهُ تَطِيبُ نَفْسُهُ وَيَسْتَعِدُّ لِدَعْوَتِهِ، كُلَّمَا اسْتَرَادَّ وَاسْتَنَارَ وَاسْتَحْضَرَ عَظِيمَ الشَّفَقَةِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْأَنَاءَةِ، فَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تَحَمَّلَ الْأَذَى، يَأْتِي الرَّجُلُ وَيَجْذِبُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِرَدَائِهِ حَتَّى يُوَثِّرَ فِيهِ، وَيَقُولُ: أَعْطِنِي يَا مُحَمَّدُ، وَيَعْطِيهِ <sup>٦٩</sup>.

### الحكمة في الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-



• الحكمة واستحضارها، وكونها أساساً من الأساسات في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا-؛ لِأَنَّهُ جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَوْلُ اللَّهِ -جلَّ وعلا-: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]، فَلَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ إِلَّا بِحُكْمَةٍ، وَلَنْ تَكُونَ دَعْوَةُ إِلَّا بِمَوْعِظَةٍ حَسَنَةٍ، وَلَنْ تَكُونَ الدَّعوة إِلَّا عَلَى مَنَاجِ النُّبُوَّةِ، مَهْمَا جُعِلَ لَهَا مِنْ رِكَائِزٍ، أَوْ أُسُسٍ، أَوْ أَصُولٍ، أَوْ نُظَرٍ لَهَا مِنْ تَنْظِيرٍ حَدِيثٍ أَوْ غَيْرِ حَدِيثٍ، أَوْ عَبَّرَ الدَّورَاتِ التَّدْرِيبِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا، إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ مَعِينِ النُّبُوَّةِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُسْتَمَدّاً مِنَ الْكِتَابِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُجْتَمِعاً فِيهِ حَالُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَسِرُّهُ، وَطَرِيقَتُهُ، وَهُدْيُهُ فِي دَعْوَتِهِ لِأُمَّتِهِ، وَهُدَايَتِهِ لَهُمْ؛ فَلَنْ يَكُونَ فِيهِ سَلَامَةٌ وَهُدَايَةٌ، وَلَنْ يَكُونَ فِيهِ خَيْرٌ وَإِعَانَةٌ إِلَى الْهُدَى وَالتَّوْحِيدِ، وَإِنَّمَا هُوَ بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ لِأَصْحَابِهَا.

• إِذَا جِئْنَا إِلَى قَوْلِهِ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125]، فَهَذَا يَسْتَرْعِي أَسْمَاعَنَا إِلَى أَنْ نَتَذَكَّرَ مَا مَرَّبَنَا مِنْ أَنَّ الدَّعوةَ وَاجِبَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ -جلَّ وعلا- أَمَرُهَا، وَأَنَّ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ -جلَّ وعلا- كَثِيرٌ وَظَاهِرٌ بَيِّنٌ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا بَدَّ لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَسْتَحْضَرَ الْحُكْمَةَ، وَالْحُكْمَةُ كَمَا فَسَّرَهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ إِنْ رَجَعْتَ إِلَى تَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ، أَوْ ابْنِ كَثِيرٍ، أَوْ الْبَغَوِيِّ، أَوْ مَا سَطَّرَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي مُخْتَلَفِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ؛ سَتَرَى أَنَّهُمْ يَنْصُبُونَ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَةَ هِيَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَالدَّعوةُ إِلَى الْحُكْمَةِ هِيَ دَعْوَةُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، هِيَ دَعْوَةُ إِلَى الْقُرْآنِ، وَهِيَ دَعْوَةُ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ -جلَّ وعلا- وَهِيَ دَعْوَةُ إِلَى سُنَّةِ نَبِيِّنَا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

### كَيْفَ ذَلِكَ مَعَ أَنَّ الْحُكْمَةَ فِي مَعْنَاهَا اللَّغَوِي: هِيَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ اللَّائِقِ بِهِ؟



• فَيُفْهَمُ مِنْ هَذَا: أَنَّ الْحُكْمَةَ هِيَ التَّوَدُّعُ فِي الدَّعوةِ، وَالرِّفْقُ فِيهَا، وَاللِّينُ، وَعَدْمُ الْإِسْرَاعِ، أَوْ الْغَضَبِ، أَوْ التَّنْفِيرِ، أَوْ الْبِدَاءِ بِمَا لَا يُحْسِنُ الْبِدَاءَ بِهِ، أَوْ دَعْوَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى مَا قَدْ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ فِتْنَةٌ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ بِهِ شَرٌّ، كُلُّ ذَلِكَ مَعَانٍ صَحِيحَةٌ؛ لِأَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي الدَّعوةِ إِلَى اللَّهِ الْقُرْآنِ، وَالدَّعوةِ بِالْقُرْآنِ، وَالدَّعوةِ إِلَى السُّنَّةِ، وَالدَّعوةِ بِالسُّنَّةِ.

<sup>٦٧</sup> صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك في الإسراء والمعراج، وفيه: "فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ" (162).

<sup>٦٨</sup> صحيح البخاري (729): وفيه "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فِي خُجْرَتِهِ، وَجِدَارُ الْخُجْرَةِ قَصِيرٌ، فَرَأَى النَّاسَ شَخَصَ النَّجْجِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَامَ أَنَسٌ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، فَأَصْبَحُوا فَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ، فَقَامَ لَيْلَةَ الثَّانِيَةِ، فَقَامَ مَعَهُ أَنَسٌ يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، صَنَعُوا ذَلِكَ لِيَلْتَنِي أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ، جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَخْرُجْ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ النَّاسُ فَقَالَ: إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُكْتَبَ عَلَيْكُمْ صَلَاةُ اللَّيْلِ".

<sup>٦٩</sup> مسند أحمد (12310)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: "كُنْتُ أَفْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَيْهِ بُرْدٌ بَخْرَائِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَذْرَكُهُ أَغْرَابِي، فَجَبَذَهُ جَبَذَةً، حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحَ أَوْ صَفْحَةً عُنُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبَذَتِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَأَتَقَتَّ إِلَيْهِ فَضَجَكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ".

- فنحن ندعوا إلى كتاب الله -جلّ وعلا- وسُنّة نبيّه -صلى الله عليه وسلم- ولن يكون طريقٌ ولا سبيلٌ أنتم ولا أكملٌ من أن تكون الدّعوة على نحو ما جاء في كتاب الله -جلّ وعلا- وسُنّة نبيّه -صلى الله عليه وسلم- فهما نتأسّى ونقتدي، وبهما ندعوا ونقتدي، ولا نطلب طريقًا أخرى، ولا نحتاج إلى آراء وأفكارٍ وتنظيرٍ عقليّةٍ مجردة، ولا أن نأخذ بعض الحضارات القديمة، كطريقة أصحاب الفلسفة وغيرهم في دعواتهم وفي مرثياتهم في طريق تحصيل الخير أو تكثيره أو نحو ذلك؛ كل ذلك لا نحتاج إليه، هذا كتاب الله -جلّ وعلا- ملئٌ هداية وعِلْمًا وتوفيقًا إلى الحق والهدى، وهذا كتاب الله -جلّ وعلا- فيه من الدلائل وفيه من المعاني التي تُعين الدّاعية على الصّبر والمصابرة على الرّحمة واللين، على الشّفقة والإحسان، على المبالغة في الدّعوة، على استنفاذ الوُسع في ذلك والتّضحية، وعلى ما يكون من البداءة بالأهمّ فالهمّ، وهكذا فيه ما يستجمع به الإنسان جميع أبواب الخير.
- فإذا جمعت إلى ذلك سُنّة نبيّنا -صلى الله عليه وسلم- فستجد فيها من المآثر ومن القصص ومن الأحداث ومن الأحوال ومن المعين الذي لا ينضب؛ كلّ مفصلٍ لما جاء مُجملاً فستجد بذلك التّوفيق والنّور.
- بعض النّاس قد يفهم من الحكمة أنّها خلاف الحزم، أو أن لا يكون في الحكمة أيّ معنى من معاني القوّة أو الحزم أو العزيمة، أو أحيانًا تعظيم الأمر، ومعاتبة من فعل ضده أو نحو ذلك، وهذا ليس بصحيح. لماذا؟ لأنّ التّفسير ودلائل الحديث قد جاء فيهما ما يدلّ على شيء من هذا، ففي بعض ألفاظ الآيات ودلالاتها ما يدلّ على حزم وحسم، كقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: 41]، يعني لا مقارنة.
- وحينما قالوا: نعبُد ربّك سنّة، وتعبُد إلها سنّة<sup>٧٠</sup>، وفيها شيء من تلفيق الأمور، فأنزّل الله -جلّ وعلا- كتابًا يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ\* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ\* وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ\* وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ\* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون]، فليس في هذه السورة صددٌ لهؤلاء الكفار عن دين الله -جلّ وعلا-، وإنما فيه ردٌّ عليهم، وأنّ ما ذكروه غير حاصل، وأنّه ممتنع، وأنّ هدايتكم إمّا بالاستقامة على دين الله -جلّ وعلا- وإلا فدينكم لا يمكن أن يكون فيه مؤاربة أو مقارنة مع دين أهل الإسلام، وتوحيد أهل الإيمان، وعبادة الله الواحد الديان.
- مثل ذلك أيضًا في دلالات السُنّة حتى مع المسلمين، لما جاء ذلك الرجل، وقال: إنّي أصومُ فلا أفطر، وقال الآخر: إنّي أقومُ فلا أنام، قال الآخر: إنّي لا أتزوجُ النّساء، مع أنّهم راموا خيرًا وأقبلوا عليه، وحملوا أنفسهم على الجدّ، واجتهدوا فيه، وقطعوا دابر الشّهوات والرّغبة فيها، ماذا قال لهم النّبيّ -صلى الله عليه وسلم-؟

<sup>٧٠</sup> رواه ابن أبي حاتم في "التفسير" (3471/10)، والطبري في "جامع البيان" (703/24)، والطبراني في "المعجم الصغير" (751) أن قريشا وعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطلقوا عقبه، فقالوا له: هذا لك عندنا يا محمد، وكفّ عن شتم ألفتنا، فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة، فهي لك ولنا فيها صلاح. قال: ما هي؟ قالوا: تعبد ألفتنا سنة: اللات والعزي، وتعبد إلهك سنة، قال: حتى أنظر ما يأتي من عند ربّي. فجاء الوحي من اللوح المحفوظ: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)

خطب خطبة عظيمة، قال: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتَّقَاكُمْ لَهُ لِكَيْيَ أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»<sup>٧١</sup>، ومثل ذلك حوادث كثيرة للصَّحابة، ولمن بعدهم تدلُّ على شيءٍ من الحزم في بعض المواضع.

- ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- لما دخل على أولئك القوم الذين كانوا مجموعات، وكلُّ مجموعةٍ لها قائد، فيقول: سَبِّحُوا اللَّهَ مائة، فيسبحون الله مائة، فيقول: احمَدُوا اللَّهَ مائة، فيحمدوا الله مائة، ماذا قال لهم ابن مسعود؟

قال: "مَا أَسْرَعَ هَلَكْتُمْ هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ لَمْ تَبَلْ، وَأَنْبِئْتُهُ لَمْ تُكْسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ"، قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: "وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ"<sup>٧٢</sup>.

فإذن، لما كان الموضع يستدعي الحزم في ذلك حَزَمَ؛ لأنَّهم وإن كانوا يذكرون الله -جلَّ وعلا- لكن لما كان ذكرهم على حالٍ أو هيئةٍ لم تكن مشروعة، أراد ابن مسعود أن يحذِّرهم؛ لأنَّ ذلك من مسالك الشَّيطان، في أنَّ يدعوهم إلى غير سُنَّة، حتى يتقرَّبوا إلى الله -جلَّ وعلا- ببدعة، فيأتسوا بها، فيذهب عليهم عملهم أو جملة.

- الحكمة هي تُوَدَّةٌ ولينٌ ورفقٌ، هي نظَرٌ في حال المدعو، لكن لا يعني ذلك استبعاد الحزم والقوَّة من كلِّ وجه، بل قد يُحتاج فيه إلى شيءٍ من هذا، ولأجلِ هذا ذكرنا في ما مضى أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ بابٌ من أبواب الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- ومع ذلك ماذا يقول فيه النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- في الظَّالم-أو المسيء؟ «وَلْتَأْخُذَنَّ عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ، وَلْتَأْطُرْنَهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا»<sup>٧٣</sup>، يعني ما فيه إلا حزم، وما فيه العقاب لمن تخلف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولما قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم: أهلك وفيما الصالحون؟ قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»<sup>٧٤</sup>.

- فكلُّ هذا يدلُّ على أنَّه لا بدَّ من الحزم أحياناً، ومن ذلك قصَّةُ أبي سعيد لما روى حديث النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- عند مسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»<sup>٧٥</sup>.

إذن، ثمَّ بابٌ من أبواب الدَّعوة فيه حزمٌ، وفيه قوَّةٌ، وفيه أخذٌ على يدِ الظَّالم، وفيه تعليمٌ وتوجيهٌ وإرشادٌ، وإن كان ذلك على خلاف اللَّين.

- واللَّينُ والشَّفقةُ والرَّحمةُ والتُّودَّةُ، وعدمُ الإسراع، أو التَّنْفِيرُ على المدعو؛ ظاهرٌ في جملة الأدلَّة، ويُؤخذ ذلك من هذه الآية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ [النحل: 125]، فإنَّ الحكمةَ شيءٌ من التُّودَّةِ والشَّفقةِ بالمدعو،

<sup>٧١</sup> صحيح البخاري (5063).

<sup>٧٢</sup> سنن الدامي (210).

<sup>٧٣</sup> سنن أبي داود (3776)، وضعفه الألباني.

<sup>٧٤</sup> صحيح البخاري (7059).

<sup>٧٥</sup>

ورحمته وتعليمه، وذلك يحتاجُ إلى وقتٍ، ودلالاتُ النُصوصِ كثيرة في هذا، فكما جاء في قول الله -جلَّ وعلا: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: 44]، وهو فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى. ولذلك يقول أبو يزيد الرقاشي: "هذا قولك لمن يعاديك، فكيف بمن يحبك ويناديك". فالله -جلَّ وعلا- أمرهما أن يقولَا له قولًا لينًا، والله -سبحانه وتعالى- قال لنبيه: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفُكِّبَ لَا نَفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [العمران: 159].

فهذا إذن فيه إشارةٌ إلى هذا المعنى، ودلالاتُ النُصوصِ كثيرةٌ، وحالُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- أشهرُ وأكثرُ من أن يُذكرَ، ومن أشهر ذلك، وهي قصَّةٌ لطيفةٌ عظيمةٌ يرى فيها الإنسانُ العَجَبَ من حالِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- في دعوته، لما كانَ من حالِ عُتْبَةَ بن أبي ربيعة -أبو الوليد- أنه قال: أكفيكم أمره، وأعاد النَّظَرَ مع وُجْهائِ قريش، ورؤسائها، فجاءَ إلى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فذكره ببعضِ أمورِهِ، وقال له: إنَّكَ من أرفعنا، وأوجهنا، أمال تريدُه فنعطيك؟! نجمعُ لك من أموالنا حتى تكونَ أكثرنا مالاً، أو نجعلك أوجهنا، فلا نقطعُ أمرًا حتى نستأمرَكَ فيه، ألك رأيٌ من الجنِّ لا تستطيعُ دفعه فنطلب لك الطَّبَّ ولو دفعنا جميع أموالنا.

فعرضَ عليه كلَّ شيءٍ، فقال: «فَاسْمَعْ مِنِّي»<sup>٧٦</sup>، فابتدأ سورة فصلت، قول الله -جلَّ وعلا: ﴿حَمْدٌ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: 1-3]، فقرأ عليه هذه الآيات، حتى وصلَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- ثمَّ قامَ، ذكر أنَّ هذا وحيُّ الله -جلَّ وعلا- وأنَّه يدعو إليه، فلمَّا رجعَ إليهم أبو الوليد، رجعَ بغيرِ الوجهِ الذي ذَهَبَ بِهِ، قالوا: والله ما هذا الوجه الذي ذَهَبَ بِهِ، سَحَرَهُ مُحَمَّدٌ. فتأمَّلْ هذه الدَّعْوَةَ، وتلاوة هذه الآيات، ترقِّقُ قلبه بكتابِ الله -جلَّ وعلا- هذا يدلُّ على ما ينبغي أن يكونَ عليه للدَّاعية من أن لا يستعجلَ على المدعو، وأن لا يستعظمَ منه الأمرَ العظيمَ، فالوليد بن المغيرة اتَّهم النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- أنَّه صاحبُ مالٍ، أو مريدٌ للجاهِ، أو أنَّه كاذبٌ، أو أنَّه يتخبَّطُه الجنُّ، ومع ذلك لم يَزِدْ على أن تلا عليه تلكم الآيات.

فإذن هذا أوَّلُ ما يتعلَّقُ بمعنى الحكمة، وذكر أهل العلم وذكر ذلك بعض المفسرين، وجمعها الإمام السعدي -رحمه الله تعالى- في تفسيره المختصر وهو لطيف، قال: "إنَّ الحكمةَ تَشْمَلُ كُلَّ مَا ذُكِرَ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْبَدَاءَةُ بِالْأَهَمِّ، والدَّعْوَةُ بِالْعِلْمِ لا بِالْجَهْلِ، والنَّظَرُ فِي حَالِ المدْعُو، ومراعاة ما يُمكنُ أن يُقَرِّبَ قلبه، وما يَعْلَمُه"، وذكر في ذلك معاني متقاربة، أصلها ما ذكر في كلامِ السَّلفِ من أنها دعوةٌ إلى كتابِ الله -جلَّ وعلا- وسُنَّةِ نبيِّه -صلى الله عليه وسلم-.

إذن، هذا هو الأمر الأول.

الأمر الثاني: الموعظة الحسنة.

<sup>٧٦</sup> أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) (402/2)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (246/38) من حديث محمد بن كعب القرظي. وحسنه الألباني في فقه السيرة (107).



- الموعظة الحسنة قال أهل العلم وأهل التفسير: هي التَّغْيِبُ والتَّهْيِبُ، والتَّغْيِبُ والتَّهْيِبُ من أعظم ما يكون به هداية الخلق، ولذلك كانت رسالة النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- بشارَةً ونذارَةً ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: 8]، مبشراً بالخير، ونذيراً من الشرِّ، أليس كذلك؟  
والبشارة أكثر ما تستعمل في الخير، لكن قد تستعمل في الشرِّ ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: 24]، لكن يقول أهل العلم: أنَّ هذا على سبيل التَّهْكُم، وإلا فالأكثر أنَّ البشارة تكون بالخير.
- فإذن دعوة النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- بشارَةً ونذارَةً، وهذا في كتاب الله -جلَّ وعلا- كثير، ذكرُ الجنَّة وما فيها من النعيم، وما أعدَّ الله -جلَّ وعلا- لعباده المتقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: 51]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ\* فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 54، 55]، آيات كثيرة في ذكر الجنان وما فيها من الرَّحْمَاتِ، وفضل الله -جلَّ وعلا- العظيم، كما في سورة الرحمن ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: 46]، فذكر أنواعاً من النِّعم والنِّعيم الذي يتنعم به أهل الجنَّة.  
أيضاً ما جاء في حال أهل الجحيم -نعوذ بالله من حالهم- فإنَّ فيها من الآيات التي تقشعرُّ منها الأبدان، من وعيد الله -جلَّ وعلا- لعباده إذا أخلُّوا، وإذا أساءوا ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24].  
أيضاً في قول الله -جلَّ وعلا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49]، لما ذكر الله -جلَّ وعلا- من الرِّقوم وما فيه، فجاء على سبيل السُّخرية، والامتهان، والإذلال له، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.  
ففي كتاب الله -جلَّ وعلا- في مواضع كثيرة ما هو مُحَرِّك للقلب، ولذلك ألفَ المُنْذِرُ كتاب "التَّغْيِبُ والتَّهْيِبُ" في الدِّلالة على هذا.
- وجاء في حديث عائشة في البخاري، قالت: "وكان أول ما نزل من القرآن ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثابت القلوب-يعني رجعت- جاء الأمر والنهي، ولو أن ما نزل هو الأمر والنهي لما استجاب الناس" <sup>٧٧</sup>، أو كما قالت -رضي الله تعالى عنها وأرضاها-.
- بعض أهل الدَّعَوَاتِ عن حُسْنِ نِيَّةٍ أو عن جهلٍ تلقَّوه عن بعضٍ مُقَدِّمِيهِمْ؛ لا يرون الدَّعْوَةَ إِلَّا بالتَّغْيِبِ والتَّقْرِيبِ، وينسون جانب التَّهْيِبِ، أو يتركونه، أو يؤخِّرونه بأيِّ تأويلٍ فعلوا، فإنَّ ذلك كلامٌ باطلٌ، وطريقةٌ مردودةٌ، وخلافٌ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وما كان عليه سلف الأُمَّة، فلا بدَّ من التَّغْيِبِ، ولا بدَّ من التَّهْيِبِ، والقلوبُ بين هذا وذا في رجاءٍ وخوفٍ، وإقبالٍ وإدبارٍ، وتحريكٍ للنُّفوسِ؛ حتى تُشحَذَ اليَهمَمُ، وتُحرَّكَ النُّفوسُ، وتَنقَادَ إلى الخيرِ، وتَأَطَّرَ نفسُها عليه، وتُبَاعَدَ الشَّهَوَاتُ، وتمتنعَ منها، وتعرفون أنَّ هذا مسلَكاً من المسالكِ الموجودة في الواقع، ويلجأ إليه أناسٌ آفتهم في ذلك التَّلَقِّي عن بعضٍ مُقَدِّمِيهِمْ، ومن وثقوا به، ويتعلَّلون بعللٍ كلها عليلة، وكلها مخالفة لما جاء به الكتاب والسُّنَّة.

<sup>٧٧</sup> صحيح البخاري (4993) وفيه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفضَّل، فيها ذكرُ الجنة والنار، حتى إذا ثبت الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيءٍ : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا نَدْعُ الخمر أبداً، ولو نزل : لا تَزْنُوا، لقالوا : لا نَدْعُ الزنا أبداً " .

- وينبغي هنا أن يُعلم أنه مهما وُجدَ من أثر لهذه الدَّعوة، أو قُرِبَ لها، أو رأينا بعض آثارها في توبة العاصين، وإقبال المدبرين، وهداية الخمارين، والحشَّاشين، وأهل الفواحش ونحوها، فإنَّ ذلك ليس بدالٍّ على صحتها وسلامتها؛ لأننا إنَّما نحن متَّبِعُونَ، وبالكتاب مهتدون، وبسُنَّة نبيِّنا -صلى الله عليه وسلم- مُتَأَسُّون، فلا ينبغي للإنسان أن يُحاكِم الكتاب والسُنَّة إلى أعمال أولئك، وإنَّما أعمال كلِّ الخليقة والبشر محكومة بكتاب الله -جلَّ وعلا- وسُنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم-.
- جانب الوعظ والتذكير ثمَّ طرفان فيه ووسط، فمن النَّاس مَنْ يجدُ نفسه أكبر من الوعظ والترغيب والترهيب، وأنَّه وصلَّ إلى مراحلٍ في النَّظر في فنون العلم، ودقائق المسائل، والتَّبَحُّر فيها، والتَّفَرُّغ لها، حتى يرى أنَّ وقوفه أو جلوسه، أو استماعه لبعض تلك المواعظ إنَّما هو انقطاع له عن طريقه الذي سلك فيه مسلَّكاً ربيعاً، وهذا لاشكَّ أنَّها من وساوس الشَّيطان، فإنَّ الترغيب والترهيب محرِّك للقلوب ومُصلِح لها، ولذلك قال الله -جلَّ وعلا- في كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، ثم قال الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، وفضلُ الله -جلَّ وعلا- هو كتابه، اتباعُ سُنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- فمَنْ لم يجعل نفسه تُوعِظ بكتاب الله، وتُحرِّك بسُنَّة رسول الله، وتُدعى إلى الخير، وتُرغَّب فيه، وتحذر من الشرِّ؛ فإنَّه يوشِك أن يقع في البلاء، وأن يُقارب الشرَّ.
- فكونك تعلم أنَّ هذا الحكم حرامٌ، مثل: الربا، فإنَّه لا يمنعك أن تقع فيه إلا إذا علمت أنَّ الله لعنَ آكله، وأنَّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- ذكر أنَّ «الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَاباً، أَذْنَاهَا مِثْلُ إِثْنَانِ الرَّجُلِ أُمُّهُ»<sup>٧٨</sup>، فإنَّ هذا أَمْنٌ للإنسان أن يقع فيه، وهكذا قل في مسائل كثيرة. فلأجل ذلك ينبغي أن تُحرِّك القلوب وتُوعِظ. وثمَّ أناسٌ يدعون بالوعظ والبشارة والنبذارة حتى يغرقوا فيها بدون ما إبانة بالعلم، وهداية للحق، وتبصير بالأعمال والعبادات، فربَّما حملَه ذلك على الرِّهْبَانِيَّة، أو الانكفاء والصُّوفيَّة، أو سلك مسالك ملتوية، فحرَّم على نفسه حلالاً، أو حملَ نفسه على بلاء أو شدة، ولذلك النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- لما رأى زينب وقد علقت حبلًا في المسجد، فقال: «لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَةً»<sup>٧٩</sup>.
- **فلولا العمل لما تبصَّروا، ولولا العلم ما عرفوا.** ولربَّما شقَّ الإنسان على نفسه، مثل مَنْ نذر أن يحجَّ ماشياً، أو حافياً، فليمش وليركب، فكل ذلك يدلُّ على أنَّ العلم بصيرة، فإذا كانت الدَّعوة وعظاً وتذكيراً وزيادةً فيه بدون ما إشارة إلى الهدى والحق والصَّواب والسُنَّة فربَّما حملَه على خللٍ أو خطأ، فلأجل ذلك بابُ الوعظ والتذكير موجودٌ، وأصلٌ أصيلٌ، وهو جزءٌ ممَّا جاءت به النُّصوص، في كتاب الله -جلَّ وعلا- وسُنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- فإذا اجتمع وعظُ القلوب وتحريكها بالبشارة والنبذارة، وانضمَّ إلى ذلك هداية النَّاس إلى السُّنن، وتبصيرهم بالأحكام، وتعليمهم ما يلزمهم من أمور دينهم، إن كان ذلك في العبادات أو المعاملات، أو ما يتجدد إليهم من حاجة في أمور أخرى؛ فإنَّه سيكون ذلك أتمَّ لهم في الخير وأقوم لهم في الهدى.

<sup>٧٨</sup> أخرجه ابن أبي حاتم في ((المراسيل)) (916)، والطبراني في ((المعجم الصغير)) (7151)، صححه الألباني في صحيح الجامع (3537).

<sup>٧٩</sup> صحيح البخاري (1088).

• ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾ [الأنعام: 153].

هذا صراطُ الله -جلَّ وعلا- قد رسمه نبيُّنا -صلى الله عليه وسلم- بما أنزلَ عليه من الكتابِ، وبما استنارت قلوبُ هذه الأمة بسُنَّة نبيِّها -صلى الله عليه وسلم- فمن أرادها طلبها، ومن سلكها وفق لها، فليبشر -بإذن الله جلَّ وعلا- بفوزٍ عظيمٍ، وجَنَّةٍ عاليةٍ، وهدايةٍ في الدنيا والآخرة.

• الجِدالُ أصلاً في كثيرٍ من دلائلِ الأدلَّة غيرِ مرغوبٍ فيه، ولا محبَّبٍ ولا مطلوبٍ، وعلى هذا دلَّت دلائلُ الكتابِ والسُّنَّة، فالنبيُّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»<sup>٨٠</sup>، فالمرءُ والجِدالُ والخصومات دائماً أو غالباً ما تُنقِرُ النفوسَ، وتوجِّعُ العداواتِ، وتُظهِرُ النزاعاتِ، وينتقلُ الإنسانُ من إظهارِ الحقِّ وإباتته، إلى الانتصارِ إلى نفسه وإظهارها، وإرادةِ تقزيمِ صاحبه، والتَّقليلِ من شأنه واحتقاره.

• فلأجل ذلك كان الأصلُّ يُبعدُ عن الجِدالِ ولا يُطلَبُ إلا في حالةٍ مختصَّة، ولذلك يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- عند هذه الآية: "هذه الآية جاءت بتقسيم الدَّعوة إلى ثلاثة أمور:

❖ الحالة الأولى: دعوةٌ وهدايةٌ بالحكمة، يعني إلى الكتاب والسُّنَّة. وهذا للجاهل.

❖ الحالة الثانية: الموعظة الحسنة، هو بالتَّرهيبِ والتَّرهيبِ.

❖ الحالة الثالثة: جدالٌ للمُعْرضين والمُعاندِين."

وهنا نستذكر قول الإمام مالك لما قيل له: يا إمام، تكون عندي السُّنَّة أجادل عليها؟ يعني يسأل يقول: أجادل عليها، يقول: أنا أجادل عن السُّنَّة؟ قال: "لا، أخبر بها، فَإِنْ قُبِلَتْ مِنْكَ، وَإِلَّا فَاسْكُتْ". هذا الذي جاء عن الإمام مالك هو أيضاً في هذا المسار، وهو إشارةٌ إلى الجِدالِ المعهود الذي هو مذموم، والذي فيه حضورُ النفوسِ، وحضورُ الشَّيطانِ، وشيءٍ من إرادةِ الانتصارِ والانتقامِ والتَّشقي في المخالفِ، وإرادةِ بيانِ جهله، أو التَّقليلِ من شأنه إلى غير ذلك.

• فلا يكونُ الجِدالُ إلا إذا احتيج إليه لمعارضٍ أو لمُعاندٍ، فإذا وُجدت شبهةٌ كَشَفَها، وإذا أوردَ حجةً أبطلها، وإذا كانَ ثَمَّ مانعٌ بينَ عدمِ امتناعه، فيكونُ ذلك أهدى للحقِّ، وأدَلَّ على الصَّوابِ، ولذلك يقول السَّلفُ، ويقول أهلُ التَّفسيرِ: فإن جادلهم فليكن ذلك بالوجهِ الطَّليقِ، وبالرفقِ واللينِ، وبخُسنِ الخطابِ، كما ذكر ذلك ابن كثير وغيره.

فلَمَّا يجادل الإنسانُ بوجهٍ منطليقٍ، وبرفقٍ ولينٍ، وبخُسنِ خطابٍ، فيكونُ الأمرُ لازالَ متعلِّقاً بكشفِ الشُّبهةِ، وإزالةِ الإشكالِ، وحلِّ ما ذُكر من المانعِ، وإبطالِ حجةِ المخالفِ.

• لأجل ذلك لو تأملت في نصوصِ القرآن والسُّنَّة، لم تَرَ كثيراً من المجادَلَةِ، وسترى أنَّ كثيراً من أنبياءِ الله -جلَّ وعلا- ورسله يُعرضون عن الجِدالِ، وينذرون أقوامهم، يبهونهم ثم لا يزيدون، هذا إن شئتموه فهو الحقُّ، وإن تركتموه تركتم الحقَّ، ولذلك ترى ما يكون من حديثِ الله -جلَّ وعلا- وكلامه في قصَّة نوح، أو في قصَّة شعيب، أو غيرها، يدعوهم، ثم يريدون ما يريدون، فيجيبُ عنهم وتُختم بذلك الآيات، ليس فيه بعدها، أنا

<sup>٨٠</sup> سنن أبي داود (4169). وحسنه الألباني.

نبي الله كيف تخالفوني! أنا كذا! لا، إنما هي إبانة للحق، ودفع للإشكال، وترقيق للقلوب. بعد ذلك تأتي من الآيات ما فيها من الوعظ، وينتهي عند ذلك الحديث، ويُقَصُّ حالٌ من حال الأنبياء مثل ذلك، سواء جئت إلى الآيات في سورة الأعراف، أو في سورة هود، أو في سورة الشعراء، كلها متقاربة في هذا. وحال النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن ليجادل المشركين، وما ذكرناه في قصتهم لما قالوا: تعبد إلها عامًّا، ونعبد إلهك سنة، أن نزلت الآية وانتهى عند ذلك.

- إذا جئت أيضًا إلى حال النبي -صلى الله عليه وسلم- في مواطن متعديّة مع قومه، فقصته مع أبي الوليد مثلما ذكرنا، أيضًا لما دعاهم قال: «إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجَزِيَّةُ»، فأنزل الله -جلَّ وعلا- حال المشركين، قالوا: نعم وعشر أمثالها، قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>٨١</sup>، ماذا بعد ذلك؟ سُبُوهُ وَشَتْمُوهُ، وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5]، هل زاد؟ هل جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه انتقصهم؟ أو سبهم؟ أو عارضهم؟ أو أمعن في إبانة سوءهم؟ لا. فيأتيه ملك الجبال ينزل عليه، ويقول: أتريد أن أطبق عليهم الأخشبين؟ قال: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»<sup>٨٢</sup>. هذه كلها تدلُّ على أن المجادلة تكون بالتي هي أحسن، وأن هذا هو الذي جاء به الشرع، وأنه لا يُزَادُ في ذلك البتّة، وعلى هذا كان مسلك علماء الإسلام من الصحابة ومن بعدهم.
- هذا يسترعي الكلام عن بعض الوقائع، مثل: بعض المناظرات، فقد تكون بعض الأحداث التي يكون فيها مسلم وكافر، يهودي أو نصراني، ثم يتراجعون بالحجج والبراهين، فهذه المناظرات إذا كان مبدؤها هو انتقاص المخالف، فهذه لا فائدة فيها، وليست طريقة شرعية، ولذلك ما جاء كتاب الله -جلَّ وعلا- ولا سنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- بتتبع كتب السابقين في التوراة والإنجيل للإبانة عن بطلانها أو تناقضها، أو حصول التبدل فيها، مع أن الله -جلَّ وعلا- قرّر في كتابه أنه حصل فيها تبدل، لكن لا فائدة من ذكر هذا، وأيضًا بعض الناس قد يظنُّ أنه بمثل إظهار هذه التناقضات أو اختلاف النسخ أو غيرها، أن هذا إبطال لأصل دينهم، لا، فنحن نعتزُّ بما بعث الله به موسى، وما بعث الله به عيسى، وما بعث به جميع أنبيائه ورسله، ونؤمن بذلك، لكن نعلم أن هذه الرسالة هي خاتمة الرسالات، وأن هذا الكتاب مهيمٌ عليها، وأن الله -جلَّ وعلا- قد نسَخَ أن يُتَّبَعَ دين غير دين الإسلام، وغير شرعة محمد -عليه الصلاة والسلام-.
- فمثل هذه المناظرات أكثر ما فيها أنها قد تُظهرُ الشبهة، وقد تُسَوِّقُ لها، قد يَقِفُ أو يُحَرِّجُ أو يَنْقَطِعُ يهودي أو نصراني في ذلك الحوار، لكن ما الذي يدريك أنه ربّما تلقى بعض المسلمين أو غيرهم شبهةً فعلقت بقلوبهم فأفسدت عليهم؟!

<sup>٨١</sup>مسند أحمد (1932). وصححه أحمد شاكر.

<sup>٨٢</sup>صحيح البخاري (3010).



فعند ذلك نقول: إِنَّ هذه المناظرات إِنَّمَا يُحْتَاج إِلَيْهَا على وجهه، أَوَّلُ شَيْءٍ لإِرادة هدايتهم للحقِّ، إِذَا كَانَ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ الاستجابة مَا حَفِظَ مِنْ أَنَّ هذا هو الصَّحِيح، فَيُبَيِّنُ له هذا، ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ كَوْنِهِ نَاسِخًا، وَكَوْنِهِ هو القَاضِي والحاكِم على سائر الأديان.

• ثُمَّ أَيْضًا إِذَا احتِيجَ إِلَيْهَا فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ بِحُضُورِ الْعَوَامِّ، وَحُضُورِ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ، وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ، ثُمَّ إِعَادَةُ نَشْرِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَمَا قَلْنَا تَسْوِيقٌ لِبَعْضِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ، وَمَا يُدْرِكُ أَنَّ الشُّبْهَةَ قَدْ تَعَلَّقَ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَيَلْحَدَ، أَوْ تَقَرَّرَ فِي قَلْبِ الْمُوَحِّدِ فَيَرْتَابَ، وَيَبْقَى طِيلَةً حَيَاتِهِ فِي شُبْهِه وَأَهْوَاءِ، وَفِي ضَلَالَاتٍ وَفِي مَحَنٍ، فَلَأَجْلِ ذَلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ طَرِيقًا وَلَا مَنَاجَا، فَالْمَنَاظِرَاتُ يُحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَيُؤْخَذُ بِهَا، وَيُسْتَفَادُ مِنْهَا، قَدْ تَكُونُ فِي مُحِيطٍ خَاصٍّ، أَوْ فِي مَجْتَمَعٍ أَهْلِ عِلْمٍ يُحْتَاجُ إِلَى دَفْعِ شُبْهَةٍ، إِلَى مَنْعٍ مَا يُسَوِّقُ لَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْإِسْرَافِ، وَبَعْضُ أَهْلِ عِبَادِ الْأَوْثَانِ، كَبَعْضِ الْبُودِيَّيْنَ، وَبَعْضِ الْيَهُودِ، وَبَعْضِ النَّصَارَى، هَذَا صَحِيحٌ، لَكِنْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الدَّعْوَةِ بِالْمَنَاظِرَةِ وَالْمَجَادَلَةِ، وَإِنَّمَا بِالْهَدَايَةِ وَالِدَّلَالَةِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُوقِّقُ لَهُ إِلَّا مُوَفَّقٌ. وَنَحْنُ حِينَمَا نَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ نَعْرِفُ لِمَنْ شُغِلَ بِمِثْلِ هَذَا قَدْرُهُ فَضْلُهُ، نَدْعُو لَهُ بِأَنْ يَسُدِّدَهُ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- لَكِنْ لَا بَدَّ مِنْ إِبَانَةِ الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ، وَالسَّبِيلِ الْأَحَقِّ، وَأَنَّ الْخَلَلَ يُصْلَحُ، وَأَنَّ الْخَطَأَ يُقَوِّمُ، وَأَنَّ السَّبِيلَ يَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ.

• وَلَأَجْلِ ذَلِكَ جَرَى التَّنْبِيهِ عَلَى هَذَا، وَكَمَا قَلْنَا نَعْرِفُونَ سِيرَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَسِيرَ السَّلَفِ، وَسِيرَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِيمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْ تَلْقَى الشُّبْهِه أَوْ سَمَاعِهَا، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ وَقَدْ بَلَغَ فِي الْعِلْمِ مَبْلَغَهُ، لَيَضَعُ يَدَيْهِ فِي أَصْبَعِيهِ امْتِنَاعًا مِنْ سَمَاعِ بَعْضِ الشُّبْهِه، لِنَلَّا تَعَلَّقَ بِالْقُلُوبِ، وَفِي كِتَابِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِذَا جَاءَتِ الشُّبْهَةُ، أَخَذُوهَا مَجْمَلَةً، وَفَصَّلُوا الْجَوَابَ عَنْهَا، أَمَّا تَفْصِيلُ الشُّبْهِه هُوَ كَالْتَسْوِيقِ لَهَا، فَفِي هَذَا مَلَا حِظٌّ قَدْ لَا يَنْتَبِهَ لَهَا إِلَّا أَهْلُ الْعِلْمِ، فَلَأَجْلِ يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ لَا يُعْنَى بِالْجِدَالِ، وَمَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ، وَهَذِهِ الْبَرَامِجُ الْجَدِيدَةُ تَدْعُو إِلَى الْأَخْذِ وَالرَّدِّ، وَأَنْتَ مَا خَلَقَكَ اللَّهُ لِهَذَا، فَطَالِبُ الْعِلْمِ وَالِدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- يُبَيِّنُ الْحَقَّ، يَقْرِئُهُ إِلَى النَّاسِ، يَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ بِهِ، يُظْهِرُهُ فِي أَحْسَنِ حُلَّةٍ، وَفِي أَكْمَلِ صُورَةٍ، وَفِي أَسْهَلِ عِبَارَةٍ، وَكُلُّ مَا يَنَاسِبُهُ، ثُمَّ يَدْفَعُ الْإِشْكَالَ إِنْ اسْتَشْكَلَ، وَيَطْلُبُ مَا يُؤَيِّدُ مَا يَذْكُرُهُ مِنَ الْحَقِّ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَقِفُ عَنِ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ، وَالْقِيلِ وَالْقَالَ، وَالذُّخُولِ فِي تَفَاصِيلِ الْكَلَامِ، وَهَذَا يَحْصُلُ بِهِ -بِإِذْنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا- خَيْرٌ كَثِيرٌ.

• أَمَّا الْجِدَالَاتُ لَا تَجِدُ بِهَا إِلَّا مَرَضَ الْقُلُوبِ، وَفَسَادَهَا، وَجَفَاءَ النُّفُوسِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَدْ يَعَلَّقُ الْبَاطِلُ فِي قَلْبِكَ، وَقَدْ يَقْرُبُ مِنْكَ الشَّرُّ، وَقَدْ يَفُوتُ عَلَيْكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَهَذَا فِي الْوَاقِعِ كَثِيرٌ فَيَمْنُ شُغْلُوا بِالْأَحَادِيثِ وَالْمَرَاJَعَاتِ، وَالْمَجَادَلَاتِ، وَرَبَّمَا وَقَعَ لَهُمْ انْحِرَافٌ، أَوْ طُمَسَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، أَوْ ضَعُفُوا عَنِ الْحَقِّ، وَرَكَنُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَا لِلدَّعْوَةِ أَذْوَا، وَلَا لِلْبُعْدِ عَنِ الْبَلَاءِ حَصَلُوا، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ شَرٌّ كَثِيرٌ.

وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

## الدرس السادس



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- لما كان الحديث في الدرس الماضي عن الحكمة، وما تبع ذلك من الجدل والكلام على الجدل في الدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- انتهى الحديث عن الحوارات الواقعية، وإلزام المخالف الكافر وغيره ببعض الإلزامات، والدخول في بعض الأحوال إلى كتيمهم، أو تفاصيل دينهم، أو بعض ما عندهم لإرادة بيان خطأ أو خللٍ أو غير ذلك، وذكرنا أنَّ الدخول في هذا في الجملة قد يكون فيه شيء من الإشكال لأنَّ المراد هو دفع الشبهة وتأسيس الحق، وتأسيس الحق هو الأصل وهو الأولى وهو الأوسع، وباب رد الشبهة إنما هو بقدره، لأجل ذلك في كتاب الله -جلَّ وعلا- ردُّ لشبهة المشبهين، وكلام المؤولين والمبطلين، وجاء الردُّ من الله -جلَّ وعلا- بأبسط كلمات.
- فائدة: التعبير بلفظ "عبارة" عن كلام الله -جلَّ وعلا- قد يكون فيه إشكال، وإن لم نقصد ذات العبارة، لكن لما كان مسالكا لمسالك بعض الأهواء أنَّهم يقولون: إنَّ القرآن عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله؛ فن دفع هذا الإشكال بأن نقول: إنَّه يأتي كلام الله -جلَّ وعلا- في دفع ذلك في جملة صغيرة أو آية قصيرة تُحصِّل ذلك المقصود.
- الحوارات والدخول في الكلام على الشبهة إنما يُقدَّر بقدر الحاجة إليه، فإذا احتيج إلى التوسُّع لانتشار الشبهة؛ فهذا ظاهر، ولكن نقول: إذا لم تكن الشبهة شائعة فلا نحتاج إلى أن نشيعها، ثم نشيع الردُّ عليها، ما الفائدة من ذلك؟!

لكن إذا شاعت وظهرت، وخيفَ أن يكونَ لها أثرٌ على الموحدين والمسلمين، وعلى أهلِ الهدى -أهلِ السُّنة والجماعة- من أهلِ الضَّلالة والبدعة؛ فلا شكَّ أنَّ إظهارَ هذه الشُّبهة وتعرّيتها وبيانِ الحقِّ فيها هذا ممَّا جاءت به دلائلُ الكتابِ والسُّنة، وهو مُوافق لما ذكرنا.

### مَن يتصدَّى لهذه الأمور؟



- ليس كلُّ أحدٍ، وإنَّما مَن هو مكيَّن في العلم، قادرٌ على حسنِ النَّظر، مستعدٌّ للجوابِ بالآلةِ الشرعيَّةِ واللُّغويَّةِ، وما يتبعُ ذلك من سلاحٍ يُمكنُه من دحضِ تلك الشُّبهة ومنعها.
- ثم من جهةٍ ثانية: الشُّبهة تُقدَّر بقدرها، فإذا كانت ضيقة النِّطاق فلا يُوسَّع الكلامُ فيها، وإذا اتَّسع أو زاد فُيردُّ على الشُّبهة بقدر الزِّيادة، وبقدرِ المجالِ الذي تدورُ فيه. فإذا كانت مثلاً تدور بينَ ما يُسمَّى في العصرِ الحاضرِ بالنُّخب أو بأهلِ الثَّقافة أو النَّظر ونحو ذلك؛ فيكون مسارِ إحياءِ الكلامِ عليها أو ردِّها في ذلك المسار، وإذا انتقلَ إلى عوامِ المسلمين فيكونُ الحديثُ إليهم، وإذا صارَ ذلك لبعضِ مَن تسنَّم لواءِ الدَّعوة وخُشي أن يتلقَّها أو يقبلها فلا بدَّ أن يُحصَّنوا، وأن يكونَ ثَمَّ مجالسٌ لدفعِ هذه الإشكالات، ومنعِ تلك الشُّبهات. على كلِّ حالٍ هذا جوابُ أحدِ الأسئلة التي ثارت بعد انتهاءِ المجلسِ الماضي، ولأهميَّته أحببتُ أن أُستهلَّ به في مجلسنا هذا.

### أحوال المدعوين.



- إنَّ الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- لما كان متأهلاً لهذه الوظيفة، متسنِّماً لواءَ الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- هو هجَّيره في ليله ونهاره، وجميعِ أحواله؛ فلا بدَّ أن يكونَ على علمٍ وعلى بصيرةٍ بالمدعوين باختلاف أحوالهم، وما يناسبهم، وما يليق بهم، إن كان ذلك في أصلِ ما عندهم من علمٍ أو ديانة، أو جاهٍ، أو قرابة، أو شيئاً من الأمور احتفَّ بأن يكونَ لهم حال خاصَّة؛ فإنَّه من المهمِّ على الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أن يكونَ مستحضراً لهذا الأمر.
- إذا أردنا أن نبينَ ذلك فانظر إلى كتابِ الله -جلَّ وعلا- فإنَّ من أعظم ما جاء في كتابِ الله وفي سنَّة نبيِّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يتأهَّب الدَّاعية لما يليق بقومِه، ولأجلِ ذلك إذا جئت إلى دعوة شعيب، ودعوة صالح، ودعوة هود؛ كلها دعوة إلى توحيدِ الله -جلَّ وعلا- لكن كان من أوائل ما تحدَّث به شعيب مع قومه عن نقصِ المكيال والبخس فيها، وحصولِ الظُّلم وما يتعلَّق بها، لو طُفَّ كان فيما يتعلَّق بإتيانِ الفاحشة، وحصولِ الشُّذوذ، والتعلُّق بالرجال، وما اتَّبِع ذلك من بلاءٍ عظيم، وهكذا قلَّ في دعواتِ أنبياءِ الله -جلَّ وعلا- ورسوله، ممَّا يدلُّ على أنَّ العلمَ بحالِ المدعوين من جهةٍ تقبُّلهم أو امتناعهم أو غفلتهم أو محاجَّتهم أو شُبُههم، أو كان ذلك فيما يحتاجونَ إليه من تصحيحٍ، أو من تبیینٍ، أو من منعٍ، أو من تحذيرٍ، أو من ترغيبٍ كما جاء في هذه الآيات، وكما جاءت في دلائلِ النُّصوص.
- وإن أردتَ أيضاً أن تنظرَ فيما جاء عن النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- فإنَّ هذا كثيرٌ بالمرَّة،

□ فحينما بعث معاذًا إلى اليمن كان ذلك من أعظم ما يكون، لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»<sup>٨٣</sup>، فلما قرّر أنهم أهل كتاب، ونبّه معاذًا إلى ذلك، دلّ هذا على أنّه يحتاج إلى الحديث معهم ما قد يختصّون به ولا يحتاجه سواهم، فيكون الدّاعيّة مع ما لديه من أصل العلم بالكتاب والسُّنة، ومن القُدرة على النّظر فيما يحتاجون إليه، أو فيما يريدونه، أو فيما يتعلّقون به ما يجب أن يكون متمرّسًا لذلك، مستعدًا له، قادرًا على إظهار ما يتعلّق به والجواب عليه. هذا في قصّة معاذ.

□ أيضًا حديث بريدة لما أرسله النبي -صلى الله عليه وسلم- في الغزو، جعل لهم من الوصايا والحديث ما يختصّ بأحكام الغزو، «لَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»<sup>٨٤</sup>، وفي رواية: «وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا كَبِيرًا»<sup>٨٥</sup>، وفي رواية: «وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ»<sup>٨٦</sup>، إلى ما جاء في ذلك.

□ وفي حديث بريدة أيضًا قال: «فَأَرَادُوا أَنْ تَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تَنْزِلُهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ»، وقال: «فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّتْ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ»<sup>٨٧</sup>، كل هذا يدلّ على أهمّيّة ما يليق بمن تصدّى لباب من أبواب الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- أن يكون مستحضرًا لما يحتاج إليه في ذلك. وهذا أمرٌ ظاهرٌ في كتاب الله، وفي سنّة نبيّه -صلى الله عليه وسلم-.

• ولهذا كلام الله -جلّ وعلا- في كتابه عن المنافقين له سياقات منتظمة لها دلالاتها ومعالمها، وما يجيء في كتاب الله -جلّ وعلا- من محاوراة أهل الكتاب له ما يخصّه، إذا جيء إلى الكلام عن المشركين وما يكون منهم من الحجد كان لهم حديثًا يخصّهم، قال الله -جلّ وعلا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 64]، هذا استحضارٌ وإظهارٌ لما كانوا عليه من إشراكٍ غير الله مع الله، ودعوتهم إلى التّثليث ونحوه.

• لما يأتي قول الله -جلّ وعلا- في الكلام عن المشركين: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ \* أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ \* بَلْ لَا يُوقِنُونَ \* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَفَرُونَ﴾ [الطور 35 - 37]، كانت آية تُزلزل الجبال، وتؤثّر في القلوب، ولذلك جبير بن مطعم لما سمعها قال: "كاد قلبي أن يطير" وهو مشرك لم يؤمن بعد! حتى هداه الله -جلّ وعلا- بهذه الآية، لأنّ المشركين لا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بأنّ هذه الأكوان بتقدير الله، ولا بخلق الله، ولا بتصرف الله -جلّ وعلا- فحاجّهم الله -جلّ وعلا- بالحجّة البيّنة الظّاهرة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [الطور: 35]، هل يمكن أن يكون الخلق من غير شيء؟! ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، كل ذلك

<sup>٨٣</sup> صحيح البخاري (1496).

<sup>٨٤</sup> مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيره (1731).

<sup>٨٥</sup> أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (135)، والحاكم في معرفة علوم الحديث (ص322) مطولاً، والطحاوي في شرح معاني الآثار (5184) واللفظ له.

<sup>٨٦</sup> مسند أحمد (2625)، سنن البيهقي (16699).

<sup>٨٧</sup> صحيح مسلم / باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها (3261).



الجواب عنه: لا، فلا يمكن أن يكون النبي مخلوق من نفسه، ولا يمكن أن يكون هو الخالق وهو يعلم أنه ليس بخالق.

قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: 36]، فلم يبق إلا الرابع وهو أن الله -جلّ وعلا- هو خالقهم، فلأجل ذلك كانت هذه الآية دالة على الفطرة، وعلى إقرار العبودية لله -جلّ وعلا- وفي نحو ذلك آيات كثيرة أوردناها.

• على كلّ حال هذا باب من أبواب النظر في أحوال المدعوين، وكما قلت لكم: لو جئنا إلى آيات الملحدين لرأينا شيئاً من مثل هذه الآيات، لو جئنا إلى آيات المنافقين وما فيها من ذكر الله -جلّ وعلا- من أحوالهم وإظهار سرائرهم وما كان في خاصّتهم حتى كانت سورة التوبة التي جاء فيها ذكر المنافقين كثيراً سُمّيت "المشققة" لأنها شقّقت ما كان خفياً من أعمالهم وأحوالهم؛ فدلّ هذا على ما يكون عليه الدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- من إظهار ذلك.

### طريقة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مع المدعوين، وكيفية التعامل معهم.

❖ حال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مع قرابته، فالقربة لهم حق، وأنزل الله -جلّ وعلا- فيهم آية تتلى اليوم القيامة ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، فدلّ على أهميّة ما يلزم الدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- من الاهتمام بأقاربه وذويه، زوجة، أو والدًا، أو ولدًا، أو أختًا، أو أخًا، أو عمًا، أو عمّة، أو خالًا، أو خالة؛ ولذلك النبي -صلّى الله عليه وسلّم- نادى قريشاً وهم قبيلته التي نتج إليهم ويجعلهم عصبه لهم- ثم نادى العباس، ثم نادى صفية عمّة رسول الله، «اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، ثم نادى ابنته فقال: «وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَلِّبِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»<sup>٨٨</sup>، وما أعظمها من عبارة، وما ألطفه من معنّى! وما أجمله من حديث! فإنّ ما يكون من دعوتي إليك لا يغني أنني والدك وأنني أبوك، وأنك بضعة منّي، فأنا سأبذل لك المال والدنيا، وما يتعلّق بأشيانك، وكذا... وكذا... إلى غير ذلك ممّا يحتمله هذا المعنى؛ أمّا جانب الآخرة والتّوحيد والإيمان وتحقيق العبودية لله، وأداء حقّ الله -جلّ وعلا- في أصله وفي فروعه، وفي الواجبات وإتيانها، والمصارعة إلى المستحبات، والبعد عن المحرّمات؛ فإنّ ذلك لا يغني أحد عن أحد، ففيه من المعنى العظيم والدلالة الكبيرة على ما هو مثال يُحتذى لكلّ داعية إلى الله -جلّ وعلا- وأيضاً فيه مراعاة حقّ القربة، وما يلزم الإنسان لهم، وأنّ الحقوق باقية محفوظة يلزم الدّاعية التّوفية بها، ولذلك النبي -صلّى الله عليه وسلّم- استعدّ لها لما كان عليه واجباً في النّفقة والقيام على الولد، وقضاء حاجته.

❖ حال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- مع أصحاب الجاه، ومن لهم قدر، ومن يجتمع إليهم ويحتمي بهم ذووهم في فتح مكّة، قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»<sup>٨٩</sup>، وهو الإبقاء على شرف أهل الشّرف، وقدر أهل القدر، وفضل أهل الفضل، وأنّ الإسلام ما جاء لينتقصهم،

<sup>٨٨</sup> أخرجه البخاري (4771) واللفظ له، ومسلم (206)  
<sup>٨٩</sup> صحيح مسلم (3338).

ولا ليضع العظماء، أو ليتشقى فيهم، ولا أن الدّاعية أراد بدعوته أن يدعو إلى نفسه، وأن ينتقص سواه؛ لا، وإنما هو إقامة حقّ الله -جلّ وعلا- وبذل الشرائع، والأمر بالواجبات، وما سوى ذلك من الحقوق والأقدار والمقامات فهي محفوظة مصونة بأصل الشرع، وبما جاء في كتاب الله -جلّ وعلا- وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم.

- ولذلك لن ترى في قانون ولا دستور ولا ملة ولا شرعة ما وُجد في شرع وفي ملة محمد -صلى الله عليه وسلم- من الكمال والوفاء، ودقائق المسائل والأحكام التي جاء فيها جملة هذه الاعتبارات، رأيت الكبير وما له من الحق الجار وما له من الدرجة، الزوجة وما لها من الفضل، والأولاد، حتى الأعبُد والإيماء؛ أشياء كثيرة يعجب منها لإنسان؛ حتى الهيمة لها حقوق، فقال -صلى الله عليه وسلم-: «**في كل في كل كبد رطبة أجر**»<sup>٩٠</sup>، وقال: «**مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بَوْلِدَهَا**»<sup>٩١</sup>، يقولها النبي -صلى الله عليه وسلم- في حُمرة تطير.
- ولذلك ننبه كثيرًا إلى أن جملة من الطلبة الذين درسوا العلم وتعلّموا أحكامه وهم لا يزالون في عنفوان الشباب ولا زالوا في فتوة شبابهم؛ تجد أنهم يكون لهم اندفاع إلى ما تعلّموا، فلربما رأوا كبيرًا فقلّلوا من شأنه، أو ضلّوه، أو عظّموا أمره، أو لم يعتبروا به، وربّما جاؤوا إلى إمام مسجد يؤمّهم من قديم الزمان وهو الذي يحفظهم القرآن، وهو الذي عُرف بخير كثير وإن كان لديهم من الجهالات أو الخطأ أو النقص أو غير ذلك؛ تجده أسرع ما يظهر نقيصته وكأنه يريد أن يتشقى فيه! ما كان هذا طريق نبينا -صلى الله عليه وسلم-! فإن الحق أحق أن يتبع، وإن الهدى يظهر، وإن الأمر يبين، وإن القدر يبقى، فيبين الإنسان ماذا عنده، ويكون ذلك مع إبقاء لفضل صاحب الفضل، وإكرام ذي الشّية وما له من سابقة في الإسلام، وما له من إمامة للمسجد، وما له من فضل في كذا وكذا.
- أو أنه يأتيه عند قومه وعند مجموعته حتى يتفرّج عليه أنه يريد أن يظهر خطأه وخلّله، وليس كذلك! بل لو أنه أخذه على الانفراد وعلمه وقال: إنك أولى بتعليم الناس على هذه الجادة وهذه الطريقة، وأنت شيخنا، وأنت الذي لم أزل أذكرك صغيرًا وأنا أصلي وأتعلّم الصلاة منك؛ كلمات فيها شيء من تطيب النفوس وإكبارها، وفيها إظهار للحق ودعوة إلى الامتثال إليه، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لأحنف بن قيس: «**فِيكَ خَصْلَتَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ**»، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَمَا هُمَا؟ قَالَ: «**الْحِلْمُ وَالْأَنَاءُ**»<sup>٩٢</sup>، هو دعوة إلى الاستمسك بها، وإرادة وجه الله -جلّ وعلا- بما يكون من تخلّي الإنسان بها، وغير ذلك ممّا يتبعه.
- ❖ **حال النبي -صلى الله عليه وسلم- مع الصغار، كيف يكون في هدايتهم، وتعليمهم، وتربيتهم،** ابن عمرو هو من صغار الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**»<sup>٩٣</sup>، وهذا فيه إشارة لما ذكرناه من المسألة قبل هذه؛ فأثنى عليه بما فيه من حرص على الخير، وإقبال عليه، ورغبة فيه، ونحو ذلك من الأشياء، ثم أشار إليه بوصية جليلة عظيمة تدلُّ

<sup>٩٠</sup> صحيح البخاري (2201).

<sup>٩١</sup> سنن أبي داود (2303).

<sup>٩٢</sup> مسلم، كتاب الإيمان، باب: الأمر بالإيمان.

<sup>٩٣</sup> صحيح البخاري (1060)، صحيح مسلم (4534).

على فقه النبي -صلى الله عليه وسلم- وما أوحى الله إليه من هذه الشريعة السمحة التي هي أقرب إلى القلوب، وقد أوتي من حسن اللفظ وجوامع الكلم ما يأسر القلوب، ويقرب النفوس، ويسهل الحق، ويكون أدعى للامتثال، مع ما في قيام الليل من التعب والمشقة، وترك لذيذ النوم، وما يلحق الإنسان أحياناً من تعب وعملٍ شديدٍ في نهاره ونحو ذلك، إلا أن عبد الله لم يزل على هذا العمل، ولم يزل ممتثالاً بوصية النبي -صلى الله عليه وسلم- لعظم وصيته -صلى الله عليه وسلم- وما كان فيها من هداية له إلى ذلك، وحسن توجيه له فيه.

#### ❖ من أحوال النبي -صلى الله عليه وسلم- في مراعاة أحوال المدعوين، لما يأتي إلى الباعة في الأسواق

ويدخلها، ولما يرى النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك العيش فيه بللاً، فما كان له إلا أن يقول: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَي يَرَاهُ النَّاسُ؟»<sup>٩٤</sup>، ما قال له: أنت غشاش! أنت فيك وفيك! وإنما توجيه إليه أنه إن كان ذلك فعلٌ منك مقصودٌ بكتيم العيب وإخفائه فذاك مخالفة منك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أرشده إلى تركه، وإن كان ذلك على سبيل الخلل أو الخطأ وعدم النظر فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أرشده أن ثم بلل في أسفل ذلك الإناء الذي فيه عيش ونحوه، وأمره أن يظهره. فهذه وصايا النبي -صلى الله عليه وسلم-.

#### ❖ حال النبي -صلى الله عليه وسلم- مع النساء، فكان يعلمهن، ويأمرهن بالخير، ويقربه لهن، لما كان في

خطبة العيد، واجتمع الناس كلهم، ومع ذلك لما انتهى النبي من وعظ الرجال تحرّك إلى النساء فوعظهن بما يليق بهن، وبما يختص بهن، ولأنه مع البعد، ومع كونهن بعد الرجال، فربما فات عليهن من سماع الموعظة، والاستفادة من الخطبة ما جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- يخصهن بذلك.

ولما طلبوا منه أن يجعل لهن يوماً يُذكرهن فيه خصهن النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فعلم أن الداعية قد يخصص أقواماً بما يليق بهم إذا كان له وجه صحيح، فإن النساء يستحين عند الرجال، ولهن من الأحكام ما تخصصن ما لا يمكن إظهاره عند الرجال أو الأجانب، أو غير ذلك؛ وإلا فإنه من جهة الأصل فالعلم ذائع مشهور، لا يكون سرّاً، ولذلك جاء فيما أورده البخاري عن عمر بن عبد العزيز: "فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرّاً"<sup>٩٥</sup>، فإذا سرّ بالعلم ذهب بركته، لكن قد يختص بأقوام إمّا لكونهم أن تلك المسائل تخصهم، أو لكون غيرهم لا يستطيع إدارك ما أدركوه لتقدمهم في العلم، فيجعل لهؤلاء مجلساً يناسبهم، ولهؤلاء آخر يليق بهم.

❖ وكان من حال النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أسرع إلى أصحابه في الوقوف معهم في مواساتهم، وهكذا ينبغي للداعية إلى الله -جلّ وعلا.

<sup>٩٤</sup> صحيح مسلم (150).

<sup>٩٥</sup> صحيح البخاري / كتاب العلم / باب كيف يقبض العلم ص: 50

- وفي حديث عتب بن مالك لما طَلَبَ أن يُصَلِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في بيته وهو كفيفٌ يحتاج إلى أن يكون ثَمَّ مَصَلًى، فجاء النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وذهبَ إلى بيته وطَيَّبَ خاطره، حتى يُصَلِّيَ فيه إذا تعدَّر عليه أن يصلي إلى مسجدِ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ولَمَّا يَكُونُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في بعضِ المواطنِ والمصابات أن يوجَّهَ تلكَ العجوز التي طلبت من النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن تُشْفَى ممَّا أصابها من الصَّرع، قال: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكَ»<sup>٩٦</sup>، قالت "فادعُ الله لي ألا أتكشَّف"، فلَمَّا كَانَ الحالُ حالَ طلبٍ ورغبةٍ في شيءٍ وثَمَّ أمرٌ أعلى منه درجة وأرفع منه قدرًا بيَّن لها النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إن شِئْتَ أَجَبْتُكَ إلى طلبك، «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتُ»، فرقاها النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إليه «وَلَكَ الْجَنَّةُ»، فكان منها الصَّبرُ-رضي الله تعالى عنها وأرضاها.
- فاطمة لما طلبت من النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خادماً وكان قد أثَّرَ فيها العجنُ والرحى، وما يكونُ من الطَّحنِ ونحو ذلك، فقال النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَلَا أَدْلُكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أُوْتِيتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، فَكَبِّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ»<sup>٩٧</sup>، فهنا اعتبارٌ لأحوالهم، وتلمُّسٌ لِمَا يكونُ الأولى بهم.
- هنا جئنا إلى بعضِ الأحوال التي يُطلبُ مِنَ الدَّاعِيَةِ ما لا يَحْسُنُ طلبُهُ، يأتي الطُّفِيلُ بن عمرو الدوسي، فيقول: يا رسول الله، إِنَّ دَوْسًا عصت -وهم قبيلته وذووه- وأبت، فادعُ الله عليهم، يقول الصَّحَابَةُ: ظَنَنَّا أَنَّهُ سيُدْعَى عليها فتهلك، فكانَ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن قال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأَنْتَ بِهِمْ»<sup>٩٨</sup>، فكانت هدايتهم وإتيانهم للنَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وملاً للإيمانُ بِشَاشَةِ قُلُوبِهِمْ، حتى ارتووا مِنْ معِينِ النُّبُوَّةِ، وتأسَّوا بِمُحَمَّدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فكانَ لَهُمُ القُدْوَةُ وَالْأُسْوَةُ.
- إذا نظرنا إلى مثلِ هذه فنعرِفُ ما يلزم الدَّاعِيَةِ مِنَ اعتبارِ الأمورِ في مواقعها، وعدمِ الاستعجالِ إلى أمرٍ يكونُ فيه البلاءُ والفتنة، فلو أَنَّهُ طُلِبَ أن يدعوا على أقوامٍ، أو النَّظَرُ مِنْهُمْ ما يُسْتَفدُّ به ويُغْضَبُ ويحصلُ به شيءٌ من خروجِ الإنسانِ عن طوره؛ فَإِنَّهُ ينبغي له أن يعودَ إلى رَشْدِهِ، وأن يسلكَ مسكًا رَشَدًا كما كان نبيُّنا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.
- قِصَّةُ الأعرابي الذي جَمَعَ أنواعًا مِنَ الانتهاكاتِ، فأُيِّ شيءٌ أعظمُ مِنْ أن يَأْتِيَ إلى مسجدِ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والصَّحَابَةُ يَصَلُّونَ وَيَسْتَحُونَ، ويقرؤون القرآن، ورسولُ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كذلك في المسجدِ، ثُمَّ يرفعُ ثيابه ويظهرُ عورَتَهُ، ثم يبُولُ في المسجد! صنعَ شيئًا كبيرًا! فلا هو الذي بهم اقتدى، ولا بفعله تأسَّى، ولا هو الذي سَلِمَ من هذا وذاك!

<sup>٩٦</sup> صحيح البخاري (5247).

<sup>٩٧</sup> صحيح البخاري (5870).

<sup>٩٨</sup> صحيح البخاري (2734). صحيح مسلم (4592).



فغضب أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فدلّهم على ما يجب على الدّاعية من الصّبر على المدعو وعدم الاستعجال عليه، فقال: «لَا تُزْرِمُوهُ»<sup>٩٩</sup>، لأنّه في حال بولٍ، وإذا قطع الإنسان بولّه فهذا يزيدّه غيظًا ويؤدّيهِ، ثم أيضًا قد يكون سببًا لأن يُدنّس المسجد وتنتقل النّجاسة من مكانٍ إلى مكانٍ، ثم إنّ ذلك أمّنعه له من الاستجابة، فإنّه إذا قُطِع عليه بولّه ربّما خرج ولم يعد؛ فلم يستفد، وربما عادَ إليها مرة أخرى ونحو ذلك.

فلما قضى بولّه قال النّبيُّ -صلى الله عليه وسلم-: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ، لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ»<sup>١٠٠</sup>، فهكذا ينبغي.

● معاوية بن الحكم لما تكلم في الصّلاة، النّبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ما عَظَّمَ عليه، الصّحابة بدؤوا يضربون على أفخاذهم، حتى قال: "وا تكلّ أمّاه" يعني خاف، فما كان من النّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- إلا أن قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ»<sup>١٠١</sup>.

فهذا ذكرٌ وبيانٌ وتذكيرٌ بطريقة النّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- مع المدعوين، وكيفية التّعامل معهم، والاستعداد لذلك، فينبغي للدّاعية أن يلحظ ذلك في كلّ أحواله، إن أراد أن يدعو جازًا، أو يُحدّث إمامًا، أو أن يخطب جمعةً، أو أن يعظ والدًا، أو يُنبّه أخًا، أو يُعلّم ولدًا؛ فإنّه في كلّ هذه الأحوال لا ينفك من أن يكون على حالٍ أتمّ، وأن يكون في ذلك مستمسكًا لأموّره، عارفًا بدعوته، لا يُخرجه عن طوره ولو نيل منه، أو تكلّم فيه، أو حصل له ما حصل.

● تعرفون أنّ النّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- لما نادى في قريش وقال: «إِنِّي إِنَّمَا أُريدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجَزِيَّةَ»<sup>١٠٢</sup>، فقالوا: قل وعشر أمثالها. فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»<sup>١٠٣</sup>، فما كان منهم إلا أن قال أبو لهب: تبّا لك، ألهذا جمعتنا! فهل كان منه إعادة للسبّاب أو الشّتيمة أو الانتقاص؟! لا، احتمل ذلك، وأنزل الله -جلّ وعلا- آيات تتلى في كتاب الله -جلّ وعلا- إلى يوم القيامة ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5]، إلى آخر الآيات التي في سورة ص، وما فيها من ذكر حالهم، وعدم استجابتهم، وأيضًا ما أنزل الله -جلّ وعلا- في أبي لهب في سورة تَبَيَّن عن سوء حاله، وما يُختم له، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

● من المسائل المهمّة التي ينبغي للدّاعية أن يلحظها أيضًا: أنّ ثَمَّ مسائل ليس من السّهولة نقل النّاس عنها، إمّا لتعلّقهم بها، وتلقّيهم لها أبًا عن جدٍّ، وإمّا لكون ذلك ممّا تتوق إليه نفوسهم، فيصعب عليهم أنّهم يستجيبون، ومع ذلك لا يمكن للدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- أن يقف، ولا يمكن للدّاعية أيضًا أن يأتي بما يكون عاقبته عدم الاستجابة أو الامتناع وعدم الموافقة.

<sup>٩٩</sup> صحيح البخاري (6025-144/20)، صحيح مسلم (685-325/2).

<sup>١٠٠</sup> المصدر السابق.

<sup>١٠١</sup> مسلم (537).

<sup>١٠٢</sup> مسند أحمد (1932). وصححه أحمد شاكر.

- لما كانت الأعياد والأفراح هي أكثر ما يفرح به الناس، ويعتدون له العدة في طول عامهم، وكانت أعياد المشركين، فما كان من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أن قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْفِطْرِ، وَيَوْمَ النَّحْرِ»<sup>١٠٣</sup>، فجعل لذلك بديلاً.
- والكلام على البديل ينبغي أن يكون كلاماً واضحاً جلياً، لا يُظنُّ أنَّ الكلام عن البديل أنَّ كلَّ مسألة تُهيَّ عنها شخصٌ أو دُفعَ عن فعلها أن يجعلَ له بديلاً ممثلاً لذلك! ليس هذا كذلك؛ بل ثَمَّ مسائل جاء الشَّرْعُ بإظهارِ البديلِ وبيانهِ فهي هلا، ويمكن المصير إلى ذلك، كما لو كانوا في حفلةٍ من حفلاتِ العرسِ ونحوها يستعملونِ المعازِفَ ونحوها؛ فإنهم يُهون عن ذلك، ويُعلِّمون أنَّ البديلَ في هذا ما أباح الله -جلَّ وعلا- من ضربِ الدُّفِّ ونحوه للنِّساءِ خاصَّةً على ما ذكره أهلُ العلمِ من القيمِ والضوابطِ المعروفة في هذا.
- ولا يعني ذلك أن يُقال أنَّ النَّاسَ يحتاجون إلى المعازِفِ إذن نصير إلى ما يصير إليه بعض النَّاسِ الآن من أن نُحدِثَ لهم أصواتاً كأصواتِ المعازِفِ لا تُستعمل فيها تلك الآلات؛ هذا كُلُّهُ ضربٌ من التَّكَلُّفِ، أو عدمِ حسنِ العلمِ بالفقه في الشَّريعة، فإنَّ ذلك عندَ جمعٍ من أهلِ العلمِ كثير لا يعدو أن يكونَ بابَ من أبوابِ المعازِفِ والموسيقى ونحوها.
- إذن نحن نقولُ بالبديل إذا كان في الشَّرْعِ بديلاً صحيحاً أصيلاً على وجهٍ منضبطٍ، وإلا فقد يكون ثَمَّ بديل لكن هذا البديل لا يُشرع على ذلك النَّحو، أو لا يجوزُ على هذا الوجه، فلأجل ذلك إذا أمكن أن يَجِدَ بديلاً خاصَّةً في الأمور التي يكون تعلُّقُ النَّاسِ بها أكثر؛ فإنَّه ممَّا يُعنى به الدَّاعيةُ إلى الله -جلَّ وعلا- أن يفتحَ لهم هذا الباب، وأن يُبيِّنَ لهم ذلك الحكم على وجهٍ مقاربٍ، بدون ما يكون فيه منعٌ لهم ممَّا أَلْفُوهُ، وعدمُ إخبارٍ لهم بما يؤذَن لهم فيه، ويليق بهم من تعاطيه.
- لما كان الأمر كذلك فينبغي للدَّاعية في مسيرته أن يتعلَّم هذه المسائل، خاصَّةً أنَّ مسائلَ الإشكالِ التي يقعُ فيها الدَّاعية مع قومِهِ، أو مع أهلِهِ، أو مع جيرانِهِ، أو مع أهلِ مسجده؛ هي مسائل يعرف فيها الإشكال سابقاً، فنبغي له أن يتأهَّبَ إلى طريقةٍ مناسبةٍ لحلِّها، والتأهَّب هنا أوَّل ما يكون بتمامِ العلمِ بأحكام تلك المسألة وما يتعلَّقُ بها. هذا من جهةٍ.
- من جهةٍ ثانية: عليه أن يعرفَ الطَّريقةَ المناسبةَ التي يكون فيها إيصالُ هذا المعنى إليهم بدونِ ما إشكالٍ أو حصولٍ ما بأسٍ، فإذا أمكنَ ذلك فلا شكَّ أنَّ هذا هو الواجب المتعيَّن عليه، فأحياناً يكونُ هذا مثلاً قبل أن يأتي موعد لهذا الأمر إذا كان مثلاً مخالفةً شرعيَّةً معروفةً متعلِّقةً بزمانٍ أو بمكانٍ أو بموتٍ شخصٍ؛ فيتأهَّبَ لهذا، يعلمهم ما يليق.
- مثلاً: في إحياءِ مولدِ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- وما يكونُ فيه من الاحتفالِ وجعلِهِ عيداً؛ هذه من المسائل التي يكثرُ الكلام فيها، فينبغي لطالبِ العلمِ أن يُعلِّم النَّاسَ بما للنَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- من المكانةِ والمنزلةِ، لأنَّ أكثرَ ما يُشَبَّه بالشُّبهِ على مَنْ أنكر ذلك أنَّه لا يحبُّ النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فإذا ابتدأتَ بذكرِ ما للنَّبيِّ

<sup>١٠٣</sup> مسند أحمد (13359)، وأخرجه أبو داود (1134) واللفظ له، والنسائي (1556).

-صَلَّى الله عليه وسلَّم- مِنَ الْمَنزِلَةِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْمَكَانَةِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْفَضِيلَةِ، وَمَا جَاءَ فِي حَقِّهِ مِنَ الْحَقُوقِ فِي كِتَابِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَفِيتَ ذَلِكَ.

• ثم أيضًا لما كان هذا له وقت وألفه النَّاسُ منذ زمانٍ؛ أن يُبَيِّنَ أَصْلًا أَصِيلًا فِي التَّأْسِي وَالْإِقْتِدَاءِ وَالْإِهْتِدَاءِ، حَدِيثٌ عَامٌّ، لِأَنَّ النَّاسَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَتَأَمَّلُوا، يَضْرِبُوا بَعْضَ الْأَمْثَلَةِ، ثُمَّ إِذَا كَانَ الْمَكَانُ مَنَاسِبًا طَرَحَ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ، وَكَانَ لَهُ قَبُولٌ بِقَدْرٍ مَا، أَوْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ عَرَضٌ لَهُ عَلَى أَحَادِهِمْ، لِأَنَّ النَّاسَ فِي حَالِ اجْتِمَاعِهِمْ يَكُونُ لَهُمْ مِنَ النَّشْوَةِ وَالْقَسْوَةِ مَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ، أَمَّا إِنْ كَانُوا مُنْفَرِدِينَ فَيُمْكِنُ أَنْ يُوَطِّدُوا، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَّثَ هَذَا وَحَدَّثَ هَذَا، وَأَخَذَ بِإِمَامِهِمْ، وَبَيَّنَّ لَهُ؛ سَيَكُونُ ذَلِكَ أَقْوَى لَهُ.

أيضًا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ إِمَامِهِمْ، فَإِنَّهُ إِذَا أَحْسَنَ الْحَدِيثَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَرُبَّمَا هُوَ الَّذِي كَفَلَ لَهُ الْقَوْلَ وَالْدُّخُولَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَنْفَع.

• ومن أكثر ما يكونُ به سبب الإشكال في أحوال المدعوين: أَنَّ بَعْضَ الطَّلَبَةِ وَالِدُّعَاءِ لَا يَعْرِفُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَّا الْإِنْكَارَ، يَقُولُ: هَذَا خَطَأٌ، هَذَا خَطَأٌ، هَذَا كَذَا..! فلو أَنَّهُ عَلَّمَهُمْ وَبَدَأَهُمْ بِالدَّعْوَةِ وَالتَّعْلِيمِ لَمَا احتاجَ إِلَى بَيَانٍ كَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطَاءِ؛ وَلَامْتَثَلُوا ابْتِدَاءً مَا ذَكَرَهُ لَهُمْ، فَكَأَنَّهُ كَالْمُرِّيِّ لَهُمْ، أَوْ كَأَبِيهِمْ، أَوْ كَشَيْخِهِمْ الَّذِي لَا يَعْصُوهُ، وَرُبَّمَا كَانَ كَثِيرٌ مِمَّا يَكُونُ فِيهِ مَفَارِقَةٌ لِلْكَلَامِ اللَّطِيفِ وَالْخُلُقِ الْجَمِيلِ، وَمَا يَحْسَنُ بِالطَّالِبِ فِي اعْتِبَارِ ذِي الشَّيْبَةِ، وَأَوْ ذِي الْكِبَرِ، أَوْ الْقَرَابَةِ، أَوْ الْجِيرَانِ، أَوْ مَجْمُوعِ النَّاسِ، فَإِذَا اسْتَجْمَعَ الْإِنْسَانُ ذَلِكَ فَلَا إِخَالَهُ إِلَّا - بِإِذْنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا- لَهُ قَبُولٌ، وَلَهُ أَثَرٌ، وَإِنْ كَانَ ثَمَّ امْتِنَاعٌ أَوْ مَرَاجَعَةٌ فَإِنَّهَا سَتَكُونُ بِطَرِيقَةٍ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْأَخْذِ وَالرَّدِّ، وَعَدَمِ الاسْتِعْجَالِ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَجَّى الْمَوْضُوعُ أَوْ يُؤَجَّلَ إِلَى وَقْتٍ لَاحِقٍ، فَيُحَدِّثُهُمْ وَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِقَبُولِهِمْ.

• لا تترك الأمر حتى يقع فتذكره، خاصَّةً أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَقَعُ، لِأَنَّ النُّفُوسَ فِي وَقْتِ تَعَاظِيهَا لِذَلِكَ الْأَمْرِ تَكُونُ أَكْثَرَ إِقْبَالًا عَلَيْهِ وَامْتِنَاعًا مِنْ ضِدِّهِ، سَوَاءَ كَانَ ذَلِكَ فِي خَطَأٍ إِذَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُحَدَّثٍ أَوْ بَدْعَةٍ، أَوْ فِعْلٍ مُحَرَّمٍ، فَلَوْ جِئْتَ إِلَى شَخْصٍ وَقُلْتَ لَهُ: الزَّنا مُحَرَّمٌ، وَبَيَّنَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَذَا وَكَذَا، وَبَيَّنْتَ لَهُ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْوَعِيدِ؛ لَرُبَّمَا قَبِلَ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مَمَّنْ يَتَعَاظَى ذَلِكَ، لَكِنْ لَوْ جِئْتَ إِلَى زَانٍ حَالِ زَنَاهُ وَتَقُولُ: لَا تَزِنْ، الزَّنا حَرَامٌ! فَهَذَا طَبْعًا قَدْ يَكُونُ وَاجِبًا فِي وَقْتِهِ، لَكِنَّا نَقُولُ: إِذَا أَمَكْنَ أَنْ تُعْلِمَهُ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ أَقْبَلَ لَهُ، فَإِنَّ قَبُولَ هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُهُ وَهُوَ مُسْتَمِعٌ إِلَيْكَ وَمَنْصَتٌ لَكَ؛ سَيَكُونُ أَكْثَرَ قَبُولًا وَأَسْرَعَ إِمْتِثَالًا مِنْهُ إِذَا مَا كَانَ عَلَى ذَلِكَ الْخَطَأِ وَتَعَاظَى لَتِلْكَ الْمَعْصِيَةِ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْ حَالِ الْمَدْعُوِّ أَنَّهُ تَعَاظَى ذَلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَكُونُ حَالُ تَعَاظِيهِ؛ بَلْ يَسْبِقُهُ حَتَّى يَمْنَعَ حَصُولَهُ، وَحَتَّى يَكُونَ أَقْبَلَ لِقَبُولِهِ، وَالْإِمْتِثَالِ لَهُ.

**؟ حديث المسيء في صلاته: إنسان لا يحسن يُصَلِّي. ما معنى ذلك؟**

• معنى ذلك أَنَّ صَلَاتَهُ كَانَتْ بَاطِلَةً، يَدْخُلُ وَالنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- جَالِسٌ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَيُصَلِّي ذَلِكَ الرَّجُلُ صَلَاةً يَسْتَعْجِلُ فِيهَا، فَيَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَيَسَلِّمُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» ، ثُمَّ يَعُودُ الثَّانِيَةَ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ، حَتَّى قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، فَعَلِمَنِي؛ فَلَمَّا تَهَيَّأَتِ النَّفْسُ لِقَبُولِ هَذَا عِلْمِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ،

ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»<sup>١٠٤</sup>، الحديث.

• تأمل حال النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مثل هذا، كيف لم يعنفه، لم يقل: كيف أنت تصلي! أنت الآن كذا أو كذا!

لا، مَنْ كَانَ عَلَى خَطَأٍ فَيُعَلِّمُ، وَمَنْ كَانَ عَلَى جَهَالَةٍ فَتُفِّقَ عَنْهُ، وَهَكَذَا مِمَّا يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَسْتَحْضِرَهُ.

• والأحاديثُ كثيرة، وأحوال النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في ذلك متنوِّعة، والنَّاسُ بَيْنَ طَرَفِي نَقِيضٍ: ✓ منهم مَنْ يَأْتِي بِالْأَمْرِ عَلَى أَيِّ وَجْهِ.

✓ ومنهم مَنْ يَسْتَأْنِي بِالنَّاسِ حَتَّى يَفْعَلُوا كُلَّ مَنْكَرٍ، وَلَا يَفْعَلُ شَيْئًا.

✓ الْمُؤَفَّقُ لَا ذَا وَلَا ذَاكَ.

والْحَقُّ بَيْنَ هَذَيْنِ، أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ الْهَدْيَ وَالصَّوَابَ، وَيُدْعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَالْهَدْيِ وَالتَّوْحِيدِ، وَإِلَى فَرَائِضِ الشَّرِيعَةِ وَأَوَامِرِهَا، وَيُنْهَوْنَ عَنِ النَّوَاهِي وَمَكْرُوهَاتِهَا، لَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ مَعَ اعْتِبَارٍ مَا يَحْتَفُّ بِهِ، وَالتَّنْظُرُ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ فِي قَبُولِهِ، وَيَلْتَمِسُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَنَاسَبُ حَالَ الْمَدْعُوِّ، إِنْ احتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ اسْتَدَلَّ، وَإِنْ احتَاجَ إِلَى تَرْغِيبٍ رَغَّبَ، وَإِنْ احتَاجَ إِلَى ذَا أَوْ ذَاكَ فَعَلَّ، فَيَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْفَعَ لَهُ، إِنْ تَمَكَّنَ الطَّالِبُ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ فِي دَعْوَتِهِ مِنَ الْقَبُولِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ.

وصلَّى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



<sup>١٠٤</sup> صحيح البخاري (718)، صحيح مسلم (607).



روى مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(( من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ))

## الدرس السابع



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- الدَّعْوَةُ إلى الله هي دعوةٌ إلى كتابِ الله -جلَّ وعلا- ودعوةٌ إلى سُنَّةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فكان ذلك دعوة إلى جميع ما جاء به الكتابُ والسُّنَّةُ وثَبَّتَ عن علماء الأُمَّة بما استنبطوه من دلائل النُّصوص، واحتجاج بما في النُّصوص والآثار عن نبيِّنا -صلى الله عليه وسلم- فكلُّ ذلك مُتعلِّقٌ بالدَّعْوَةِ إلى الله -سبحانه وتعالى- فكل داعيةٍ إلى الله إذا دعا إلى مسألة يسيرة أو كبيرة فهو داعٍ إلى الله، ولذلك قال النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>١٠٥</sup>، أيًّا كان، إن كان يتعلَّقُ بأمر الصَّلَاة، أو كان يتعلَّقُ ببعض الآداب، أو يأتي على بعض المنهيات، فالكلُّ في ذلك محلٌّ للدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعلا.
  - فإنَّ هذا من أعظم ما يُحتاج إليه حتى يأتي الإنسانُ بالأولى فالأولى وبالأهمِّ فالمهمِّ، وحتى يكون -بإذن الله جلَّ وعلا- سألماً من بعض المناهج الدَّعْوِيَّة التي ربَّما تكون مأخُذها انتقاء، أو مسالك مخصوصة، أو أشياء محدَّدة عليها يدورون وبها يدعون، ولا يتجاوزون ذلك.
  - فهذا الأمر إذا أردنا أن نتكلَّم عليه فيما ينبغي للدَّاعية في الدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعلا- في البداية به؛ فهذا أيضاً مأخُودٌ ممَّا جاءت به دلائل النُّصوص من كتابِ الله، وسُنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم.
- ◀ من أشهر ما يُقال في هذا ما جاء في حديث ابن عباس في بَعْثِ معاذٍ إلى اليمن، فإنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ

<sup>١٠٥</sup> صحيح البخاري (3226).

اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَاءِهِمْ وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ»<sup>١٠٦</sup>، إلى آخر ما جاء في الحديث.

◀ حديث ضمامة بن ثعلبة<sup>١٠٧</sup>، وحديث جبريل لما جاء إلى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- لما قال: مَا الْإِسْلَامُ؟ قال: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ»<sup>١٠٨</sup>، طبعًا ليس هذا الإسلام كله، لكن لما كانت هذه مَبَانِيهِ وشَعَائِرُهُ، وما يقوم عليه هذا الدِّين وهذه المِلَّة؛ أشار إليها النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- وكانت أركانها التي يُعَيَّرُ عنها أهلُ الإسلام بـ "أركان الإسلام". فهذا هو أوَّل وأوَّل وأوجبُّ وأسبقُ ما تكونُ الدَّعْوَةُ إليه للدَّاعِيَةِ إلى الله -سبحانه وتعالى.

◀ ومثُل ذلك جاءت أحاديث دالَّة على هذا المعنى لما جاء في حديث شُعْبٍ الْإِيمَانِ «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ، بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»<sup>١٠٩</sup>، لما جعل شعب الإيمان متنوِّعة دلَّ على أنَّها داخله في الدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعلا- في جملتها. ولما قال: «أَفْضَلُهَا» دلَّ على أنَّ الأفضلَ هو أوَّل بالدَّعْوَةِ والدَّعَايَةِ والأمرِ والحثِّ، والهداية إليه.

◀ وهذا أيضًا مأخوذٌ ممَّا جاء في كتاب الله -جلَّ وعلا- تكاثرت بذلك النُّصوص، وتتابعَت في ذلك الدَّلَالَتِ، كما في قول الله -جلَّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، إذن هي دعوة الأنبياء جميعًا، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 65]، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 73]، وجاء ذلك في قصَّة شعيب، وفي قصَّة لوط، وفي كلِّ مَنْ بعثه الله -جلَّ وعلا- فأوَّل دعوته أن يدعو إلى الله، وإلى توحيد الله، وإلى تحقيق العبوديَّة لله -سبحانه وتعالى- أليس كذلك؟! لا يُخْتَلَفُ في ذلك البتَّة، أقلُّ النَّاسِ علمًا كأكثرهم علمًا في أنَّ هذه المسألة مُتَحَرِّرة ظاهرةٌ بيَّنة.

• ولما كان تحقيق التَّوْحِيد هو الذي لأجله بُعثت الرُّسل، وأنزلت الكتب، ولأجله أقيمت الجَنَّة، وجُعِلَت النَّار؛ كما قال الله -جلَّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ

<sup>١٠٦</sup> مسند أحمد (1995).

<sup>١٠٧</sup> عَنْ شَرِيكَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: "بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ، فَأَتَانَاهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَكِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَكِيُّ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَدَّ أَجْبَبْتُكَ». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمَشَدَّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَلَا تَجِدُ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ؟ فَقَالَ: «سَلْ عَمَّا يَدَا لَكَ» فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أُنَشِّدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أُنَشِّدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». قَالَ: أُنَشِّدُكَ بِاللَّهِ، اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَانِنَا فَتَقْسِمَ بِهَا عَلَى فُقَرَانِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ». فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامٌ بَيْنَ ثُعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدٍ وَبَيْنَ بَكْرِ»<sup>١٠٨</sup>.

<sup>١٠٨</sup> صحيح البخاري (49).

<sup>١٠٩</sup> صحيح مسلم (54).

- يُطْعَمُونَ** [الذاريات 56 - 57]، الله -جلَّ وعلا- ليس بمحتاجٍ إلى أحد، ولا مُفْتَقِرٍ إلى خَلْقٍ مِنْ خَلْقِهِ، ولكن إنَّما أوجدهم لحكمةٍ عظيمةٍ، ولغايةٍ حميدةٍ؛ وهي عبادة الله -جلَّ وعلا- وتحقيق العبودية له.
- هذا الأمر لما كان بهذه المثابة كان هذا هو حالُ نبيِّنا -صلى الله عليه وسلم- ثلاثة عشر سنة مدار دعوته وهجَّيراه، ومبدأ كلامه ومنتهاه في ذلك كلِّه؛ هو في الدَّعوة إلى التَّوحيد، والدَّعوة إلى عبادة الله -سبحانه وتعالى.
- لما كانت الدَّعوة المكيَّة مع ما لاقى فيها من البلاء والمحنة؛ فإنَّه لم ينفك من الدَّعوة إلى تحقيق العبودية لله -جلَّ وعلا- والكفر بما سواه من المعبودات والأصنام والأوثان وغيرها ممَّا أَلْفَتَهُ العرب ودخلَ إليهم عن طريق عمرو بن لُحَيّ الخزاعي، وأيضًا ما كان من دين النَّصارى واليهود وسواها من الأديان، ولذلك قال النَّبي -صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»<sup>١١٠</sup>، روى ذلك مسلم في صحيحه.
  - هذا الأمر يُبَيِّنُ لك أنَّ ما يجب على الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أن يُعنى بتحقيق التَّوحيد لله -سبحانه وتعالى.
  - كثيرًا من الناس ممَّن يُعنون بالدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- ربَّما دخلوا في تفاصيلٍ لبعض المسائل أو في أحكام من أحكام السُّنن أو المُستَحَبَّات، أو ركَّزوا على مسائل لها في الدِّين أهميَّة؛ لكنَّها ليست بأصلٍ يُبنى عليه الشَّرْع، وليست ممَّا يخرج بها الإنسان من الإسلام، أو يُفارق الإيمان، ويوافق أهل الشُّرك والأوثان. فإذا كان الأمر كذلك فلا بدَّ أن يعلم الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أهميَّة ذلك وأن يدعو إليه.
  - الدَّعوة إلى التَّوحيد هي الدَّعوة إلى "لا إله إلا الله" إلى معناها، إلى أركانها، إلى شُرُوطها ومُقْتَضِيَّاتها، وما يكون من نَوَاقِضِها، وما يكون فيها ممَّا قد يُؤثِّر فيها أو يَقْدَحُ في كمالها.
  - وهذا من أعظم ما تُعَمِّر به القلوب، وتُعَمِّر به البيوت، وتُعَمِّر به المجالس، وتُعَمِّر به الحَلَق والمحاضرات.
  - أنَّنا إذا قلنا أنَّ هذا هو الأهم؛ فإنَّ ذلك لا يعني أنَّ الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- إذا دعا إلى هذا أن يكون بمنأى عمَّا يحتاجه النَّاس من أمورِ الآداب أو بعضِ الواجبات أو نحوها؛ بل الدَّعوة إلى هذا إذا ترتَّب عليها ألا يكون تحقيق لهذا المعنى إلا بذلك فهو أيضًا مأمور به أصالةً وأوَّلًا، ولهذا جاء في حديث البخاري لما ذكرت عائشة "إنَّما نَزَلَ أولُ ما نَزَلَ منه سورةٌ مِنَ الْمُفْصَلِ، فيها ذكرُ الجنة والنار، حتى إذا ثاب النَّاسُ -أي: رجعت قلوبهم- إلى الإسلام نَزَلَ الحلال والحرام"<sup>١١١</sup> وهذا من فقهها -رضي الله عنها وأرضاها- وتقول: "ولو نَزَلَ أولُ شيءٍ: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندعُ الخمر أبدًا، ولو نَزَلَ: لا تزنوا، لقالوا: لا ندعُ الزنا أبدًا"<sup>١١٢</sup>، لكن لما رَقَّت القلوب، وظهرَ صَدُوقُها، وتمكَّنَ الإيمانُ منها، واستجابت لنداء ربِّها؛ تعلَّقت بها الأحكام، وجاءت إليها النُّصوص.
  - مع ما يكون من الدَّعوة إلى تحقيق التَّوحيد يُدعى إلى ما يكون فيه ترقيق القلب، وإصلاح النَّفس، والاستجابة لنداء الله، إلى غير ذلك من الأمور.

<sup>١١٠</sup> صحيح مسلم (222).

<sup>١١١</sup> صحيح البخاري (4993).

- وأيضًا لا يعني ذلك الاقتصارُ عليها، فإذا جاءت مناسبةٌ أو عَنَّ سَبَبٌ أو حاجةٌ إلى شيءٍ من هذا؛ فإنه أيضًا يكون داخلًا في أمورِ الإسلامِ والدَّعوةِ إليه، والنَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- قال: **«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»<sup>١١٢</sup>**، وهو حديث حسن مشهور عند أهل العلم.

○ والمقصودُ بذلك: أَنَّ هذا الشَّرْعَ كما أَنَّهُ جاءَ بتحقيقِ التَّوْحِيدِ؛ فَإِنَّهُ جاءَ بِإِصْلَاحِ الْأَخْلَاقِ وَتَكْمِيلِهَا وترميمِ مَا أَلْفَهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ عَادَاتٍ وَعَوَائِدَ قَبْلِيَّةٍ كَانَتْ فِيهَا مِنَ النَّخْوَةِ وَمِنَ الشَّهَامَةِ وَالكَرَمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

- إذن الأمرُ الأوَّلُ: هو الدَّعوةُ إلى توحيدِ الله -جلَّ وعَلا. إن قال قائلٌ: إِنَّ هذا في حديثٍ معاذ -هو حديث ابن عباس ولكن يُشتهرُ أَنَّهُ حديث معاذ لأنَّ كلام النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم كان موجَّهًا فيه معاذًا إلى اليمين- فجاء في الحديث: **«أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ»**، قد يقول قائل: هذا لأهلِ الكتاب. فما بالُ المسلمين؟ المسلمون لا يحتاجون إلى ذلك، لأنَّهم قد حصلَ منهم التَّوْحِيدُ! فنقول: هذا سؤالٌ صحيحٌ، فإذا كَانَ مُوجِّدًا وَاحْتِاجَ إِلَى مَا يَكُونُ بِهِ تَكْمِيلُ تَوْحِيدِهِ، أَو التَّأَكِيدُ عَلَى تَحْقِيقِهِ، أَوْ يَكُونُ فِيهِ اسْتِدْرَاكٌ لِبَعْضِ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَخْطَاءِ أَوِ الْأَغْلَاطِ، أَوْ مِمَّا يُمَكِّنُ حُصُولَ الْقَدَحِ فِيهِ؛ فَإِنَّهُ يَتَوَجَّهُ أَصَالَةً وَأَوَّلًا، وَهُوَ دَاخِلٌ سِوَاءِ قَلْنَا الدَّعوةُ إِلَى التَّوْحِيدِ أَوَّلًا مِنْ جِهَةِ الْأَصْلِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ الْحَاجَةِ لِتَكْمِيلِ مَا نَقَصَ، أَو لِلتَّأَكِيدِ عَلَى مَا حَصَلَ، وَزِيَادَةِ التَّمَسُّكِ وَالتَّشَبُّثِ بِهَذَا الْأَمْرِ.
- وهذا أمرٌ عظيم! فلا يعرف كثير من النَّاسِ حقيقةَ التَّوْحِيدِ، فالتَّوْحِيدُ لَيْسَتْ كَلِمَةٌ تُقَالُ، لَيْسَتْ لَفْظًا يُلْفَظُ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَلَكِنَّهُ عَقِيدَةٌ وَدِينٌ يُشْرَقُ بِهِ الْقَلْبُ، وَتُشْرَقُ بِهِ النَّفْسُ، وَيَصْلُحُ بِهِ الْحَالُ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ -جلَّ وعَلا- في كتاب: **﴿أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾** [الأنعام: 122]، إِنَّمَا هُوَ نُورُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ، نُورُ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ وَمَا يَكُونُ مِنَ الْخَيْرِ لِلْعِبَادِ وَلِلْأَنَامِ.
- وكذلك قال الله -جلَّ وعَلا- في كتابه: **﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** [الشورى: 52]، وَأَوَّلُ وَأَعْظَمُ وَأَجَلُّ مَا فِي كِتَابِهِ -جلَّ وعَلا- هُوَ الدَّعوةُ إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَأَوَّلُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ هِيَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ وَفِيهَا **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (2) **﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** (3) **﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾** (4) **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: فِيهَا أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةُ:
  - (١) توحيدِ الرُّبُوبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.
  - (٢) توحيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي قَوْلِهِ: **﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**.
  - (٣) توحيدِ الْإِلَهِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**.
 وَذَلِكَ إِنَّمَا لِيَكُونَ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ سَمْعَكَ هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- وأيضًا مع قولنا بحصولِ التَّوْحِيدِ تَحْقِيقَهُ وَتَقْرِيرَهُ فَلَا يَنْفَكُ النَّاسُ مِنْ إِعَادَتِهِ وَتَكَرُّرِهِ، فَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ -جلَّ وعَلا- فِيهِ إِعَادَةٌ لِكَثِيرٍ مِمَّا جَاءَ بِهِ، فَمَا جَاءَ فِي أَوَّلِهِ أُعِيدَ فِي أَوْسَطِهِ، وَمَا جَاءَ فِي أَوْسَطِهِ أُعِيدَ فِي آخِرِهِ، وَمَا ذُكِرَ مُفَصَّلًا ذُكِرَ مُجْمَلًا فِي أُخْرَى؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ بِالْجَدِيدِ، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّأَكِيدِ، وَالتَّأَكِيدُ يَتَأْتَى بِالتَّكَرُّارِ،

<sup>١١٢</sup> سنن البيهقي (19135).



فبينَ القِيَنَةِ والقِيَنَةِ يُتَفَقَدُ النَّاسُ في ذلك، أو يُنْظَرُ إِلَيْهِمْ، والنَّاسُ اليَوْمَ أحوَجُ ما يكونوا إلى تحقيقِ التَّوْحِيدِ، فأناسٌ جهلوا كثيراً من مسائل دينهم حتتوجَّهوا إلى غيرِ الله -جلَّ وعلا- في دعاءٍ أو في ذبيح، أو في حوائج، أو في بلايا، أو في غير ذلك.

- والنَّاسُ أيضاً لحقَّ بهم من الماديَّات، ومن شُبهِ أهل الإلحاد، ومن غير ذلك؛ ما يزيد من أهميَّة التَّأْكِيدِ على التَّوْحِيدِ، سواء في ذلك توحيد الإلهيَّة الذي كان سبباً من أكبر الأسباب في حصول الزَّاعات والإشكالات وما حصلَ فيه القدح، أو ما يكون من توحيد الرُّبوبيَّة وإن كان مستقرّاً على مرِّ الأزمان؛ لكن في هذا الوقت لما كُتِرَ الإلحاد وقام سوقه ووُجدَ مَنْ يُروِجُ له فإنَّ التَّأْكِيدَ على عظمة الله -جلَّ وعلا- والحديث عن مثل ذلك هو من أعظم ما يكون من الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- ولذلك قال الله -سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: 67]. ماذا تستفيدوا من هذه الآية؟

- لما ذكرَ الله -عزَّ وجلَّ- عَظَمَتَهُ وأفاضَ فيها، قال في آخر الآية: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّه لا تحصل الهداية إلى التَّوْحِيدِ وتركِ الإِشْرَاقِ إلا بما يكون من ملى القلب من تعظيم الله -جلَّ وعلا- وتحقيق هذه المعاني في العلم لما لله من الأسماء والصفات، وما انفرد به من الخلق والإيجاد والرزق، أو غير ذلك ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ \* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ \* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَرُونَ﴾ [الطور 35-37]، آيات عظيمة تتحرَّك لها القلوب، تندهده لها الجبال، يقول الله -جلَّ وعلا: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ (20) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك 20، 21]، لا أحد يرزق، ولا أحد يعطي، ولا أحد ينصر إلا الله -سبحانه وتعالى- فكان ذلك من أعظم ما يكون به من التَّأْكِيدِ على هذا الأمر والعلم به وتكراره.

○ **فائدة:** حينما نقول: "كِتَابِيًّا" لا نقصد أنَّه قسيم للمُشْرِكِ -يعني: ليس بمُشْرِكِ- لكن نقصد أنَّ إِشْرَاقَهُ بكونه يهودياً أو نصرانياً ولم يكن مسلماً.

- أيضاً دعوة أهل الإسلام إلى التَّوْحِيدِ تكميلاً وتقريراً وتأكيداً أيضاً هي من أهمِّ المهمَّات، ولما جرى ما حصل في هذه الأوقات من النَّقصِ أو التَّقْصِيرِ، أو حصول كثيرٍ من الخرافات والبدع، وما فيه قدح في جناب الرُّبوبيَّة أو الإلهيَّة أو الأسماء والصفات أيضاً احتيج إلى التَّأْكِيدِ على تحقيقِ التَّوْحِيدِ، وعبادة الله -سبحانه وتعالى- وتكميلها والإتيان على تمامها.
- إذا تقرَّرَ ذلك فإنَّه ليس شيءٌ بعدَ هذا الأمرِ إلا الأمرُ بشعائر الإسلام العظام التي تكون ركائزه وأركانه كما قلنا في حديث أبي هريرة، وفي حديث ابن عمر؛ لما قالَ ذلك الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم: ذُلِّني عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ؟ قال: «تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»، هذا أوَّل شيء كما قلنا. ثم قال: «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ الْمُكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ»<sup>١١٣</sup>.

<sup>١١٣</sup> صحيح البخاري (1315).

- وحديث ضمام بن ثعلبة هو حديث عظيم، لما قال: "فبألّذي خلق السّماء وخلق الأرض ونصّب هذه الجبال، الله أرسلك؟ قال: **«نَعَمْ»**. إلى أن قال: فبم أمرك؟ فذكر له التّوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله -الحديث المعروف- إلى آخر أركان الإسلام الخمسة. قال: "والّذي بعثك بالحقّ، لا أزيدُ عليهنّ ولا أنقصُ منهنّ". فقال النّبّي -صلى الله عليه وسلم: **«لَئِنْ صَدَقَ لَبَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ»**<sup>١١٤</sup>، ففي هذا الحديث إشارة إلى أن مدار الفلاح والنّجاة ودخول الجنّة والنّجاة من النّار هو بالدّعوة إلى هذه الأركان الخمسة.
- ولأجل ذلك يُقرّر أهل العلم المعترفون أن العلم قسمان:
  - ◀ علم فرض عين.
  - ◀ علم فرض كفاية.
  - فرض العين: هو ما لا يستغني عنه المسلم.
  - فرض الكفاية: هو سائر الأحكام.
- فلأجل ذلك كان على الدّاعيّة أن يبدأ بما يكون فرض عين، يعني متعيّن على كلّ واحدٍ من أفراد المسلمين، كان على رأس جبل، أو في قعر وادٍ أو في قرية، أو في غابة، أو في بلد مسلمين، أو في بلد الكفار: لا ينفك من الحاجة إلى العلم بذلك، وتتبع المسائل حتى يعبد الله -جلّ وعلا- على بصيرة، فلمّا كان هذا فرض عين كان أولى ما يقوم به الدّاعيّة إلى الله -جلّ وعلا- أن يُعلّم النّاس ذلك لتبرأ ذمهم، ويؤدّون حقّ ربهم. ومن ذلك الأركان الخمسة، طبعاً الصّلاة هي سابقة لكلّ شيء؛ لأنّها لا تسقط في حال حضر ولا سفر، ولا سلم، ولا حرب، ولا صحّة، ولا مرض، وهذا بابٌ معروف، ولأجل ذلك كانت هي أولى ما يكون من كلّ وجه.
- الزّكاة والصّيام والحجّ بحسب الحال، فإذا كان الحال حال أن يكونوا من أهل الزّكاة الذين أفاض الله عليهم بالأموال سواء كان في الخارج من السّبيل، أو كان في النّقدين أو الثّمار، أو في عروض التجارة، أو احتاجوا إلى ذلك كلّ، أو كان ذلك ممّا يتعلّق بزكاة الفطر، فيعلمهم بحسب حالهم وبحسب حاجتهم، وبحسب الوقت في ذلك، فإذا كان في بلدٍ كلها فقراء، وكلهم ليس عليهم من الزّكاة من شيء، فلا شك أن هذا لا يكون عليهم فرض عين، وإن كان لا يتصوّر أنّه لا توجد بلد مهما كانت لا يكون أحد منهم قادراً على بذل الزّكاة ومتحقّقة في حقّه الشّروط ومكتملة.
- صيام رمضان أيضاً يجب عند قرب دخوله، لأنّه إنّما يجب إذا دخل الشّهر، فإذا كان الوقت قبل ذلك بوقتٍ طويلٍ فقد لا يحتاج إليه، لكن إذا كان هذا على سبيل التّأسي وكان فُسحة في الكلام؛ فإذا كان فيه فسحة في الوقت فالحمد لله، وأمّا إذا كان فيه تراحمات فما يحتاجه النّاس في آنهم حتى ولو كان أقلّ منزلة أو درجة فإنّه قد يترقى ليكون أسبق في الدّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى.
- فعلى سبيل المثال: قبل عشرين الحجة، وإن كانت عشرين الحجة فيها مسائل كثيرة ليست مما يتعلّق الحكم فيها بوجوب ولا بلزوم، وأن يتحدّث عن شهر رمضان، فنقول في مثل العشر: الحديث عن هذه

<sup>١١٤</sup> صحيح مسلم (12).

الفضائل والحث عليها، وعن بعض ما يُشرع فيها ونحو ذلك ربّما كان مناسبا، ولا يكون ثمّ تراحم، ويترقّى ذلك لمناسبة الوقت.

□ **الحجّ** كذلك، فمن استعدّ للحجّ وأراد النُفرة إليه، فلا شكّ أنّه ممّا يتعلّق به العلم من مثل ذلك من

مسائله وأحكامه وما يؤدّيه على التّمام والكمال مستنّنا بسنة النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- القائل

«لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكُكُمْ»<sup>١١٥</sup>، يكون في هذا ظاهرٌ في التّعين واللّزوم.

○ **الأصل هو البداء بتوحيد الله، ثم الشّعائر العظام، ثم الأهم فالأهم،** وهذه الأهميّة إمّا أن تكون

درجة من الفرائض المتقرّرة، والواجبات المتعيّنة، وإمّا أن يكون من المنهيّات والمحرمّات وكبائر الذّنوب

قبل صغائرها، ومثل هذه الأمور في الجملة لا يكون بينها تراحم، فيبحث بما يكون أقرب إلى حاجتهم،

وبما تعلّق بوقتهم.

● فعلى سبيل المثال: إذا كان بلد يُشتهر فيها -نسأل الله السّلامة والعافية- كثرة مُواقعة الرّثا فإنّ الحديث عن

الرّثا في مثل هذه الحال أولى من الحديث عن بعض الأمور الأخرى.

✓ وإذا كان بلد أخرى يشتهر فيها الرّثا والتّعاملات المحرّمة، والوقوع في الغشّ والمقامرة؛ كان البداء

بذلك أولى.

✓ وإذا وُجد الأمران يُختار لكلّ واحدٍ من هذه الأمور ما يكون أنسب لوقته، فابتداء مثلاً موسم البيع

والشّراء يكون الحديث عن البيوعات وأحكامها، وما يحرم فيها وما يمنع فيه.

✓ وأيضاً إذا كان النّاس في فُسحة أو نُزهة أو إجازة أو نحوها، فإنّ النّفوس تنشوّف إلى الشّهوات، وقد

تكون الشّهوات المحرّمة، فيكون الحديث عن مثل ذلك.

● فهذا يجب على الدّاعيّة إلى الله -جلّ وعلا- أن يُعنى بما يكون في دعوته ممّا يتعيّن عليه البداء به ابتداءً

بتوحيد الله، ثم ما يتبع ذلك من الشّعائر العظام، وما يلحق بهما، وكذلك كانت سنة النّبيّ -صلى الله عليه

وسلم- ثم النّظر أيضاً بحسب الحال، ولذلك نجد في حال النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- أنّه ربما وُجد النّهي عن

أمر كان صغيراً لمناسبة سابقة للكلام على أمر عظيم تأخّر أيضاً لسببٍ من مثل تلك الأسباب.

● فإذا استشعر الدّاعيّة ذلك، وأنّه يجب أن يأتي على الأمور كلها، وأنّ الأمر إنّما في التّقدّم والتّأخّر ليس راجعاً

إلى أنّه يأخذ شيئاً ويترك شيئاً، أو يأمر بشيءٍ وينسى آخرًا كما هو عند بعض من كثّر عندهم الجهل، فيجعلون

دعوتهم مرتكزة على معالمٍ معيّنة لا يتجاوزونها؛ فهذا لا شكّ أنّه مخالف لما جاءت به السّنن، ودلّت عليه

الدّلائل والنّصوص، وما كانت عليه سيرة نبيّنا -صلى الله عليه وسلم-.

● هنا يلحظ -كما قلت لكم- خللٌ، مبدأ هذا الخلل في أحيانٍ قليلة هو الجهل، لكن الأحيان الأكثر يكون جهلاً

مركبٌ من بعض ما يتلقّاه بعض الفضلاء من تجمّعاتٍ أو مناهجٍ في الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- لجماعات أو

نحوها، بعضهم يرى مثلاً- أنّ الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- تكون في المأمورات لا في المنهيّات، ولذلك لا يُنكر منكرًا

وإن عظم، ويتأوّلون ذلك إمّا لأنّهم إذا فعلوا المعروف فسينتهون عن المنكر؛ وكل ذلك ليس بصحيح، وهذا

<sup>١١٥</sup> صحيح الجامع (5061).

لم تأت به السُّنَّة، ويُعرَف فيه سلفي هذه الأُمَّة، ولم يكن عليه طريقة أهل العلم الرَّاسخين، فالهَدْي والحقُّ إنّما هو أمرٌ ونهيٌّ، حتّى وزجرٌ، دعوةٌ إلى الخير ومنعٌ من ضده، وبذلك يكتمل العقد، ويتمُّ الأمر.

- كذلك طوائف أخرى إنّما تنصبُّ دعوتها إلى الأمور التَّربويّة، ويجدون في ذلك غنيّةً أو كفايةً لدعوتهم، وعلى ذلك يبدؤون وينتهون، وربّما دخلوا في تفاصيلٍ وأشياء كثيرة، وهي ليست من الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- في شيء، من جهة أنّها ليست على منهاج النُّبوة، وإن كان ما يأمرّون به ويدعون إليه صحيحًا؛ لكنهم تركوا ما هو الأوجب عليهم في أخذ الدَّعوة إلى الله إلى الإسلام بجملته، وإلى الدِّين كلّه، فنبغي أن يكون هذا ظاهرًا عندهم، نحن ندعوا إلى الأوامر، وكذلك ندعوا إلى ترك التَّواهي، وندعوا إلى الأمور التَّربويّة، وما يكون فيه ارتقاء بالنَّاس في أخلاقهم، وفي صفاتهم، وفي تعاملاتهم، وفي حسن معشرهم؛ إن كان ذلك لزوجة أو لأخ أو لقریب، أو لجارٍ، أو لشريكٍ، أو لغيرهم، لكن لا تكون دعوتنا مقتصرة على ذلك، فهذا كله من عدم العلم بأولى كان ينبغي أن يدعى إليه أو البداية بالأهمّ فالأهمّ، والمنهاج النَّبويّ في الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- فینبغي للدَّعیة إلى الله -جلّ وعلا- أن يكون عنده من العلم بتفاصيل ما يحتاج إليه النَّاس، وأن يستزید وأن یتروّد بما یعلّق بهذه المسائل على وجهٍ أخص.

ومن جهة ثانية: لابدّ أن تكون عنده من الكفاءة ومن الحكمة في الدَّعوة إلى هذه الأمور بوجهٍ أخص، لأنَّ بقدر ما تنتشر عندهم مخالفة بقدر ما يكون عندهم من التَّعصُّب عليها، وعدم الرِّضا بتركها، وربّما تكون مألوفة لهم من الآباء والأجداد، وربّما يجدون أنّ ذلك أعظم عليهم من أبنائهم وأمهاتهم.

- فلأجل ذلك ينبغي للدَّاعية إلى الله -جلّ وعلا- أن يؤتی العلم بهذه الأمور، والحكمة في طريقة دعوتهم إليها، وحبّهم عليها، فإن كان شُبّهةً أزالها، وإن كان ثَمًّا ما بديل عن ذلك دلّ عليه، وإن كان ثَمًّا طريقًا كإمام مسجد، فيكون توجيهاً عن طريق إمام المسجد، وإن كان ذلك من عدم مواجهم في أوّل وهلة، بل التَّقديم لذلك بمقدِّمات، بتعظيم النَّبيّ صلى الله عليه وسلم- وتعظيم الاتِّباع كسرعة استجابة أصحاب النَّبيّ -صلى الله عليه وسلم- وما يكون من عذر المخالف حال جهالته، وأنّه لا يُعذر حال تعلُّمه؛ فهذا يُرِيّ نفوسهم إلى إمكان القبول، وبدل من أن تكون كثيرٌ من هذه الأمور محلَّ إشكال، فليس بالسهولة أنالدَّاعية إلى الله -جلّ وعلا- خاصّة الذي هو حديث عهد بالدَّعوة إلى الله -جلّ وعلا- أن يُحسن فيها، لكن كما تعلَّم العلم يجب عليه أن يتعلَّم، وأن ينظر إلى من حوله في الطريقة المثلى للمعالجة، وأن يعرض ذلك على العلماء، لأنَّ الاجتهادات المنطلقة التي لا يُرجع فيها إلى أهل العلم ربّما يكون فيها دعوة إلى أمرٍ ليس بصحيح، أو أن يكتنف ذلك من الخلل، فيجب أيضًا إذا كان له شيء من النُّظر أن يعرضه على العلماء حتى يستزید في ذلك الخير والهدى.
- من أهمِّ الأمور أو أكثرها، وهي التي أدت إلى ترك ما يُبدأ فيه بالدَّعوة إلى الله -جلّ وعلا- من التَّوحيد والإيمان وركائز الإسلام ونحو ذلك؛ أنّ بعض الجماعات حريصة غاية الحرص الانتماء إليهم، ولذا تجد أنّ أهم ما يدعون إليه هو:

الانتماء إليهم، سواء كان ذلك بالانتماء إلى الاسم، أو كان أشد من ذلك وهو الانتماء ببيعة أو غيرها؛ فإذا انتهى إليهم صار عددهم بدل العشرة مائة، أو بدل المائة ألف؛ رضوا بذلك حتى ولو كان من معهم لا يعرف الله ولا يعرف الصَّلَاة، فإنَّ هذا من أعظم ما اجتُرَّ على الدَّعوة إلى الله -جلّ وعلا- حتى وقع بسبب ذلك لغطُّ



كثير، وربما -بإذن الله جل وعلا- سنأتي على جملة مما يتعلّق بهذه المسائل، لكن لا شك أنّ حصول هذه الأمور هي أكبر ما يُسبب الانصراف عن الدّعوة إلى الأهمّ بالدّعوة إلى ما دونه.

● كذلك من الأسباب التي تحول بين الدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- وبين البداية بالأهمّ فالأهمّ هو الجهل، لذا تجد

أنّ بعضهم -وهذا حاصل في هذه الأزمنة المتأخّرة- يحرص على الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- فيندب نفسه ويتصدّى لهذه المهمّة وهو على غير علم، وليس يُحسن هذه الأمور الصّحيحة والأمور العظيمة؛ فيبدأ بأشياء ربّما التقطها من هنا أو هناك، ثمّ جمع إليها ما فيه حقّ وما هو مشوّب أو فيه خلل، وقد يُجعل له قبول فتعجب نفسه بذلك، فيبتلى النّاس بمثل هذا حينما يُقدّم وليس بمقدّم، وحينما يدعو وليس على شيء. لأجل ذلك لا بدّ أن يكون الدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- عارفاً بالأمور ومكمّلاً لها.

● أيضاً إذا قلنا بأهميّة البداية بالأهمّ فالأهمّ فإنّ مثل هذه الأمور إنّما هي اعتبار الأمور بأصلها، لكن قد يكون في بعض الأحوال من البداية بها ما هو باب للدّخول إلى المهمّات، كأن يكون لبعض النّاس مثلاً سيّد مطاع، ولا يردون له قولاً، ولا يتجاوزون أمره ونهيّه، كما يكون ذلك في بعض القبائل، أو بعض الجماعات، فحتى تُبين لهم الحقّ فإنّك قد تحتاج إلى أن تبين أنّه ليس أحدٌ بمعصوم، وإنّما الذي يُتبع اتّباعاً مطلقاً الكتاب والسّنّة، وأنّ كلّ أحدٍ قد يأتي إليه شيء من النّقص أو الخلل، أو الضّعف، أو النسيان، أو نحو ذلك، ويكون هذا بحسب الحال.

○ إذا قلنا البداية بالأهمّ هو هذا؛ فلا يفهم منه أن ذلك هو ما يتكلّم به فقط في كلّ حالٍ وأنّ؛ وإنّما نقصد أنّ هذا هو أصل دعوة الداعي؛ أن يكون إلى مثل هذه الأمور ابتداءً، وأن مثل هذا هو الذي توجه إليه الدّاعية إلى الله -سبحانه وتعالى.

● ولذلك تجدون في بعض المجتمعات لما كانت نهاية الدّعوة إلى -جلّ وعلا- لديهم عبارة عن بعض المظاهر ربّما تجد أنّ له مظهر -سمت، لحية، بعد عن إسبال الإزار- كان ثمّ جهلٌ كبير، فجعلوا لهم أمراء فيأتمرون بأمرهم وينتهون عن نهيم، ثمّ ولغوا في التّكفير، ثم وقعوا في الدّماء، ثمّ حصل بسبب ذلك من الفتنّة العظيمة في هذا الزّمان ما لا يكاد أحد يظنّ أنّ فتنةً ابتلي بها النّاس أكثر من ذلك، حتى فتن النّاس عن دينهم، وتركوا أصل عقيدتهم في بعض الأحوال، وحتى اضطهد الإسلام، وحصل بسبب ذلك بلاء كثير أصله هو الجهل، والدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- على غير سبيل، والظنّ أنّ الدّعوة إلى شعيرة الجهاد سابقة إلى الدّعوة إلى أصل الدين وتكميل الواجبات، أو جعل فلاناً مقدّماً ويؤخذ منه ويُصدّر عنه، لا يُصدّر عن أحدٍ سواه، فأنحرفوا تلك الانحرافات، ولو دخلنا فيما لحقّ بالنّاس من بلاء هذا ومن جراء مثل هذه الانحرافات لنأدينا بالويل والثّبور على الإسلام وأهله في هذا الزّمان، والله المستعان!

● وهنا نقول: يجب أن يُسمّع أنّ من أراد الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- فهو داعٍ إلى الله، وأعظم ما يكون من حال الدّاعية إلى الله أن يُعظّم الله، وأن يُوجّد الله، وأن يُحقّق الدّين، وأن يدعو إلى اتّباع خير المرسلين محمد -عليه الصّلاة والسلام- فكان ذلك هو جماع الأمر وتماّمه، ومن لم يعلم هذا الأصل، ومن لم يعلم هذه

الحقيقة؛ فمهما اشتغل به من الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- ومهما ملئت أوقاته، ومهما كثرتابعوه، ومهما أعجب النّاس به، ومهما تزيّنت به الشّاشات، ومهما حصل له من أثر؛ فإنّ ذلك لا يغني عليه شيئاً، لأنّ الأمر

ليس بظواهر الأمور، ولا بإعجاب الخلق، ولكن بصلاح العمل وتمايمه في أصل الشرع، وكَمَالِهِ عند الله -جلّ وعلا- وعند رسوله -صلى الله عليه وسلم.

• ولأجل ذلك قال الله -سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105]،

وهذه الآية في أصح أقوال أهل العلم وإن كانت شاملة للجميع؛ لكن من جهة الأصل هي كالتهديد لكل من يعمل عملاً على غير هدى، ولذلك كانت هذه من آيات سورة التوبة التي فيها محاسبة وكشف المنافقين وهي كما يُقال "المشفقة"، لأنها كشفتهم وأظهرت ما استكنّ في نفوسهم -نسأل الله السلامة والعافية.

• نقول: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾، وهذا كالتهديد من الله -جلّ وعلا- لمن عمل عملاً على غير سنة أو على غير هدى، وإذا كان ذلك في سائر الخلق فهو أظهر ما يكون وأولى ما يندرج فيه من كان من أهل العلم، ومن تصدى للدعوة، ومن كان هادياً للخلق، ومن كان مُرشداً للعباد، فإنه أولى بالنظر وبالاتحضر لهذه الآية، فإن يتألم الإنسان منها شيء من تهديدها ومما يتعلق بها.

إذا استشعرت هذا المعنى، وعرفت ما تبتدئ به من أمر الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- فإنك موقف في ذلك أعظم توفيق.

• أن من الأمور ما يكون مُلتبساً، يعني: يتأرجح الأمر عند الإنسان، إمّا بين أمرين، أو في حالين، أو في بعض ما يتعلق بما يجتهد فيه في هذه الآونة أو في هذه الجهة، أو في هذا الحكم، أو في هذه المسألة، فيحصل في ذلك تضارب، وربما يوجد من مثله على مثل درجته، أو هو أرفع منه قليلاً، أو أقل منه قليلاً، وقد يخالفه في هذا الأمر، وهذا يقول: نبدأ بهذه. وهذا يقول: لا، نبدأ بهذا؛ خاصّة في المناطق الصّغيرة، أو المناطق التي لها طبيعة معيّنة، فربما حصل على الدّعاة إلى الله -جلّ وعلا- من التّشاكس والاختلاف أعظم ممّا يحصل لهم من الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا!

• فنقول: لا يجوز للشخص في مثل هذه الحال -إذا حصل اختلاف وإشكال- أن يرجع إلى رأي نفسه؛ بل ثمّ علماء مُعتبرون، وأهل علم يرجع إليهم، والله -جلّ وعلا- في كتابه يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، فارجع إليهم، وقطع دابر الخلاف ويوصد بابه، ويمنع شره، ويتفق بعد ذلك الدّعاة إلى الله -جلّ وعلا.

• ولا ينبغي في مثل هذا الدّخول في اقتناص الفرص، هذا يأتي بسؤال من هذه الجهة، وهذا من هذه الجهة، وإنّما تُعرض المسألة بحالها، نحن في البلد الفلاني، أو في المكان الفلاني، وفيه فلان كذا، وفيه مجموعة كذا، وحصل اختلاف عندنا في هذه المسألة، ونطلب ما يكون فيه الخير؛ لأنّه ليس أحد ممّا خاصّة من مثل درجتي ودرجتكم ممّن هم متوسّطون في العلم أو دون ذلك أيضاً أن يصدر حتى في المسائل المُشكلة أو المعضلة، ويظنّ نفسه أنّه أعرف بهذه الأمور وأقدر عليها، ما ممّا إلا ويجهل شيئاً، فإذا تقرّر ذلك؛ فكونك داعية إلى الله -جلّ وعلا- فأوجب ما يكون هو أن ترجع إلى أهل العلم فيما أشكل عليك، فتصدّر عنهم فيه، ويكون هو المقدم وهو المعتبر، وبه تكون الحجّة والسلامة، وإلا كانت عليك التّبعة عند الله -جلّ وعلا- ويتبع ذلك -نسأل الله السلامة- المهانة.

## الدرس الثامن



الحمد لله رب العالمين، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- إذا كان الدَّاعِيَةُ إلى الله -جلَّ وعلا- الذي عرفَ الأحكامَ وتعلَّم المسائل والعبادات، ثمَّ ينصرف عن النَّاس ليُعلمهم شيئاً لا يحتاجون إليه كثيراً من تفاصيل مسائل معيَّنة قد يحتاجون إليها في السَّنَةِ مرَّةً أو لا يحتاجون، على حين أنَّهم يُخطئون في وضوئهم أو في صلاتهم، أو في صيامهم، زكاتهم! فكم يلحقهم من البلاء؟! وتأملوا أنَّ شخصاً قدِمَ من المغرب أو المشرق، مِن أندونيسيا أو من نيجيريا، أو من غيرها من الأمصار؛ وقد بذلَ كلَّ ماله، ولربَّما انتظرَ الحجَّ عشرين سنةً أو ثلاثين، ثم جاء على حين أنَّه لم يعرف أحكام الحجِّ ولم يتعلَّم مسائله، فخلطَ الحابلَ بالنَّابل، فلم يؤدِّ بعض الأركان؛ ففات عليه الحجُّ؟! فمَن يتحمَّل تبعته وقد كان بين يديه من أهل العلم ومن أهل الفضل الذين يعرفون أحكام الحجِّ، ويعرفون أنَّهم يقدمون على الحجِّ ولم يُبينوا لهم ولم يوضحوا لهم، ولم يُرشدوهم، ولم يعينوهم؟! فيلحقهم بذلك من النَّقص شيءٌ كثير.
- ولأجل ذلك ينبغي للدَّاعِيَةِ أن يكونَ على نظرٍ متواصلٍ فيما يلزمه أن يقوم به وفيما يختصُّ به.
- أن ممَّا ينبغي العناية به: ما يخصُّ كلَّ مجتمع بحسبه، فإذا كانت بعض المجتمعات مثلاً يلحقها شيءٌ من انتشار الفواحش؛ فالتحذير من الزَّنا ومقدِّماته وإطلاق النَّظر وعدم حفظ العورات هو من أعظم ما ينبغي أن يُحرَّص عليه، وهذا أصله ظاهر في سنَّة النَّبي -صلى الله عليه وسلم- وفي شرعته، فلما جاء إلى المدينة كان

من أول ما نزل قول الله -جلَّ وعلا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ \* الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ \* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين 1-3]. لماذا؟

- لأنَّه لما كانت أسواق المدينة فيها كثيرٌ من هذه التجاوزات وتطفيف المكايل، وبخس النَّاسِ ما يستحقون؛ جاء كتابُ الله -جلَّ وعلا- بياناً لذلك الأمرِ وتنبيهاً عليه، مع أنَّ هذا لم يكن من الشَّعائرِ العظامِ، لكن لما احتيج إليه كان مهمًّا وكان مُقدِّمًا، ولأجل ذلك ينبغي للدَّاعية أن يكون على قدرٍ من الفقه حتى يُوازنَ بينَ ذا وذاك. □ هنا مسألة: بعض النَّاسِ يقول: أنا لا أقدرُ أن أشرحَ صِفَةَ الصَّلَاةِ ونحوها، غايةً ما عندي أن أعظَّ النَّاسَ بالتَّذكيرِ بالآخرة، وبالتَّذكيرِ بالموتِ، ونحو ذلك!
- فنقول: لا غضاضةً على الإنسانِ إذا أحسنَ شيئاً أن يُبلِّغَه، بل هذا هو الواجبُ عليه، وهو -كما قلنا في مجالسٍ متقدِّمة- داخلٌ في قول النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>١١٦</sup>، وإنَّما كان وجه تنبيهاً على أناسٍ يعرفونَ ذا وذاك لكنَّهم إمَّا لانحرافاتٍ في تصوراتهم أو لضعفٍ في علمهم يذهبونَ إلى التَّفاسيلِ، أو بعض المسائل التي تكون ليست بمنزلة الأركان، أو المسائل العظامِ، وما يتمُّ به التَّوحيد والإيمان؛ فيُقدِّمونَ تلك على هذه، فيحصلُ النَّقص.
- وربَّما كان مبعثُ ذلك بعض الإنضواءات واللِّواءات والانتماءات إلى جهاتٍ ونحوها قد تكون دعوياً وقد تكون سوى ذلك؛ فهم إنَّما يحرصون على هذا الباب من العلم، سواء كان حرصهم على وجهٍ صحيحٍ وإخلاصٍ، لكن عندهم خطأ في تفويتٍ غيره، أو أعظم من ذلك أن يكونَ حرصهم على مثل هذا الأمر ليس لأنَّه شرعٌ ودينٌ بخصوصه، وإنَّما لكونه مكملًا لمناهجهم ولانتماءاتهم، سواء كانت أحزابٍ سياسيَّة أو غيرها، أو تجمَع بين السِّياسة أو ما يظنُّونه جمعًا بين السِّياسة والدين، فيدخلون هذا في هذا؛ فيفسدون على النَّاسِ العلمَ، ويُفسدون على النَّاسِ الدَّعوة، ويُفسدون على النَّاسِ السِّياسة، وكم حصلَ بسببِ ذلك من بلاءٍ كثيرٍ، وكم حصلَ بسببِ ذلك من بلاءٍ عريضٍ!
- ذلك لأنَّ كثيرًا من هذه الانتماءات والأحزاب أهمُّ ما عندهم تجميع النَّاسِ، فلأجل ذلك ربَّما رأوا النَّاسَ تنصرف قلوبهم، أو يتحرَّكون بهذا الأمر من الدين أو من السُّنَّة أو غيرها؛ فيجعلوا ذلك طريقًا إلى جمعهم، وإلى تقدِّمهم؛ حتى يُحصِّلوا مقاصد أحزابهم وغيرها، ولهذا جاء في الحديث التَّحذير من مثل هذا «نَّ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ» ، أي: حتى يُقال هذا كذا...، فيعظمونه، ثمَّ إذا عظموه أخذوا بقوله، ثمَّ حملهم إلى أمرٍ من الأمور التي يريدها؛ فيقول النَّبيُّ -صلى الله عليه وسلم: «أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ»<sup>١١٧</sup>، أو كما جاء في الحديث عند ابن ماجة وغيره.
- بابٌ آخر فيمن يُحسنُ أبوابًا من الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا: أحيانًا لكونه لا يُحسنُ غيرها يوردُ فيها من التَّعظيم حتى يُظنَّ أنَّها مُقدِّمة على غيرها، فيُفضي ذلك عند النَّاسِ إلى شيءٍ من عدم التَّوازن الصَّحيح، وربَّما حملهم على شيءٍ من الخوف.

<sup>١١٦</sup> صحيح البخاري (3226).

<sup>١١٧</sup> سنن ابن ماجة (256).



- وأذكرُ على سبيل المثال -وهو مثال واقعي: في هذه الأوقات بعضُ مَنْ يُعْنَى بالرُّقِيَّةِ أو تتبَّعِ أَهْلَ السِّحْرِ والشَّعوذة يُعْظَمُونَ هذا الباب، فتجد أنهم إذا تحدَّثوا عنه كأنَّه سيلٌ لا يكاد ينجو منه أحدٌ، وحتى إذا عددت اثنين فالتنان كلُّهم مصابون بهذا السِّحر، ولا يكادون يخلُّصون منه، وما أن تجدَ خيطاً على خيطٍ حتى يقولوا: هذه عقدة! ولا تجد شيئاً ملتقاً حتى يقولوا: هذه نفثة!
- إلى غير ذلك من الأشياء حتى أدخلوا الوهنَ والضعفَ على كثيرٍ من المسلمين، بل لربَّما يُصاب بعض النَّاس بالسِّحر وتسلَّط الشَّياطين من هذا الوجه، يضعفون وليسَ عندهم من الإيمانِ ما يقوون به فيتسلَّط عليهم الشَّيطانُ حقيقةً.
- ومبدأ هذه الأمور هو: الوهنُ والوهم، إذا وهنَ الإنسانُ وضعُفَ وتوهَّم تواتت عليه، فإنَّما الشَّيطان يتسلَّط على الضَّعيف، والضعيف سواء في دينه أو في نفسه وقلبه.
- وهذا باب كثير الوقوع، وكثير الحصول، ولأجل ذلك في فتراتٍ كثيرةٍ حصل للنَّاس من البلاءِ بذلك شيءٌ كثيرٌ.
- **على سبيل المثال: الحجاب.**
- فالحجاب من الشَّعائر العظيمة، ومن المسائل الأكيدة، ويلحقُ المسلمين من الحملة الشَّعواء التي يريد بها أَهْلُ الشِّرْكِ وَمَنْ كان مثلهم -أو على شاكلتهم- من ضعفاء أَهْلِ الإيمان أو من فسَقَتهم، أو من أَهْلِ التَّفَاقٍ أو من غيرهم من إرادة الدُّخُولِ على المجتمعات بالفساد في هذا البابِ ما يُسَوِّقون له في كل ميدانٍ وقناةٍ؛ لكن مع ذلك قد يأتي بعضُ المتحمِّسة فيظنُّ أنَّه إذا وُجدَ الحجابُ وُجدَ الإسلام، وإذا لم يُوجدَ الحجاب لم يُوجد الإسلام!
- فيرون أنَّ كلَّ مَنْ تركت حجابها كأنَّها لم يبقَ لها من دينها شيء -من تعظيمهم لهذا الأمر.
- نقول: لا؛ إذا فرطت في الحجاب فقد فرطت في أمرٍ عظيم، واجتَلَبَت على نفسها فتنةً، وجَلَبَت على المسلمين بلاءً، ولكم تحمَّلت من آثام النَّاس الذي ربَّما يُفتنون بها؛ لكن لا يعني ذلك أنَّه قد فاتَ عليها دينها، أو أعظمه؛ فهذه مسألة من المسائل التي يُحاسِب عليها العبد، وتُحاسِب عليها المرأة، لكن لا تكون من المُكفَّرات، أو حتى يُظنُّ أنَّها تساوي الكبائر العظام، لكنَّها قد تعظُم في أحوالٍ كثيرةٍ بحسب ما يعظُم بها من الفتنة، وما يكون به من فتحٍ بابٍ للشَّيْرِ على المسلمين، والتَّخَلِّي عن أصلِ هذه الشَّعيْرة العظيمة.
- ولكن مع ذلك؛ على الدَّاعِيَةِ إلى الله -جلَّ وعلا- أن يُحذِّروا أن يُعظَّم ولكن في حدود ألا يجعل ذلك مُخرِجاً من الإيمان، أو مقرِّباً إلى ذلك، فيجعل الشَّيء في حسبه.
- على كلِّ حال هذا مثال، ولا يُظنُّ أنَّ إيراد المثال يُصدِّد به التَّهوين، لا؛ وإنما يُقصِّد بذلك أن يُجعل الشَّيء في موضعه، وفي مكانه الذي يليقُ به.
- هذه من أكثر ما يكون بها إشكالٌ على النَّاس، ولذلك ترون أنَّ في بعضِ الأحوالِ يكثرُ تراءد النَّاس في بعضِ الأشياء لأنَّها أُثِّرت من قِبَلِ أحد الدَّعاة، فقال كلمة فتأرَّ النَّاس، فلربَّما أفسدَ هذا الأمر بسببِ هذه الكلمة.
- فيقول مثلاً: الذي لا حجاب لها منافقة. فيقولون: هي ليست منافقة؛ فيظنُّون أنَّ الحجاب ليس مشروعاً أو ليس واجباً؛ فيحصل بذلك نقيضُ القصد، ويحصل الانفلاتُ من أصلِ هذه الشَّعيْرة المطلوبة.

إذن مثل هذه المسائل ينبغي أن يعرف الدَّاعِيَة كيف يضعها في موضعها، فلا هو التَّهْوِين فيها حتى يتجاسَرَ النَّاسُ على الشَّرِّ والسُّوءِ، ولا أن يُعْظَمَها حتى يُظَنَّ أنَّه لا شيء أعظمَ منها، وأنَّ مَنْ فاتته فقد فاتته الخيرَ كُلَّهُ. ولذلك تجدونَ في بعضِ المجتمعات أنَّ بعضَ النِّساءِ ربَّما لبسنَ الحجابَ على حينِ أنَّها لا تصلي، فهذا لا شكَّ أنَّه بابٌ خللٍ عظيم، وبابٌ بلاءٍ كبير! إذن هذا من الأخطاء التي تقع لبعض الدُّعاة إلى الله -جلَّ وعلا- في مسير دعوتهم.

### □ تجزئة الدَّعوة.

• وقلنا: إنَّ تجزئة الدَّعوة إن كان مبناهُ على مسلكٍ منحرفٍ، كما يكون من بعض مناهج المتصوِّفة أنَّ الدَّعوة إنما تكون للذِّكر والأوراد وإلى ما يألِفونه من عباداتٍ أو مناسباتٍ أو احتفالاتٍ فيها ما يُشرعُ وفيها ما لا يُشرعُ، وفيها ما يؤتَى به على غير وجهه، ويدخل عليهم أنواعٌ من الأخطاء والمخالفات ما الله به عليم. هذا من أخطر الأشياء، ويجبُ علينا أن نعرف أنَّ الشرعَ مأخوذٌ من كتابِ الله -جلَّ وعلا- ومن سنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- وأنَّ علينا أن نقفَ تلك السُّننَ في صغير الأمور وفي كبيرها، وأنَّ الذي أمرنا بالصَّلَاة وبَيَّنَ لنا صفتها هو الذي أمرنا بالاذكار وبَيَّنَ أحكامها، وبَيَّنَ وجه الإتيان بها، فليس المراد في تلك الأذكار رفع الأصوات بالأدعية، والإتيان بها على نغمٍ معيَّن، والطَّربُ بها والحركة، وإلى ما يتبعُ ذلك من الوجدِ وغيره، وما يصدر من بعض المتصوِّفة.

• على حينِ أنَّه في مثل هذا ينبغي للدَّاعِيَة أن يُفرِّق بين مَنْ عملها ليتعلَّمها، فبعض المجتمعات الأعجميَّة قد لا يُحسنُ الأذكار بعد الصَّلَاة، فيلقنهم الإمام أو مَنْ يُحسنُ ذلك حتى يتعلموا، فهذا بابٌ آخر يختلف عن تلك الأبواب، ولا يكون فيه ما فيه من الإشكال.

إذن هذه من الأخطاء التي تقع لدى الدُّعاة إلى الله -جلَّ وعلا- فينبغي الحذر منها.

• بعض المسالك التي تكون من أسباب عدم الإتيان على الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- على وجه صحيح، أو يكون فيها نوع من أنواع الانحراف، وذلك أن تُبنى مسائل الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- على بعض الأمور الطبية، فبدل أن يقول: إِنَّ التَّخْلُصَ مِنَ النَّجَاسَاتِ قد جاء به الشرع وحذر منه، وجاء فيه الحديث «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنَ الْبَوْلِ»<sup>١١٨</sup>، إلى آخر الحديث؛ فبدل أن يأتي بالأدلة في هذا؛ يأتي يقول: إِنَّ الأطباء يقرِّرون أنَّ فيه أذى على الإنسان، وربَّما يورث المرض الفلاني، ونحو ذلك!

• فجعلُ هذا مسلَكًا أو أصلًا أصيلاً في تقريب النَّاسِ إلى الدَّعوة خطأ كبيرٌ، لأنَّ مثل هذه الأمور قد لا تثبت، فهل إذا لم تثبت يعني ذلك أنَّك ستُلغي الحكم الذي قرَّرتَه؟

وهذا الحكم مُقرَّرٌ في كتابِ الله -جلَّ وعلا- وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفيه معصية كبيرة، وتترتَّبُ عليه صحَّةُ عبادة في الوضوء والطَّهارة ونحوها.

فلأجل ذلك ينبغي للدَّاعِيَة أن يجعلَ مبنى الأمور على الأمور الشرعيَّة، وما يكون من مثل هذه الأشياء نقول أنَّه يذكره مقتنًا أو بشيءٍ من القيد، فيقول "وإن صحَّ فيقول الأطباء كذا وكذا...".

<sup>١١٨</sup> مسند أحمد (1905)، وأصله في الصحيحين بلفظ "إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا هَذَا فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ".

## • لماذا نقول: "وإن صحَّ" حتى وإن كان متيقِّناً وقد قرأ فيها بعض النُّشْرَات ونحوها؟

لأنَّ هذه الأمور متجدِّدة، فيمكن أن يأتي ما نشره اليوم ما يدلُّ على خلافه بعد أسبوع أو شهر؛ فلو قائل قائل مثلاً: إنَّ الصَّيَّامَ ينفع لمرضى السُّكري أو عدمه، أو غير ذلك، ثم جاء بعد شهر بحوث دلَّت على خلاف ذلك!

فهذا يُفضي إلى إشكال!

ولهذا يقول أهل العلم: "مَنْ تكلَّمَ في غير فنِّه أتى بالعجائب".

ونحن نقول الآن: مَنْ تكلَّمَ في فنِّه يأتي بالعجائب، فكيف بمن يتكلَّمَ في غير فنِّه!

• وكذلك مثل الأمور الاقتصادية، كأحكام المعاملات ونحوها، فبناءً بعض الأحكام على تقارير الاقتصاديين أو ممارسات البنوك أو الربا أو غيره؛ هذا كما قلنا في الأمور الطبيَّة سواء بسواء، إذا بنيت الحكم على هذه التقارير أو هذه النظريَّات أو هذه الأخبار فهذا خطأ وخللٌ، مهما كانت الصَّورة واضحة وجليَّة مُقنعة للنَّاس، لأنَّها يأتي عليها الاعتراض، وليس لها ما للأدلة والنُّصوص من التَّسليم، فيكون بذلك الإشكال. فينبغي إذا احتيج لذكرها أن تُذكر تبعاً ومُتمِّمةً للموضع بعد أن تُقرَّر المسألة بدليلها من كتاب الله-جلَّ وعلا- وسنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم- وأقوال أهل العلم المعتمدين. وأسوأ من ذلك أيضاً ما تُملأ به المنابر في بعض الأحوال من أخبارٍ سياسيَّةٍ منقولة من بعض القنوات، أو من بعض الصُّحف، أو من بعض المنتديات، سواء كان في ذلك محرِّك إلى حبِّ النَّاس على خير أو ضده؛ فليس هذا بجيد.

• ذلك لأنَّ إدخال المسالك السياسيَّة في الخطب هو من أسوأ ما يكون لها، والأعجب من بعض الدُّعاة أن تجده يقول: قالوا في الجريدة الإسرائيليَّة كذا وكذا! ويبنى عليه حكم قد يكون هذا الحكم ضدَّ علمائه أو ولاة أمره، أو قد يكون هذا الحكم فيه مفسدة شرعيَّة ظاهرة، ثم يقول: الحق ما شهدت به الأعداء! مَنْ قال لك: إنَّ الحق هو ما شهدت به الأعداء؟! ومَنْ قال إنَّهم لم يُريدوا أن يوصلوا مثل هذه النتيجة؟! بل هي محالٌّ للمخابرات، ويدرسون طريقة تلقي النَّاس للمعلومة، فيمررون هذه لبعض الصَّالحين أو غيرهم ليكون قبولها أكثر، وليكون أثرها أعظم. وكم فتنة في بلاد المسلمين نتجت وحصلت بسبب تمرير مثل هذه المعلومات منحوها!

• فينبغي للإنسان أن يُبعد ذلك كله، وحتى إذا جاءت المسألة التي يحتاج إليها النَّاس فلا بدَّ أن ينظر في مبناها إلى الأصول الشرعيَّة، لا إلى أخبار أهل السِّياسة وغيرهم، لأنَّهم لا يُثقُّ بهم. ثم أيضاً جعل الأمور مبناها على السِّياسة هذا يُقلِّل شأنه، والأصل الشرعي ينبغي أن يُعظَّم، وتعظيمه إنَّما هو في بيان أصله من كتاب الله -جلَّ وعلا- وسنَّة رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

- ثم مهما كان الأمر عظيم فإنَّ الإنسان إذا جاء إليه فنبغي أن يأتي إليه بما يحتاج إليه النَّاس، أمَّا أن نُحدِّث أهلَ هذا المسجد بما لا يحتاجه إلا المسؤولين أو الأمراء أو الوزراء أو الملوك أو الوزراء؛ ما الذي يستفيد به النَّاس؟! فهذا نوع من التَّفْرِيع الذي لا فائدة فيه، وصرفِ المنابر والمجالس عمَّا تقوم عليه.
- فمن فقه الدَّاعِيَّة الذي يلي الجمعة والخطبة والموعظة أن يُحدِّث النَّاس بما يحتاجون إليه، فإذا كنَّ نساءً حدَّثنَّ عمَّا يليق بهنَّ من أحكام الطَّهارة ومن أحكام الحيض، فإنَّ كنَّ متزوجاتٍ بينَ لهنَّ ما عليهنَّ في حقِّ أزواجهنَّ، وفي حقِّ أولادهنَّ، إن كنَّ موظَّفات بينَ لهنَّ ما يليق بهنَّ من الأمانة والجمع بما يتعلَّق بهنَّ من المسؤوليَّة في البيوتات وغيرها؛ إلى غير ذلك ممَّا يُناسب كلَّ أحدٍ بحسبه، وإذا كانت جاهلة تختلف عمَّا إذا كانت متعلمة، وإذا كانت قويَّة على العبادة تختلف عمَّا إذا كانت تحتاج إلى بعض الرُّخص، وهكذا.. ومثل ذلك إذا جاء الإنسان إلى مريضٍ في المستشفى يُحدِّثه بطريقة مناسبة، فلا يقول له: أنت ما تعرف تتطهر، والتطهر كذا وكذا.
- وإنَّما يسأله كالمطمئنِّ عليه وكالمعلم له، كيف بك؟ كيف صحتك؟ تستطيع أن تؤدِّي الصَّلَاة في وقتها؟ هل عندك مَنْ يُعينك على الوضوء أو تقدر على ذلك؟ هل يملك أحد؟ هل تحتاج إلى مَنْ يجلب لك الوضوء والطَّسْت ويُجعل بينَ يديك؟ بعض النَّاس يعتقد أنَّه بمجرد أنَّه على سيره أنَّه يتيمم، وهذا خطأ!
- تنظر في المراحل التي يقدر عليها، فإن كان يقدر يذهب، تقول له: لا بدَّ أن تذهب. إذا كان لا يقدر أن يذهب، تسأله: عندك أحد يأتي لك بالوضوء؟ إن كان كذلك فلا بدَّ أن يأتي لك بالوضوء، ويُعينك ويوضِّؤك، وكان مع النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- مَنْ يعينه على الوضوء. فتجوز الإعانة في الوضوء إكرامًا أو إعانةً لضعيف. إذا لم يستطع هذا ولا ذاك ينتقل إلى التَّيْمُم.
- إذا أشكل عليك ذلك ولم تعرف أيُّ حالٍ من حاله، فإنَّ تقول له: يا أخي لا بدَّ أن تسأل، وحالك هذه فيها شيء من الإشكال، فاتَّصل بأحدِ أهل العلم، أو باللَّجنة الدَّائمة للإفتاء، وهكذا... هكذا ينبغي لطالب العلم أن يُعنى في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا.
- إذا تكلمنا عن هذه المسألة وهي استعمال التَّقارير الاقتصادية، والطبيَّة، والاجتماعية في مسائل الطَّلاق والعنوسة؛ كل هذه ينبغي أن تُعرف كيفيَّة الإفادة منها في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- وإلا لا يسلم الدَّاعِيَّة من حصول شيء من الخطأ والنَّقص فيها.
- وممَّا يتعلَّق بذلك ما هو أسوأ من هذا بكثير، وهي طريقة محدَّثة ووُجدت لها قنوات متعدِّدة في تسويق بعض القيم الشرعيَّة، وهي ما يُسمَّى بالدَّورات التَّدريبية، وإيراد بعض القصص يُوصَل بها إلى نتيجة معينة، فمثلاً يقولون: "كان شخصٌ يلبس ثوبًا طويلًا، ولا يرفع ثوبه، فلمَّا رفعه وجدوا أن رجله مقطوعة، وأنه كان يُخفيها....، فأحسن الظَّنَّ بالآخرين"، هذا كلُّ كلام فارغ!!
- فبناء الأُمَّة على القصص ليس بجيِّد، فأنت تجعل هذه القصص بمثابة الأدلَّة الشرعيَّة، وهذه فيها مخالفات وفيها إشكالات، وفيها ما يصح وما لا يصح، وفيها ما فيه من معاني تُقبَل ومنها ما لا يُقبَل، فأحسن الظَّنَّ شيء



- جيد، ولكن ينبغي أن تُقرَّر ذلك بما جاء في الكتاب والسُّنة من إحسان الظَّنِّ بالمسلم ونحوه، ثم قد تُورد بعض القصص في ذلك، أمَّا أن تجعلها أصلًا للإثبات أو النفي أو الفعل أو الترك؛ فإنَّ هذا لا شكَّ أنَّه خلل. ثمَّ إنَّ هذه الدُّورات التَّدريبيَّة -وهذا أمر معلوم- أكثرها مجتلبَّة ومستوردة، وفيها من أبواب العلوم الباطلة، ففيها من النُّظريات الوثنيَّة كالإيمان بالطَّاقة السَّلبِيَّة والإيجابِيَّة، وما فيها من عقائد الوثنيين وغيرهم في الشَّرق أو الغرب، فتسويغ مثل هذا بمثل هذه التَّصوُّرات -ولو كانت سائغة- قد يجرُّ إلى تسويغ إلى غيرها وغيرها.
- وأسوًا من ذلك أن يؤتى إلى مثل هذه النُّظريات فيُستدلَّ لها ببعض الأدلَّة الشرعيَّة ليُقرَّر النُّظريَّة، لا يُقرَّر الأمر المطلوب، وإنَّما يُقرَّر الأمر النَّظري، فيكون هذا باب الشَّرِّ كله.
- فينبغي أن تؤصَّل الأمور الشرعيَّة على ما جاء في الشَّرع وما جاء في الكتاب والسُّنة، وألا تخرج عن ذلك، فمَن خرج عن جادَّة الشَّرع وجادَّة الكتاب والسُّنة، وجادَّة أهل العلم؛ فهو حقيقُّ بأن يقع في مزلقٍ. ولأجل ذلك ينبغي أن يكون الإنسان كالذي يمشي على الشُّوك، وهذا هو التَّقوى، والتَّقوى ليست فقط في أداء العبادة من تركها، بل لما كانت الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- عبادة فهي أيضًا باب من أعظم أبواب التَّقوى، فليزِم المرء أن يُعنى فيها بما يكون فيه سلامة دينه، وبما يكون فيه صحَّة عمله، وما يطلب به رضا الله - سبحانه وتعالى.
- هذه من المسائل المهمَّة، لأنَّنا لما بيَّنا كيفيَّة الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- لابدَّ أن نُبيِّن بعض ما قد يجري من المخالفات أو الأعمال غير الصَّحيحة.
- كذلك يُمكن أن نتكلَّم تبعًا لمثل هذا في مسالك الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- إلى أمر صحيح، ومن صاحب فضل؛ لكنَّه قد يسلك مسالكًا ليست صحيحة.
- على سبيل المثال: ما يكون من الدَّعوة السَّريَّة والكتمان في الدَّعوة. الكتمان في الدَّعوة: كأن تجد لهم تجمُّعات طلابيَّة أو غير طلابيَّة -أيًّا كانت- وطابع هذا الاجتماع هو اللعب واللَّهو، ولهم أشياء يُجرونها ويُمرونها في الخفاء! فالدَّعوة ما كانت سرًّا، ولذلك جاء في الأثر: **"فَإِنَّ الْعِلْمَ لَا يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا"**<sup>١١٩</sup> كما أورد ذلك البخاري في صحيحه.
- هذه المسالك في الغالب أنَّها تتبع لطريق لها مقاصد سيئة، فهي مسلك لمسالك بعض الجماعات التي تُخفي إنتماءات أصحابها، وتريد أن تتمدَّد من حيث لا يُشعر بها، حتى إذا ظنَّت قوَّتها خرجوا وربَّما كانت لهم معارضة أو ثورة أو نحو ذلك، فيكون بهذا بلاء شديد.
- إذن هذه الدَّعوة السَّريَّة على هذا الوجه ليست بصحيحة، إنما هي مسالك منحرفة وخاطئة.
- أمَّا إذا احتيج إلى الدَّعوة السَّريَّة لمنع الخير، ولوجود النَّاس في بلادٍ يُضايق فيها أهل الإسلام ويُمنعون، واحتاجوا إلى هذا، كما حصل في زمن الشيوعيَّة، فيذكرون أنَّهم كانوا يجتمعون كأئمَّهم يلعبون، وهم يكتبون

<sup>١١٩</sup> صحيح البخاري/ كتاب العلم/ باب كيف يقبض العلم ص: 50

الألواح، ويُحفظون الفاتحة والقرآن؛ فهذا أمر مشروعٌ وصحيحٌ، وكيفما حرصَ الإنسان على دينه وحفظه، حتى ولو حصلَ له ما حصل؛ لكان ذلك صحيحًا، لكن الكلام فيمن يتقصّدون السريّة في الدّعوة لتجميع أعضاء وانتماءٍ لجماعاتٍ أو لأحزابٍ يُراد منها ما يُراد من معاني معيّنة.

- ولذلك تجد أنّ هؤلاء يحرصون على الائتلاف على الاجتماع حتى وإن كانت عندهم مخالفات كثيرة في اجتماعاتهم، ولا يراعون كونَ مَنْ ينتمي إليهم حتى لو وقعت منه مخالفة؛ ممّا يدلُّ على أنّ الشرع ليس أصالةً، وإنّما جُعِلَ جسرًا وطريقًا إلى تحقيق مآربهم، وهذا من أعظم ما بُليَ به المسلمون في هذا الوقت، أن تكون الدّعوة وسيلةً لتحقيق أغراض وجماعات وجهات ومصالح، ولهذا نجد أن مثل تلك التّوجهات والجماعات التي رفعت راية الإسلام أو الدّعوة إليه وتعظيمه لمّا وصلت إلى السُّدّة ووصلت إلى أن يتلقّى النّاس عنها والحُكم؛ لم يُغيّروا شيئًا، ولم تفرق إلى مَنْ كان ينتمي إلى الإسلام وأهله ممّن ينتمي إلى سواه، ممّا يدلُّ على أنه إنّما كانت لهم غاية فركبوا مسائل الشرع والدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- لتحقيق مآربهم.
- وأسوأ ما يكون في هذا الأمر حينما يختلط على بعض النّاس أنّه يوجد أناس صلحاء، وأناس لهم دعوة صحيحة ورغبة في الخير، ولم يعرفوا ما انطوت عليه نفوس أولئك وما وُجدَ عندهم من المآرب والمقاصد؛ فهؤلاء صلحاء وقد يكون لهم مقاصد صالحة، لكنهم أُدخلوا من حيث لم يعلموا، فحصلَ بهم فساد، وحصلَ بسبب هؤلاء التباس؛ فالتبسَ الحقُّ بالباطل.
- فنبغي للإنسان أن يعرف جادّة الحقّ، وهؤلاء إن كانوا تبعوا أو اجتهدوا فأخطؤوا فيتولاهم الله -جلّ وعلا- لكن ليس ذلك بمسوغٍ لمثل تلك المناهج والمسالك أن تتغلغل في أنحائنا حتى تنحرف بالدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- عن سبيلها وعن منهاجها الذي شرعه رسول الله -صلى الله عليه وسلم.
- فمن أعظم ما ينبغي الحرص على مثل هذه الأمور، وحينما نقول ذلك فإنّا لا نقول هذا على سبيل التّخصيص، وإنّما هذا على سبيل المثال، وإن أردنا أن نستقصي فسنحتاج إلى نقض جماعات وجهات وهذا ليس محلُّ بحثنا، وإنّما محلُّ بحثنا هو فقه الدّاعيّة إلى الله -جلّ وعلا- الذي على منهاج كتاب الله، وسنّة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعلى طريقة أهل السنّة والجماعة، دعوة وسطًا لا شططًا، ولا إفراطًا ولا تفريطًا.
- وتجد من المسالك التي عندهم: تخصيص أناس بالدّعوة، لا يلتفتون إلى أحد، إمّا الشّباب، وإمّا الوجهاء الذين يريدون من ورائهم الوصول إلى أمور، أو أصحاب المال لأنهم يرون أنّهم سبيل إلى دعمهم، وهذا أيضًا من الخطأ، الله -جلّ وعلا- يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء/1]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء/59]، فالدّعوة لكل أحد، ولا تختصُّ بشخصٍ دون شخصٍ.
- والنّبي -صلى الله عليه وسلم- حينما خصَّ بعض وجهاء قريش وتولّى عن ضعفائهم، ولم يكن في ذلك إغراضًا عنه ولا رغبة عن مجالسهم؛ وإنّما طمعًا في هداية هؤلاء الوجهاء؛ أنزل الله -جلّ وعلا- سورة تتلى في كتاب الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى \* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى \* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى \* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس/1]، فكانت عتابًا من الله -جلّ وعلا- لنبيّه من الإغراض عن الأعمى والإنصراف إلى أولئك، وأنزل الله -جلّ وعلا- في مثل

هذا: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف/28].

- هذا الكلام يُقال على وجه المقصود منه: أن تكون غايةً دعوتهم هو هذا، ومقصودهم في الدعوة هي هذه الطائفة، أما كون الإنسان يخص هؤلاء لكونهم ما يليق بهم من الكلام الصحيح، أو لكون لهم تجمع فيقصدهم ويخصهم بما يناسبهم؛ فهذا ليس فيه شيء، فالطلاب في المدارس لهم أحاديث تليق بهم، والتجار في مجامعهم لهم ما يليق بهم، وهكذا..
- إذن ليس حديثنا أنه يخص بما يناسبهم، لكن المقصود أن تختزل الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- في مثل هذا المسلك، وكما قلنا: الغالب من ذلك أن المقاصد من هذا لها ما لها، وثم مقاصد خفية في جملة الأمر وغالبية، وهي من أعظم ما يكون به البلاء والشّر على الإسلام والمسلمين.
- ممّا يتعلّق بذلك في جانب الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- وهو ليس تعلق مباشر بهذا، ولكن لما كان فيه مسلكاً خاطئاً ومسلماً صحيحاً جعلناه هنا ونهنا عليه من حيث أصله، ومن حيث حصول الزلل فيه، وهو: السّفَر في الدعوة إلى الله -جلّ وعلا-.
- السّفَر من حيث هو سّفَر إلى عبادة صحيح، ومتى ما احتاج إلى ذلك فحيّ هلا، وهو من الأمور المطلوبة، والصّحابة -رضوان الله عليهم- ورد عنهم الأمران، عمر -رضي الله عنه- منع الصّحابة من التّفريق في الأمصار، وذلك لأنّه أعون عليه في النّظر في المستجدّات، ومشاورتهم في الأمور العظام، وحفظ ما ينزل من الأمور المعضلة بمراجعتهم، ولما تولى عثمان -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- تفرّق الصّحابة في الأمصار، فكان في ذلك ظهور العلم وانتشار السّنة، وقيام خلق العلم ونحوها، فكان ذلك صحيحاً.
- لكن مهما قيل في السّفَر في الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- أو لا؛ فإنّ السّفَر بضوابطه، ولا يمكن للدّاعيّة إلى الله -جلّ وعلا- أن ينتقل إلى قوم آخرين وقومه لازالوا إليه محتاجين، أو أن ينتقل عنهم رغبة في الانتقال، أو ما يكون من المغامرة، أو إظهار التّخصّص في الدّعوة، وما يتبع ذلك من الجلبّة، ذهبنا...، سافرنّا...، فعلنا...، لاقينا...، تعرّضنا لهلكة...، دخلنا في أدغال غابة...، انقطعت بنا السيّارة...، إلى غير ذلك ممّا يأتي على النّيّة فيفسدها، وعلى القُصود فيحرقها؛ فهذا من أعظم ما يعرض للإنسان في الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا-.
- فنحن حينما نقول يُسافر؛ فيسافر وهو يعلم أنّ السّفَر متعلّق به، لكون ذهابه إمّا لأنّ الحاجة متوقّفة عليه، أو لأنّ سَفَره أتمّ من بقائه، أو لكونه لا ينقطع عمّن سافر عنهم فيعود إليهم قريباً فيكمل ما ابتدأه من تعليم وهداية.
- أيضاً إذا سافر حفظ نفسه، وعلم أنّه لا يأتي عليه الشّر، أو يغلب على ظنّه؛ وإلا فقد نُهي أن يسافر الإنسان إلى مواطن فتنة.
- وأن يكون عنده من العلم والحصيلة في القوم الذين يتوجّه إليهم ما هو كافٍ في التّوضيح والهداية، والتّعليم والإرشاد، فقد يُسافر بعض النّاس وهو أجهل من غيره، ولربّما كان أجهل ممّن سافر إليهم، وهم لكرم أخلاقهم يُعظّمونه ويحتفون به، ويستحيون أن يردّوه؛ فهذا خلل.

إذن إذا سافر في سفر وهو يعلم أن السفر على وجه صحيح، فيكون في ذلك محمّدةً، ولا يكون هدفه الإشهار ولا الإظهار، ولا التّفاخر، ولا التّميّز على غيره ونحو ذلك.

وكما قلنا أنّ هذا من حيث الأصل لا إشكال فيه، وهو جيد بضوابطه، ولأهل العلم فيه قصص مشهورة في هداية النّاس، وفي إرسال الرّسائل، وفي الانتقال، وما يتبع ذلك، وكان مشايخنا ربّما خصّصوا يومًا في الأسبوع يخرجون به إلى بعض القرى أو بعض الهجر، أو يخرجون طلابهم إلى ذلك ليعلّموا النّاس ويهدونهم، وهذا لا شك أنّه نافع عظيم، ولكن كما قلنا بشرطه وقيد.

وأما من يرون أنّ السفر جزء من الدّعوة لا يتحقق الحكم على الشخص باستقامته أو بحصول خيره إلا بهذا السفر، وأعظم من ذلك أن يسافر وهو جاهل ويطلب منه التّعليم والقيام أمام النّاس والحديث إليهم، وأعظم من ذلك أن يخصّص ذلك بوقت، فلا يتحصّل له إلا بالإتيان على ذلك الوقت، أربعين يومًا، أو أربعة أشهر، أو نحو ذلك من الوقت، وأعظم من ذلك أن يكون في سفره ترك لما تعلّق به تعلّقًا واجبًا من زوجة أو ولد، فلا شك أنّ هذا سبيل غير مرضية، فإذا كان السفر أيضًا يحصل فيه من المخالفات أو يكون السفر إلى بعض التّجمّعات التي تزاوّل بعض المخالفات، فالأمر أعظم وأطم، وينبغي للدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- أن ينبه على مثل هذا على وجه يتجلّى به الحق، ويظهر به الأمر، ويأنّ الناس عن الخطأ والخلل.

بعض الناس يقولون: تمنعمن الدّعوة إلى الله؟! تمنع من السفر للخير؟! تمنع من مجالس الذكر؟! لا نمنعه من مجالس الذكر ولا من الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- لكن لا يمكن أن يقوم لها من لا يحسنها، لأنّ ذلك بلاء عليه وعليها.

ونقول أيضًا: إذا كانت الدّعوة إلى الله واجبة؛ فالقيام على زوجته وولده واجب؛ والنّبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»<sup>١٢٠</sup>.

فمثل هذا الأمر وتوضيحه على مثل هذا النّحو من أعظم ما يجب على المسلم العلم به. وفي طيّات مثل هذه المعاني حصل من الشرّ الكثير، إمّا أناس -وهم قليل- أحجموا عن السفر إلى الدّعوة وكان الأولى بهم ألا يحرموا النّاس من خيرهم، ولكن الأسوء من ذلك أن يتصدّى لمثل هذه الأسفار ومثل هذه المواطن من لا يحسنها، أو من سافر وفي نفسه قصد شيء من الدّنيا، إمّا السّياحة والظّاهر أنّه ذهب للدّعوة، أو التّجمل بالدّعوة عند أهله وذويه ومن حوله، وما قارب ذلك من الخلل والخطأ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



<sup>١٢٠</sup> مسند أحمد (6663)، أبو داود (1692)، والنسائي في السنن الكبرى (9177)، صححه أحمد شاكر.



## الدرس التاسع



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

### المسالك الخاطئة في الدعوة إلى الله -جلّ وعلا-



✱ فمن هذه المسالك الخاطئة: جعل الدعوة عقلانية.

- وذلك أنَّ الإنسان إنَّما يُقرِّر ما يراه في نفسه، وما يتشرَّب قلبه، ولذلك تجد أنَّه في بعض الأشياء يقول: أنا مقتنع بكذا، أو غير مقتنع بكذا...؛ ويجادلون بالآراء، ويجعلون أصل ما يقبلونه وما يردُّونه هو العقل، وهذا لا شكَّ أنَّه من جهة الأصل مسلك فاسد مُضادٌّ للشرع، والله -عزَّ وجلَّ- إنَّما تعبَّدنا بالكتاب والسُّنة، وفي الكتاب والسُّنة ما لا يُدرِّكه العقل بوجه من الوجوه، فكيف للعقل أن يُدرِّك القبر وما يكون فيه من أحوال البرزخ؟

### ❓ كيف للعقل أن يدرك أحوال الآخرة وما فيها من الصِّراط وميزان الأعمال وما يحصل من أهوال؟

- فهذا هو الإيمان بالغيب والشَّهادة، ما يغيب عنَّا وما لا نعرفه، وما نحفظه ونراه؛ وهذا أعظم ما يُتم به الإيمان، وأصل الإيمان والإسلام هو على التَّسليم والانقياد لما جاء به الشرع ومما عُرِفَ ولم يُعَلَّم.
- ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكرت أمامه البقرة التي تتكلَّم: «فَإِنِّي أُوْمِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»<sup>١٢١</sup>، حتى ولو لم يكن مألوفًا في العقل أن الدَّواب تتكلَّم، لكن ليُظهر أمرًا، وهو: أنَّ الأصل الذي يجب

<sup>١٢١</sup> متفق عليه

أن يكون عليه أهل الإسلام هو الإيمان بالتَّسليم، ولذلك على الدَّاعية ألا يلجأ إلى الأمور العقلية في تقرير الأمور الشرعية، فإنَّ هذا مسلك أهل الكلام، وهو مبدأ الضلال، فإنَّهم أرادوا أن يقرروا الشرائع بالعقول فحصل عندهم التَّشكيك في كثيرٍ من النُّصوص؛ فإذن العقل محكوم وليس بحاكم، والعقل تابع وليس بمتبوع، والمتبوع هو الشَّرع والكتاب والسُّنة، ولأنَّنا لو أرجعنا الناس إلى العقول فأَي العقول هي؟ عقلي أو عقلك أو عقل فلان أو الآخر؟!

• ولم تزل هذه العقول متغيِّرة متقلِّبة متباينة بحسب بيئتها واتِّساع فهمها وقصره، فلأجل ذلك لا يُمكن أن يقرَّ للعقل قرار على أصل صحيح، فكان الأعظم والأتم هو كتاب الله -جلَّ وعلا- وحسبنا قول الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3]، فلا يُحتاج إلى اجتهادات العقول وإلى نظر النَّاس.

• والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لِيُنْهَى كَتَمُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ»<sup>١٢٢</sup>. وأبو ذر يقول: "لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يَقْلِبُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرْنَا مِنْهُ عِلْمًا"<sup>١٢٣</sup>.

• فينبغي على الداعية أن يجعل هذا مسلكه، وإلا فإن كان مسلك العقول فإنما ذلك هو مسلك المتكلِّمين والمعتزلة الذين يُفدِّمون العقل ويجعلونه حاكمًا، وهذا مبدأ الضلال وأصله، وكثير من الشُّرور تدخل فيه. وفي الحقيقة أن هذا أيضًا موجود لدى مَنْ تكون دعواتهم بما يسمى بالدَّعوات المستنيرة، وما تُسَوِّق لها بعض القنوات الفاسدة؛ لأنَّه هو الذي لا يتصادم معهم، فيسوق لبعض الشَّهوات، ويسهِّل في بعض الممارسات، لأنَّ المقصود في ذلك أن يقتصر في ذلك على أشياء عقلية ومعاملات بشرية، وبعض العبادات التي يراها لا تتعارض مع بعض أفعاله، فيحصل بهذا بلاء كبير.

فالحق أن يُدعى إلى الكتاب والسُّنة، وألا يتجاوز ذلك بوجه من الوجوه، وما عظم الإنسان عقله إلا ابتلي، ولا جعل الإنسان عقله أصلًا إلا تَلَفَ، ومَنْ جعل عقله حاكمًا على الشَّرع ضلَّ.

جاء في حديث أبي هريرة أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يَغْمِسْ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»<sup>١٢٤</sup>، جاء شخص وقال: أنا أدري أين باتت يدي. فقام وربط يديه في كُمِّه ونام، فلمَّا قام من نومه إذا يده في أُسْتِهِ.

• قال أهل العلم: وفي هذا إشارة إلى أنَّ كلَّ من ضادَّ الشَّرع يُظهر الله -جلَّ وعلا- خبيثته وعيبته، ويُبين عن بلائه ونقصه.

• فينبغي أن يُعلِّم الناس ذلك، وأن يؤدِّبوا عليه.

• وعلى الدعاة أيضًا أن ينيِّهوا مَنْ كان في ضمنِ دعواه تعظيم العقل على الشَّرع وقديمه عليه أن يُتنبَّه له؟، فإنَّ ذلك من أعظم ما يكون به البلاء والزلل.

<sup>١٢٢</sup> أخرجه أبو داود (4607)، والترمذي (2676) بنحوه، وابن ماجه (43) واللفظ له، وأحمد (17142) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

<sup>١٢٣</sup> حديث موقوف على أبي ذر، وهو في الطبقات الكبرى لابن سعد (2477).

<sup>١٢٤</sup> البخاري (162)، ومسلم (278) واللفظ له: عن أبي هريرة.

- ويتفرّع على ذلك مَسَلِكٌ وَخِيمٌ وَطَرِيقَةٌ سَقِيمَةٌ وَهِيَ: أَنَّ مَنْ لَا يَقْبَلُ الْعِلْمَ يُوجَدُ مَنْ يَدْعُو لَهُمْ، كَمَنْ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْقُرْآنَ، وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ فِي التَّعْظِيمِ مِنْ شَأْنِهِمْ وَيَسْمُونَ "الْقُرْآنِيُّونَ" فَحَدَّرَ مِنْهُمْ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَنَاسَ كَثِيرٌ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لَا أُلْفِينَ أَحَدَكُمْ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا أَذْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ»<sup>١٢٥</sup>.
- فهذا أيضًا ربّما كان نتاجًا من نتائج بعض الوقفات العقلية مع السُّنَّةِ حتى سهّلَ عليهم رُدُّها، ثُمَّ رُدُّ ما جاء شيئًا فشيئًا حتى رَدَّ السُّنَّةَ بجملتها.
- فالقرآنيون في هذا المسلك، ويوجد مَنْ يُسَوِّقُ لمثل هذه المعاني، وهي أيضًا خليطٌ من مسالك منحرفة من بعض أهل الأهواء والبدع، ونتاجٌ من بعض الدعوات الوثنية التقت وكان هذا المزيج، وسَوِّقَ له بعضهم، ولذلك تجد أن بعض من يعنون بالعلوم التجريبية كالهندسة وغيرها، فكثير يعشقون مثل ذلك ويميلون إليه، وما ذاك إلا لعدم علمهم بالشرعية، فيظنون أنّهم هم الذين يعرفون وغيرهم لا يعرف، وأنّهم هم الذين عندهم النّظر وعندهم الفهم وأنّ هؤلاء أناس بسطاء!
- والله إنّ العلم والنّظر إنّما هو في كتاب الله -جلّ وعلا- وسنّة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وفهم سلف هذه الأمة أهل السُّنَّة والجماعة، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»<sup>١٢٦</sup>، فالقرون المفضّلة بهم يحصل الاقتداء والانتكاء، وبهم -بإذن الله جلّ وعلا- يسلم العبد من البلاء والشرّ.
- ✱ من المسالك: تفسير العبادات بالعلوم الدنيوية والنّفعيّة، تجدهم يقولون: الصيام صحّة، الصلاة نشاط، الحجّ خروج من متعلقات البلد،... إلى غير ذلك.
- ولا تكاد تجد لهم تفسيرًا لمثل هذا، مَنْ يقول إنّ هذا هو المقصود!
- ألم تعلموا أنّ هذا هو مسلك المتفلسفة الذين لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر؟! ومن بعض الفئات والطوائف مَنْ تلقى شيئًا من ذلك، ولهذا فإنّ ابن عاشور في تفسيره ربّما جاء ببعض تعاريف أهل الفلسفة في مواطن من القرآن، وهذا لا شك أنّه خلل كبير!
- فإذا نحن نتكلم عن العبادات نتكلّم على أنّها عبادة أمرنا الله بها، نطلب الأجر والثواب منها، وما عند الله في الدار الآخرة، وأمّا ما يكون معينًا على ذلك من بعض النتائج أو الآثار الدنيوية فلا ينبغي أن تكون هي مبنى والفلك الذي ندور عليه في تقرير هذه الأعمال والعبادات، وهذا من أعظم الانحرافات التي توجد في هذا الوقت؛ بل إنّهُ يوجد أناس إذا كانوا يعرفون العبادات على هذا النّحو كان ذلك سبب لأن يُرفع مكانه وأن يظن أنّهُ جاء بما لم يأتِ به غيره؛ وهذا ليس بصحيح!
- صحيح أن من الحكّم التي من أجلها شرّعت هذه الشّعائر مصالح دنيوية، ولا شك أن الله -جلّ وعلا- جاءنا بدين الفطرة الذي يَقُومُ بِهِ الدِّينُ والدُّنْيَا، وتَسَلَّمَ بِهِ حَيَاتُنَا، لكن لا يمكن أن يُجعلَ مَبْنَى هذه العبادات هو

<sup>١٢٥</sup> صححه الألباني في صحيح أبي داود  
<sup>١٢٦</sup> البخاري (2652)، ومسلم (2533)

تلك المصالح؛ لأنَّ هذا لا يخرج عن أن يكون خروج عن دائرة الحق، وعن الاتباع والاهتداء والاستسلام لله، وإرادة الدنيا بعمل الآخرة، وهو مَسَلُّكٌ مِنْ مَسَالِكِ المنحرفين؛ بل هو أصل كلام أهل الفلسفة.

• وأذكر بعض الكتب النَّافعة في الردِّ على هذا، مثل: الإسلام النَّفَّعي، وهو جيد في هذا الباب، وفيه رسالتان - أظنها لأبي الأعلى المودودي في الهند- كانتا من أوائل الرسائل التي وُجدت في التَّنبيه على هذا الخلل الذي وُجد في الوقت المعاصر.

• الذين تأثَّروا بهذا المسلك العقلائي لهم بضاعة مزجاة فيما يخص المنقولات، أمَّا المعقولات فقد يكون لديهم نصيب في العلوم الماديَّة، وقد يوافق هذا انبهار بالغرب، وانبهار بالفلاسفة، فإذا أردت أن تدعوهم إلى الإسلام وإلى السُّنَّة تجد أنَّهم يقرُّون المسالك العقليَّة، وديننا فيه أمور أُقرَّت بطريقة عقليَّة؛ فهل يمكننا أن نخاطبهم بهذا الخطاب، لكونهم لا يفهمون إلا بهذه الطريقة.

• ما ذكرته هو مكملٌ لما نحن بصدد، وهو أنَّنا إذا قلنا: إِنَّ الدَّاعِيَّةَ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- يتجنَّب المسالك العقلائيَّة في تقرير الدَّعوة إلى الله -جَلَّ وَعَلَا- فالكلام هنا على وجه الابتداء والتَّأصيل، أمَّا إذا احتاج إلى محاوراة مَنْ ابْتُلِيَ بمثل هذه المسالك فهي بقدر الحاجة، فهذا مِثْل الدَّواء الذي يَصْرِفُه الطَّبيب لِمَنْ يحتاج إلى ذلك وربَّما كان فيه بعض الأضرار، لكن يُتَوَقَّى وللمصلحة الأكبر فيها.

• فهذا مَسَلُّكٌ مَوْجُودٌ حَتَّى عند أهل السُّنَّة، ولأجل ذلك فإنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- ناقش في كتابة العقيدة الحمويَّة والتادمرية المتكلمين بالعقل الذين أرادوا أن يستدلوا به على إنكار بعض الأسماء والصفات وما حصل فيها من فتنة؛ فردَّ عليهم من مَنطِقِهِمْ، فإذا احتيج إلى ذلك لعارف بالشَّرع عالم بما يقول، يمكن أن يضبط عقله بما لا يكون فيه خلل أو زلل، أو أن يُستدرَج، وأَمِنْ أن يُفهم حديثه على وجهه، وألا يتَّسع ذلك أو يكون أصل له؛ فهذا يكون جيِّداً ومناسباً.

• إذن تكلمنا عن الدَّعوة العقلائيَّة، وتكلمنا على ما يتعلق بالقرآنيين، وتكلمنا تبعاً لذلك على ما يكون من الدعوة على الإسلام النَّفَّعي، أو المصالح الدنيويَّة، وجعل ذلك قطب أساس العبادات والعمل إلى الله -جَلَّ وَعَلَا- والتَّعَبُّد له.

### ○ مسألة البيعة في الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-

- هذه المسألة من المسائل المعاصرة والتي لم تكن ظاهرة في المجتمعات السَّالفة، لكن لما تقمَّصت بعض الانتماءات والأحزاب أمرين متباعدين هما:  
الدَّعوة إلى الله -جَلَّ وَعَلَا- وسلوك مسالك السياسة ونحوها؛ وما يلزم من أجل ذلك من إرادة الإبقاء على هذا التَّجمُّع في تماسكه ابتدعوا بدعة وهي البيعة، سواء كانت سرِّيَّة وهذا أغلب ما يكون عند مثل هذه الجماعات، أو كانت علنيَّة؛ فلا يفرق الأمر في حكمه.
- وحينما نأتي إلى الأصل فإنَّ الأصل في البيعة هو بيعة وليِّ الأمر، وهذا جاء به الشَّرع في حديث عبادة بن الصامت «بَايَعْنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ



أَهْلُهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»<sup>١٢٧</sup>

«وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً -أو على شعبة من النفاق»<sup>١٢٨</sup>.

إذن هي بيعة، والبيعة لولي الأمر حق مُسْتَحَقٌّ، جاء به الشرع، ولا يمكن للبيعة أن تكون مُتَعَدِّدَةً، ولأجل ذلك جاء في الحديث «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»<sup>١٢٩</sup>

- نأتي إلى هذه البيعات الدَّعَوِيَّة التي توجد في هذا الزَّمان؛ فنرى أنَّها ليس لها أصل، ولا أساس لها من الشرع؛ بل هي مُضَادَّةٌ للشرع، فإنَّ حقيقة البيعة لولي الأمر هو حصول الجماعة والاجتماع والاتلاف وعدم الافتراق، والإبقاء على مجتمع الإسلام مجتمعاً مُتَّحِداً يسمع لولي أمره ويُطيعه، فلا يحصل بسبب ذلك المواجهة ولا الاقتتال، ولا تكاثر الفئات ولا تواجُّه المجتمعات.
- فلأجل ذلك كانت هذه بيعة خاطئة ومُحَرَّمَةٌ ومُبْتَدَعَةٌ، ولم يأت بها نصٌّ، وهي مُضَادَّةٌ لأصل ما جاء في البيعة، فإنَّ البيعة لولي الأمر الذي جعل الله -جلَّ وعلا- له الولاية والسُّلْطَةَ وأَنَاطَ به الحكم للمسلمين، وكثير من أهل العلم نصُّوا على حكمها وأبانوا عن حُرْمَتِهَا، ومن أشهر هؤلاء الشَّيْخ ابن باز والشَّيْخ ابن العثيمين، والشَّيْخ محمد ناصر الدِّين الألباني، وغيرهم كثير، وهذا أمرٌ ظاهرٌ لأقلِّ مَنْ له بضاعة في الشرع وعلم به فإنَّه يعلم ذلك.
- ثُمَّ إِنَّ البيعة الشَّرْعِيَّةَ إِنَّمَا هي لأهل الحِلِّ والعقد، فإذا بايعوا ولي الأمر وجب على عموم النَّاس الطَّاعَةَ، والواقع في مثل هذه البيعات -حتى لأفرادهم- ليأمنوا انقلابهم عليهم أو تفلَّتْهم منهم، والخروج عن محيطهم، ويتبع هذا أنَّ مثل هذه البيعات يكون فيها من الثَّوْرَةِ على النَّاس والمعارضة، وحصول الشَّرِّ الكثير. فلأجل ذلك نقول: هذه البيعة على هذا النَّحْوِ بيعَةٌ مُحَرَّمَةٌ، ولا يجوز بوجه من الوجوه ولا أصل لها في الشرع البتَّة، وهي بيعة أعضاء الحزب لرئيسهم، سواء كانت أحزاب دَعَوِيَّة أو نحوها، وهذا مشهور في بعض التَّجْمِعات الدَّعَوِيَّة، فكلُّ تَجْمُعٍ دَعَوِيٍّ توجد فيه هذه البيعة فهي بيعة مُحَرَّمَةٌ ولا أصل لها، وهي مخالفة لما جاء في كتاب الله، وفي سُنَّة رسوله -صلى الله عليه وسلم.
- وعلى كلِّ حالٍ فإن قال قائل: ما التَّوْجِيه فيما جاء من تأمير الأمير في السَّفَر؟ حيث قد جاء فيه بعض الأحاديث عن النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم.
- فنقول: تأميرُ الأمير لثلاثا يختلفوا عليه فيما يحتاجون إليه في أمور سفرهم ليس فيه بيعة، وإنَّما جاء الشرع بأن يجعلوا لهم قائداً أو أميراً يرجعون إليه فيما يحتاجون إليه في النزول أو الدَّهَاب أو الخروج، لثلاث يحصل بينهم اختلاف في ذلك.
- وهذا الأمير سواء سَمَّيته أميراً أو قائداً أو مَسْؤُولاً أو نحو ذلك فالأمر فيه سهل؛ قد جاء فيه حديث وإن كان

<sup>١٢٧</sup> البخاري (6647)

<sup>١٢٨</sup> روى مسلم (1851) عن ابن عمر... "مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لَفِيٍّ اللَّهُ يُؤَمُّ الْقِيَامَةَ لَا حُجَّةَ لَهُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً".

<sup>١٢٩</sup> مسلم (3449)

مختلف فيه ولكن حسنه بعض أهل العلم وهو محمولٌ على هذا، فليس للأمير هذا ولاية مُطلقة ولا حُكمٌ تامٌّ، ولا قضاءً على ولاية الإمام أو وليِّ الأمر أو الوليِّ الأعظم؛ فليس في هذا شيءٌ منه البتَّة، وإنَّما هو مُتعلِّق بما يحتاجون إليه في مَصَالِحِ سفرهم.

إذن هذا ليس فيه مُستَمسكٌ لمن قد يتشبَّثُ في بعض الشُّبهات ويظنُّ أنَّها قد تدعمهم فيما صاروا إليه وذهبوا إليه من هذا العبث.

هذا من أصل الكلام على البيعة في هذه التَّجمعات، فإذا جئتُ إلى تفاصيل الكلام فيها ونحوه؛ فتجد في ذلك مُخالفة عظيمة أيضاً؛ لأنَّ أكثر هذه البيعات يكون فيها مُبايعة على أمرٍ مخالفٍ للشرع ومضادٍّ للدِّين، وربما كان عندهم أصولٌ مُنحرفة، وهي أصل ما يحصل عليه التَّبائع، ومن ذلك أيضاً تقديم رأي هذا المُبايع على وليِّ الأمر، فعندهم بعض المخالفات التي لا يُبنى أصلها على شرع، ففيها مخالفات كثيرة، وتجدون أنَّ عندهم من البدع والمحدثات ما يحتفُّ بها من الأخطاء، وتعظُم تلك الأخطاء الشيء الكثير.

- ممَّا ينبغي للدَّاعية في حال دعوته ألا يربط النَّاسَ بنفسه، وإنَّما يربطهم بالعلماء الرَّاسخين، فهذا مَسَلِكٌ صحيحٌ قويٌّ على طريقة أهلِ السُّنَّة والجماعة، فلمَّا جاء في الحديث **«مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»**. وفي روايةٍ قال: **«هِيَ الْجَمَاعَةُ»**، فُرجِعُ في تفسير ذلك إلى ما قاله الأئمة الكبار كسفيان وأحمد. والمقصود في ذلك: أنَّه لما كان لهم من العلم بالأحكام ومعرفة المسائل ما يؤمن بالصُّدور عنهم أن يكون الإنسان على جادة الصُّواب، أو على طريقٍ معذورٍ فيها، حتى ولو أخطأ ذلك العالم فهو ممَّن إذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، فإنَّ هذا:

◀ **أولاً:** يأمن أن يدعو الدَّاعي إلى نفسه، وكم من النَّاسِ يدعو وفي حقيقة الأمر إنَّما يُريد إشهار نفسه وإظهارها ونحو ذلك على ما تقدَّم مما ذكرناه قبل قليل، أو ممَّا مرَّ معنا في المجلس الماضي من قوله **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾** [يوسف: 108]، فالدَّاعية يدعو إلى الله لا إلى نفسه.

◀ **ثانياً:** الدَّاعية لا ينفك عن خللٍ أو جهلٍ في بعض المسائل أو خطأ يفوت عليه؛ فإذا علَّقهم بنفسه وخلَّله كثيرٌ وخطأه كبير؛ فإنَّ هذا يُفَوِّتُ عليه قدر عظيم، ولكن إذا علَّقهم بأهل العلم الرَّاسخين فإنَّ ذلك أسلمٌ من كثير من الخطأ والزَّلَل.

- وحينما نقول إنَّه يرجع إلى أهل العلم إنَّما يكون ذلك فيما يصدر عنهم في المسائل الشرعيَّة، ولم يُرد بذلك أن يُفتات حقَّ وليِّ الأمر الذي له الولاية العظمى في السَّمع والطَّاعة والانقياد له، والإثبات لولايته وما يتبعها من أحكام وما يلزم الرِّعيَّة فيها من حقوقٍ للرَّاعي، فإنَّ ذلك في قولنا بالرُّجوع إلى أهل العلم الرَّاسخين إنَّما هو في الصُّدور في المسائل والتَّفقُّه فيها، ولم نقصد بذلك الافتيات لحقِّ ولي الأمر ومن جعل الله -جلَّ وعلا- له الولاية، فقد قال الله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾** [النساء: 59]، فحقُّهم مقرُّون بحقِّ الله -جلَّ وعلا- وحقِّ رسوله، فكان باقياً ثابتاً إلى يوم القيامة. فهذا ما يُمكن أن يُكَمَّلَ به هذا الموضوع.

- ولذلك كان من الأهميَّة بمكان أن نتكلَّم في مسألة مهمَّة وهي: أنَّ الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- في أثناء دعوته أن يكون حريصاً على تعليم النَّاسِ، فإنَّ الوعظَ تذكيراً وحثُّاً للنُّفوسِ، وحثُّ النَّفوسِ إذا لم يكن معه علم

يحملها على الخير والهدى والبرّ والسنة فإنّها إمّا أن تضعف فتبقى على غيّها، وإمّا أن تُشحذَ الهمة بدون علمٍ فيقع منها الخطأ والإحداث والبدع ونحوها، لكن إذا كان الدّاعية بقدر ما يحثُّ النَّاسَ ويُصلح قلوبهم ويقرّبهم إلى الخير ويعلمهم ما يليق بهم؛ فإنّ ذلك -بإذن الله جلّ وعلا- من أعون ما يكون للعبد سلامةً واستقرارًا.

ولذلك لمّا كان الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى- وهو له فقه عجيب في الدّعوة، فلم يدعُ إلى نفسه، وله في هذا مواقف وأحاديث كثيرة، وكان منها تنبيهه في مسائل في كتاب التّوحيد لمّا قال: "الدّاعية إلى الله يدعو إلى الله لا إلى نفسه"، ومن أعظم ما في كتاب التّوحيد أنّه لم يجعل له مُقدّمة، ولم يزد عن أن ضمّنه الآيات والأحاديث، هذا في أصل الكتاب باستثناء المسائل التي ذكر فيها بعض الفوائد. لماذا؟

ليدرّب ويُعلّم المخالفَ والموافق أنّ الدّعوة إنّما هي إلى الله وليست إلى نفسه، فليس الحديث بتجميل العبارات من عنده حتى يُقال:

ما أعظم كلامه!

وما أعظم حديثه!

وما أتمّ أمره! وما أفقهه!

لا، إنّما أراد أن يُبصّر الناس بالخير، وتبصيرهم يحصل بدلالات الكتاب والسّنة -وهي ظاهرة- وقرّب بعضها ببعض المسائل أو ببعض الآثار، وكان ذلك كافيًا.

ولورأيتم كتاب الأصول الثلاثة، وهو ما يتعلّمه آحاد النَّاس، فأعظم ما يكون التّعليم هو تعليم العبد ربّه ودينه ونبيّه الذي يكون به سلامته والذي يُسأل عنه في قبره، ويكون به نجاته عند ربّه -جلّ وعلا.

فأعظم ما يُعنى به الدّاعية هو التّعليم، فيعلم النَّاس ولا يكتفي بالوعظ ولا بالأحاديث العامّة، ولذلك لو أنّ

الدّاعية جعل له مجلسًا يُعلم فيه المسائل والأحكام والعبادات الظّاهرة، والمعاملات المهمّة؛ لكان ذلك من أعظم ما يُفيد الناس في حاضرهم وفي مآلهم وما ينقلبون إليه من أمورهم، ولا تجد أحدًا أسعد بشيء من سعادة من كان بلزائهم أو في مسجدهم أو بقريتهم طالب علم يقرّب لهم الخير ويسرّله لهم ويُعلمهم ما يهتّمون به في أمور دينهم وعبادتهم ومعاملتهم وما يكون من حقوق أزواجهم، ونحو ذلك ممّا هو لائق بهم في هذا الباب.

فهذه من الأشياء التي ينبغي التّنبية عليها، وكم حصل للنّاس من ويلاتٍ ومن بلاءٍ عظيمٍ ومن شرٍّ مستطيرٍ لمّا دخل الجهلّ على الدّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- فإن شئت من العهد الأوّل أو هذا العهد، فالخوارج كانوا من أعبد الناس ومن أصلحهم، وخرجوا على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكفّروهم وحكموا عليهم بالشرّ، والصّحابة لأنّهم أهل علم لمّا سئلوا عن كفرهم قالوا: "من الكفر فرؤا" فلم يحكموا بكفرهم، وهذا هو الأصل في مذهب أهل السّنة والجماع، وهو عدم تكفيرهم.

والخوارج إنّما أوتوا من الجهل، فقالوا: لا حكم إلا لله، فكيف يُحكّم الرّجال!

لم يفهموا! ولمّا جاءهم ابن عباس وراجعهم، قال: "قال الله -جلّ وعلا: ﴿يُحْكَمْ بِهِ دَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾" [المائدة: 95].

فقالوا: إنّ عليًّا قاتل فلم يستحلّ أموالهم ولم يستحلّ نسائهم، فإن كان قد حلّ قتالهم فقد حلّ سيّهم.

فقال: فَإِنَّهُ قَاتِلَ أُمَّكُمْ - أي: أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها- فَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِأُمِّكُمْ فَقَدْ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهَا أُمُّكُمْ فَمَا حَلَّ سِبَاؤُهَا. فما كان منهم إلا أن رجع لثلاثهم.

• فينبغي أن يُعلم أنَّ العلم هو النَّجاة، والآن في هذه الأزمنة كل مَنْ تحدَّثنا عنهم في الإشكالات أكثر ما أوتوا إنَّما كان من الجهل، وأعظم ما يظهر الجهل الآن في هؤلاء، سواء الذين يسبُّون أصحاب النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- وعندهم في ذلك من الجهالات ما الله به عليم.

• ولا يقولنَّ قائل: كيف وصل بهم الحدُّ إلى هذا، ولا يستهزئ بهم، فَإِنَّ الله -عزَّ وجلَّ- قال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: 41]، واحمدِ الله على العافية، وكُنْ طالبًا لهديتهم، وبإذلاً لما في وسعك من رجوعهم إلى جادة الصَّواب الذي به نجاتهم.

مثل ذلك أيضاً ما حصلَ عند مستبهي الدِّماء الذين ظنُّوا أنَّه ليس أحدٌ أتمَّ منهم، وهم خوارج هذا العصر، وهم أسوأ من الخوارج المتقدِّمين، فَإِنَّ خوارج العصر كانوا أهلَ عبادةٍ وأهلَ خشيةٍ وأهلَ ورعٍ، فهؤلاء لا علم عندهم، ولا ديانة ولا صلاح، ولذلك تجد أن أقلَّ متكلمٍ فيهم إذا تكلمَ يكون أضعف ما يكون، بل إنَّهم لَيَتَكَلَّمُونَ فَيُخْطِئُونَ في الآيات، فهذا كثير في مخاطرهم التي وردت!

• يُخْطِئُونَ في الآيات التي بها تصح الصَّلَاةُ! وأنا أظنُّ أنَّ من يُخْطِئُ في بعض الفاتحة سيُخْطِئُ في الفاتحة، ثم هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَسْرَفُوا حَتَّى خَطَّئُوا النَّاسَ، ثُمَّ كَفَرُوا بِهِمْ، ثُمَّ حَكَمُوا عَلَى الْعُلَمَاءِ بِالْجَهْلِ وَقَضَوْا عَلَيْهِمْ، فلم يَسْلَمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وأثار ذلك هي استباحة الدِّماء، وما يتبع ذلك من البلاء الذي جلب للنَّاسَ شَرًّا كبيرًا، ما من شَرٍّ في هذا العصر عَظُمَ إلا جَهَّتْهُمْ، من التَّسَلُّطِ على بلاد المسلمين، ومن حصول هذه البليَّات، وحصول التَّفَرُّقِ في الدِّيَارِ، وضِياع الدِّينِ، وزيادة الجهل، وتسلُّط المفسدين لما رأوا هؤلاء فقالوا: هذا هو الدِّينُ، ولا يسعنا إلا أن نُبْعِدَ النَّاسَ عَنْهُ! فدعوا إلى الجهل، ووافق ذلك ما في نفوسهم من البلاء والفتنة -نعوذ بالله من ذلك.

• إذن نقول: ملائكة ما مرَّ كله أنَّ متى ما كان الدَّاعية مستعصماً بالعلم مستمسكاً به هو ديدنه وطريقه في هداية النَّاسِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ -بإذن الله جلَّ وعلا- يكون أسلم له، وأسلم لمن يتَّبِعُوهُ، فيكون على الخير والهدى -بإذن الله جلَّ وعلا.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.





## الدرس العاشر



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

### وسائل الدعوة، هل هي وسائل توقيفية أو اجتهادية.



- لما كثر الجهلُ ووُجدَ من المتحمِّسةِ للدَّعوة وربَّما احتفَّ بها نوعُ جهالةٍ، وربَّما كانَ الأمرُ أكثرَ من ذلك في أنَّ بعضَ الجهاتِ أو الجماعاتِ أو المؤسساتِ التي تصدَّت للدَّعوة كان منها إعراض عن العلم. وتأمَّل الفرق بين المسألتين:
  - ★ كان عند بعض المتحمِّسةِ جهالة في العلم.
  - ★ وكان عند بعض المؤسسات إعراض عن العلم، يعني: اكتفاء بما لديها، ثقةً بما عندها، حتى ولو وُجَّه إليهم شيءٌ من الصَّواب، أو أُريدَ لهم بيانُ بعضِ ما يخفى عليهم من الحقِّ لربَّما تمسَّكوا بما هم عليه، وذلك نتيجة لما جدَّ في هذه الأعصارِ من الانتماءاتِ والتَّعصُّباتِ والولاءاتِ التي لا يكون لها أصلٌ صحيحٌ، وإن كان لهم نيَّةٌ طيِّبةٌ في بعضِ الأحوالِ أو عندَ بعضِ الأفراد.
- فلمَّا كان الأمرُ كذلك وُجدت طرائقُ جُعِلَتْ أصلاً في الدَّعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- فدارَ مثلُ هذا الحديث، وكثُرَ الكلامُ في مثلِ هذه المسائل، فنحن حينما نتكلَّم عن المسألةِ مِن حيثُ هي لن نجدَ في ذلك كلاماً واحداً، وإنَّما هو تأصيلٌ ثم دخولٌ إلى التَّفرُّيع.
- فمِن جهةِ التَّوقيفِ: نحن نعلم قطعاً أنَّ أموراً جاءَ بها الشَّرْعُ هي أصلُ الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- ولا يُمكن أن يوجد غيرها، أو لا يُمكن أن يُستغنى عنها.

- على سبيل المثال: خطبة الجمعة: هذه دعوة للناس وهداية لهم، جاءت على وجه وطريقة وبأحكام وشروط، وفي ذلك ما هو مبسوط في كتب الفقه في كتاب الجمعة.
- فلو أراد شخص مثلاً أن يقول: الناس الآن مُعرضون، والناس الآن لاهون؛ فلنجعل ليوم الاثنين كيوم الجمعة حديثاً مُذكرًا للناس ومعيناً لهم؛ لم يكن ذلك صحيحاً البتة؛ لأنَّ الشرع جاء فحكّم ففقط ما يتعلّق بذلك من جهة أنّها عبادة مختصة لا يُقاسُ عليها، ولا يُنتقل عنها، ولا يُراد فيها ولا يُنقص.
- جاء على سبيل المثال: أن الله -جلّ وعلا- جعل هذا الكتاب شرعةً فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، فجعله الله -جلّ وعلا- منهاجاً للناس وطريقاً سليماً، لا يمكن لأحد أن يدعو إلى الله -جلّ وعلا- فيستغني عن القرآن، أو يظنّ أنّه يُمكن أن يوجد طرائق أو مسالك، أو رقائق يُرَقِّقُ بها القلوب بدون ما استمسك بالاعتصام وصدور عن كتاب الله -جلّ وعلا-.
- فلو جاء شخص بالمذائح أو بالقصائد الوعظية أو بغيرها من الحداثات أو نحوها مُعرضاً عن كتاب الله -جلّ وعلا- كان ذلك باطلاً، وكان ذلك غير صحيح.
- وهذا أيضاً مبسوط ومُقرّر عند أهل العلم لما حدثت مثل هذه الأمور، والتكثّر بالمديح وهذه القصائد، وجعلها أصلاً يُصلح به القلوب، وليس الأمر كذلك؛ فإنّما الأمر قول الله -جلّ وعلا- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [البقرة: 275]، فهذا هو الشِّفاء، وهذا هو الهدى.
- مثل ذلك: سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يُمكن لأحد أن يستغني عنها، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7]، فهذا أصل صحيح، ولذلك جاء في كتاب الله -جلّ وعلا- أكثر من ثلاثين آية بالأمر بطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ثم جاء التحذير من مخالفته، فقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، ثم جاء الأسف والتندّم على ترك منهاجه، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا\* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا\* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا\* وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان 27 - 30]، ثم جاء أيضاً ما هو أعظم من ذلك ببيان عذاب من تخلف عن طاعة الله وطاعة رسوله، فقال: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ\* وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا\* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب 66 - 68].
- سأذكر لكم مثلاً يسيراً: أهل الكلام -تسمعون بهم وتعرفونهم- الذي يُعزّز عنهم أهل العلم بـ "أهل الكلام" من المعتزلة والأشاعرية ونحوهم؛ هؤلاء في أصل الأمر جاؤوا إلى العقائد وقالوا: نريد أن نثبتها بالأدلة العقلية حتى يهتدي بها الناس، وأدلة القرآن والسنة لا يقبلها إلا المسلم، فبدؤوا في الأدلة العقلية وتركوا الكتاب والسنة، فصار لهم الحيرة والتناقض؛ لأنّ ليس كل شيء يُدركه العقل ويستطيع إثباته ويكون المصير إليه، ولذلك جاء

من السلف تكاثر الكلام في ذمهم، فيقول الشافعي: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، وتُسود وجوههم ويُطاف بهم في البلدان".  
وقال قائلهم الرازي:

وأكثر سعي العالمين ضلالاً

نهاية أقدام العقول عقال

وحاصل دنيانا أدنى ووبال

وأرواحنا في وحشة من جُؤمنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

- إذن هذا هو المبدأ، فيتفرز معنا أن الأصل في الدعوة هو ما جاء في الكتاب والسنة، وما سنّه لنا خير هذه الأمة وخير البرية أجمع محمد -عليه الصلاة والسلام- كان هو الأصل وهو المنهاج، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153].
- ولن تجد للناس أنفع ولا أنجع ولا أحسن ولا أتم ولا أكمل ولا أفضل ولا أسهل من أن سلكوا سبيل النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي دلّه عليه الله -جلّ وعلا- في هداية الخلق وتأليفهم، فهذا أصل لا يختلف فيه، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- استعمل التعليم، واستعمل المثال، واستعمل السؤال، تخولهم بالموعظة، جعل لهم مجالس مختلفة، بين بالقودة والفعل، وأقر الصحابة على بعض الأمور ونهاهم عن بعضها؛ فاستقامت بذلك الشريعة، وكملت بذلك الأحكام، فينبغي للداعية أن يطلب ذلك بما جاء في الكتاب والسنة، سواء في خطب الجمعة، أو في وعظ الناس في مجالسهم وتخولهم بها -كما جاء في حديث ابن مسعود وغيره- والتغيير عليهم، فأحياناً بالسؤال، وأحياناً بالتقرير، وأحياناً بالمثال، كقوله -صلى الله عليه وسلم-: «مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا»<sup>١٣٠</sup>، إلى غير ذلك من الأحاديث، وهذا في كتاب الله، وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

- فهذا هو الأصل، وهذه هي الدعوة، وبهذا يهتدي الناس ويستقيموا، ولا ينبغي للإنسان أن يتكلف كثيراً في سلوك مسالك أخرى، فإنه لا يتكلف في هذا إلا خشي على الإنسان العطب؛ لأنه إذا ما اختلف الناس فعليك بالأمر الأول كما جاءت بذلك الأحاديث، والواقع يُثبت هذا، فأناس سلكوا مسالك معينة أفضت بهم إلى أن أهل العلم أنكروا عليهم تلك المسالك، إمّا في تركهم لأصول الدعوة من الدعوة إلى التوحيد والهدى، وإمّا في جعل على أنفسهم أشياء لم يوجها الله -جلّ وعلا- من سفر لمدة معينة، أو بعض الطقوس التي يفعلونها، أو طرائق في الذكر، أو جعل عصمة لمن ليس بمعصوم والصُدور عنه، وجعل كتبه هي الأصل، وما هو أعظم وأضلّ عند أهل الرّفض من جعل العصمة لآل النبي -صلى الله عليه وسلم- وإطراح من سواهم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- رضوان الله عن الآل والصحب أجمع، فبمثل هذا تكونت مثل هذه الضلالات.

❓ ماذا تقصدون بالوسائل التي يُتحدثُ أنه يُجتهد فيها أو لا يُجتهد؟

<sup>١٣٠</sup> صحيح البخاري (3196)، صحيح مسلم (4241).

- إن كان المقصود بالوسائل ما استحدث النَّاسُ الآن من آلاتٍ ونحوها في إيصالِ العلمِ أو رفعِ الصَّوتِ ونحوها، كالمكبرات، أو مثل هذه الأشرطة، أو الشَّاشات التي يُنقل فيها هذه الدُّروس والخطب ونحوها ممَّا يستفيد به النَّاس، أو ما استُحدث من هذه المطابع التي تطبع الكتب الكثيرة في الأوقات الوجيزة خلافاً لما كان فيما مضى؛ فإنَّ هذه لم يختلف أحدٌ من أهل العلم المعاصرون ولا السَّابِقين باعتبار جملتها ونوعها أنَّها مطلوبة إلا ما جاء فيه إشكال بخصوصه، كنحو تصويرٍ في بعضها أو أشياء تتعلَّق بخصوصيةٍ معيَّنة لا من أجل أنَّ هذه وسيلة للدَّعوة وطريق إليها.
  - فإذاً هذه خارجة عن محلِّ النَّقاش والبحث والإشكال، فلم يزل أهل العلم الآن يوصون باستعمال مثل هذه الوسائل والإفادة منها، ولم يجعلوها داخلة في أصل هذه المسألة ومحلِّ الكلام عليها؛ بل إنَّ بعض أهل العلم الذين لهم موقفٌ من التَّصوير-كبعض مشايخنا- لما رأى الحاجة مُلحَّةً إلى اقتحام مثل هذه الشَّاشات ونحوها أفتى بجواز ذلك مع تحفُّظه على أصل التَّصوير، لعظم الحاجة، وتوقُّف الوصول إلى النَّاس على مثل هذه الوسيلة، وما يترتَّب عليها من منافع عظيمة، وما يحصلُ بتركها من الشَّرِّ العظيم المتسَّطير.
  - وتبقى مسائلٌ لو نظرنا إليها لرأيناها قليلة، فإذاً جعل هذه المسألة أصل في كونها اجتهاديةً أو توقيفيةً مُشكِلةً، فنرجعُ إلى كون الدَّعوة واضحة، وطرائقها مسلوكة عند أهل العلم، وثمَّ مسائل أو بعض الوسائل التي جدَّت في هذا العصر تُبحثُ بخصوصها.
- أبرز هذه الوسائل التي دار فيها النَّقاش:

□ **أولها:** التَّمثيل.

□ **ثانيها:** الحداء والأناشيد، وجعلها وسيلة من وسائل الدَّعوة.

□ **الثَّالث:** القصص.

أمَّا التَّواصل الاجتماعي فهو داخل في القسم الأوَّل الذي لم يتعلَّق بالثَّاني، فهي وسائل، ونقول: إنَّها لا إشكال فيها؛ لأنَّ حقيقة الدَّعوة تصل كما هي، يعني الحديث يُقال حديثاً، لكنَّه إمَّا أن يُسمع مشافهةً مِنِّي، وإمَّا أن يُسمع بمكبراتِ الصَّوت، إمَّا في المحفوظ الذي تحفظه فتنقله، أو الذي تبثُّه مباشرةً مثل البثِّ المباشر ونحوه. هل اختلف الحديث عن هذا؟ لا، لم يختلف.

□ **الأمر الأوَّل:** التَّمثيل.

نأتي إلى التَّمثيل في أصل الأمر، فالتمثيل أخذ من استعمالات فاسدة وُجدت في أول الأمر بجعله في العُمر والعفن وأنواع من التَّفَسُّخ، وبعض الفهوم الفاسدة، وإرادة تمرير بعض الرسائل السيئة والخاطئة والشبهات في الشرع وغيره، فجاء بعض المتحمِّسة فأخذ منه روحه، وجعله لأشياء طيِّبة.

- فنقول: في مثل هذا الحال أنَّه فيه محظورات:

◀ **أولاً:** هذا التَّمثيل مأخوذٌ من طرائق أهل الشَّرِّ.

◀ **ثانيًا:** أنَّه لا ينفكُّ من وجود بعض الكذب، ففيه مبالغات.



- ◀ **ثالثاً:** ربّما يدخل فيه ما ليس في أصل ما يُراد بالقصّة أو الفكرة أو المسألة، أو الحكم، أو نحو ذلك.
- ◀ **رابعاً:** ما يترتب عليه من جعل التمثيل ونحوه مألوف، فيتوسّع النَّاس فيه -كما حصل الآن- بدأ النَّاس قبل عشرين أو ثلاثين سنة بأشياء مخصوصة وتعليميّة ونحوها، ثم آل الأمر إلى انفتاحها بالدُّخول في مباحاتٍ، ثمّ انضمَّ إليها أشياء قد تكون محرّمة.

• يتلخّص من هذا:

- ★ **أنّه من جهة لا يوصّل الدّعوة على وجه صحيح.**
- ★ **ومن جهة أنّه بابٌ أخذ من أهل الشّرّ، ولا يزال الشّرُّ ممكن الانفتاح من خلاله وزيادته.**
- ★ **ومن جهة أنّه لا ينفك من نقص ما يحتويه من الحكم الصّحيح، أو المسألة التي يُراد بيانها، ونحو ذلك.**
- **أنّ العلم عظيم، وتمثيله بجعله على سبيل الفكاهة أو مائلها أو نحو ذلك هو تهوينٌ لشأنه، والله -جلّ وعلا- يقول لنبيّه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 5]. لماذا؟**  
حتى يتهيأ له، فدلّ على أنّ العلم ممّا ينبغي التّهيؤ له وتعظيمه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظَّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].
- **ولمّا ذكروا صفة تنزل الوحي على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قالوا: "يُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبُرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا" ١٣١.**

### ❓ ماذا تستفيد من ذلك؟

- **تستفيد أنّ الله -جلّ وعلا- أراد أن يُبين أنّ هذا العلم ليس باليسير، وأنّ الأخذ له لابدّ أن يتهيأ، حتى النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- الذي عصمه الله يُثقله، ويظهر عليه أثره، فإذا مرّر بمثل هذه الرّسائل والأضحوكات وما يتعلّق بها؛ استهان النَّاس بالعلم.**  
فلأجل ذلك كان الأمر لا ينفك أن يكون شيئاً لا يُحصّل المقصود، فيدخل العلم في دائرة الانتقاص، وإن لم يكن ذلك دائماً، وإن لم يكن ذلك مستمراً، لكن إذا وُجد في البعض وكان ممكناً فإنّ الحكم يتعلّق بالجميع، لأننا لا نستطيع أن نضبط هذا عن ذاك.
- **فعلى كل حال؛ جعل التّمثيل من حيث أصله طريقاً مسلوفاً للدّعوة هذا تردّ عليه إشكالات كثيرة، فإذا انضمّ إلى ذلك تمثيل بعض أهل الفضل، ويقوم بهذا من ليس أهل لذلك، وربّما يُزاد إلى تمثيل الصّحابة، وجعل الله -جلّ وعلا- لهم ولآل النّبيّ -صلى الله عليه وسلم- من المنزلة والخصوصيّة ما لهم؛ فإنّ ذلك لا شك أنّه نوعٌ انتقاص وإساءة إلى من جعلهم الله -جلّ وعلا- نجومًا يُهتدى بهم كما دلّت على ذلك النّصوص والأحاديث، وما جاء في خصوصيّتهم من القدر والمنزلة والمكانة.**

□ **الأمر الثّاني: الأناشيد.**

١٣١ صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب بدء الوحي/ رقم (2).

- الحداء جاء الشرع بالإذن فيه، وجاء في بعض أحوال النبي -صلى الله عليه وسلم- في السفر، فبعضهم ربّما يلحق به شيء من الملل وعناء الطريق وشدة الشمس، إلى غير ذلك ممّا احتفّ بهم؛ فيُحرِّكون نفوسهم ويقوون، فأصل هذه الحداءات والأناشيد إنّما هي معين لهم على ما اشتدّ بهم من أمر سفر ونحوه.
- فإذا وُجدَ على هذا النّحو فالأمر فيه محتمل، وفيه سعة، لكن أن يُجعل قالباً للدعوة إلى الله -جلّ وعلا- هذا أوّل شيء غير متصوّر تماماً، ففي الواقع أنّ هذه الحداءات فيها من الحماسة، وشيء من الأنس، فهذا ليس فيها تعليم مسألة، ولا وعظ.
- فإن كان الوعظ في الحداءات أو التّمايلات أو الرّقص؛ فهذا سيسلك مسلك أهل التّصوّف، وقد جاء عن علماء أهل السّنة والجماعة التّحذير من ذلك وعدم الانزلاق فيه، وما يترتّب على ذلك من محاذير تبدأ في هبّات الذّكر، وتنتهي إلى ضلالات كبيرة لا حدّ لها.
- فإذا من ترك هذه الأمور من أهل العلم مقصورة على ما جاء فيها، يقول: من احتاج إليها كمّن شقيت نفسه، أو لقصّت، أو تعبّت، أو نحو ذلك؛ فحمّسها.

### بَغَيْرِ عَنَاءٍ وَالْجُنُونِ فُنُونُ

### تَمَنَيْتُ أَنْ تُمَسِّيَ فَقِيمًا مُنَاطِرًا

- فَمَنْ كان كذلك فحرّك نفسه بهذا قليلاً فلا بأس كما جاءت به السّنة، أو من وجد تعلّقه بالأغاني والطّرب ونحوه، فاستعاضَ قليلاً عن ذلك بشيء يمنعه من الوقوع في الحرام، فلا بأس.
- ونحن نقول "قليلاً" لأنّه لئن يمتلئ قلب الإنسان قيحاً خيراً من أن يمتلئ شعراً لما يترتّب عليه من تحريك النّفس إلى الملهيات والشّهوات ونحو ذلك، فهذا قد يكون فيه ما فيه، لكن أن يُجعل طريقاً للدّعوة فلا، ولأنّه لمّا جُعِلَت أشعار الحماسة طريقاً للدّعوة تلقّاها من تلقّاها ثمّ لحقّ بهم شيء من الحماسة على غير أصلٍ فوقعوا في أخطاء كثيرة، وربّما لحقوا ببعض أهل الضّلالات كالإرهاب واستباحة الدّماء، ونحو ذلك من المسالك المشيئة.
- فإذا تكلمنا عن هذا من جهة أصل الأناشيد، فإذا انضمّ إلى ذلك شيء آخر، فالنشيد الآن لم يعد حداءً تُحرّك به النّفوس؛ بل صار صنعة ومهنة تُماثل وتُقارن الموسيقى وأهل الغناء والشّعر، فتُلجّن كما تُلجّن تلك، ويتصدّى لها من يتصدّى لذلك، ويُجعل لها من الأمور ما يُجعل لتلك، حتى إنّ آلات اللّهُ نُقلت بطريقة أو بأخرى فضُمَّت إلى ذلك، ولم يزل أناس يقولون هي أناشيد مجرّدة أو كذا حتى آل الأمر إلى أن صارت أمراً مستساغاً، يعني دخول هذه المحرّكات أو ما يُسمّونه بالمؤثّرات الصّوتيّة، فوصل الأمر إلى خلل كبير.
- إذن ينبغي أن يُعرّف أن هذه ليست ممّا يحصل به الدّعوة أصالة، وليست هذه طرائق أهل العلم، وليست هذه سبيل من يتصدّى لهداية النّاس ودعوتهم، وطلب إرشادهم واستقامتهم على سبيل أهل الحقّ والهدى.

### □ الأمر الثالث: القصص.

- القصص من حيث الأصل لا إشكال فيها، وقد جاءت بها الآيات، الله -جلّ وعلا- يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: 111]، ومن أعظم ما يُحرّك النّفس ويعظمها القَصَصُ، فإذا كانت قصصاً صحيحة كقصص الأنبياء والصّحابة وما في حكمها؛ فإنّ هذا ممّا يؤمّر به

ويحصل به هداية للعبد، ويتعظ القلب وتُحرَّك النفوس، وهذا جاء في كتاب الله -جلَّ وعلا- في مواضع، وجعله الله -جلَّ وعلا- سلوة لرسوله -صلى الله عليه وسلم- وجعله النبي -صلى الله عليه وسلم- سلوة لأصحابه، «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيَجْعَلُ فِيهِ فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ»<sup>١٣٢</sup>، وذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- من أخبار ما سبق شيئاً ليس بالقليل.

- أمّا أن تُختلق في ذلك القصص أو يُدخل فيها ما ليس منها فقد يُظنُّ أنَّها مصدرًا للأحكام، أو أنَّ ما يُروى عن فلان أو فلان هو كالحُجَّة القائمة وكالعمل الصَّحيح ونحو ذلك، فهذا يُخرجها عن دئرتها ويقع في الخطأ. فنقول: إنَّ استحضار بعض القصص وتقريبها للنَّاس وهداية النَّاس بها أمرٌ صحيحٌ جاءت به السُّنة، لكن إذا انضَمَّ إلى ذلك الكذب أو الخطأ، أو جعلها أصلاً يؤخذ منه الأحكام أو نحو ذلك؛ فإنَّ ذلك يكون ممَّا يُردُّ ويُمْنَع، ولا يُمكن لأحد يعلم ما دلالات الكتاب والسُّنة وما قرَّره علماء الأُمَّة إن كان حنفيًّا أو مالكيًّا أو شافعيًّا أو حنبليًّا أو ظاهريًّا أو من أهل الحديث من أهل العلم -أهل السُّنة والجماعة- فلا يُمكن أن يقول بشيء من ذلك، إلا من أُشرب قلبه هواه، فلحق بملاحق الخلل والخطأ.
- إذن هذه لو نظرت في حقيقتها لن تجد فيها شيئاً، وحتى لو وُجد شيء من ذلك واختلفَ في أصله، فحالنا مثل ما قرَّرنّا سابقاً أنَّ أيَّ مسألةٍ اشتبهت عليك وأنت في طريق الدَّعوة فإنَّه لا يُمكن لطالب العلم أن يَبْتَ فيها برأي، وأنَّه لا ينفك الطَّالب في مرحلته الأولى والمتوسِّطة من الصُّدور عن أهل العلم فيما أشكل عليه، فكيف إذا كان ذلك منهاجاً يسلكه في دعوته ويعتاده في عمله؟! فيتبيَّن بهذا سواء قلنا أنَّها اجتهاديَّة: فذلك يتعلَّق بما يُمكن الاجتهاد فيه من الوسائل التي جدَّت، أو من الأشياء التي يسَّرت انتقال العلم ووصوله.
- وإن قيل إنَّها توقيفيَّة: فالمراد من ذلك ألا يُدخل في دين الله -جلَّ وعلا- ممَّا يُتعبَّد به من الأعمال ما ليس بصحيح، فتكون دائرة الإشكال بعد ذلك ضيقة جداً أو لا تكون إذا تكلمنا على هذا النِّحو. وتعرفون كلام أهل العلم بالنِّسبة لحكم الأناشيد ونحوها ابتداءً، لكن سأقول لكم شيء: رأينا أحياناً أنَّا لأمر بدأً بأناشيد يسيرة وكلماتٍ صحيحة ونحو ذلك، فانتَهت إلى أشياء مُشكلة، إمَّا أن يكون الحديث مشتمل على ألفاظٍ من الذِّكر فيكون على هيئة الذِّكر الجماعي، كمن يُنشد ويقول "صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" إلى غير ذلك من الأشياء التي يذكرونها ويعتدونها، وينسى أن ذلك ذكر، وأنَّ الذِّكر يُتعبَّد الله -جلَّ وعلا- به، وينبغي ألا يكون إلا على الطَّريقة المشروعة، فدخل من خلال هذا مخالفات. فلأجل ذلك قلنا: إنَّها لم تزل تجتُر بعض النَّاس حتى وقعوا في بعض الخلل، ولا ننسى أنَّ بعضهم ربَّما كان له رأي في هذا أو ذاك ولم يزل محافظاً، لكن أين هو!

<sup>١٣٢</sup> صحيح البخاري (3366).

- ونقول: سواء قيل إنَّ الوسائل اجتهادية فإنَّ ذلك لا يعني أنَّ الاجتهاد لي ولك؛ إنَّما لأهل العلم الراسخين ينظرون هل لهذا الطريق أصلٌ صحيح من كتاب الله -جلَّ وعلا- ومن سنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم؟ هل يَسلم من الإشكالِ ومن الوقوع في محذورٍ إمَّا كذب وإمَّا انتقاص، وإمَّا انحراف أو غير ذلك؟
- فالمسائل التي فيها الكلام قليلة، ثمَّ إنَّ هذه المسائل فالأمر بالنظر فيها واحدة واحدة يتبيَّن محل الإشكال، وحتى لو قيل إنَّها اجتهادية فهذا لا يعني أنَّها مفتوحة للجميع، وكلُّ يجتهد ويضربُ فيها برأى، فلم نقل إنَّها مفتوحة للرأي العام أو نحوه، فهذه أحكامُ شرعٍ ودينٍ واتِّباعٍ، فلا بدَّ أن يكون هذا الاتِّباع على منهاج صحيح، وعلى أصل من كتاب الله -جلَّ وعلا- وسنَّة نبيِّه -صلى الله عليه وسلم.
- عند ذلك يكون الأمر في هذا واضحاً لمن طلب الهدى، ولمن سلك سبيلَ أهل الرشد، ولمن يستنُّ بسنَّة النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- والدَّاعية إلى الله له فيما سنَّه له النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- طريقاً كافياً، وما نحن نرى من أهل العلم وأهل الفضل وأهل الدَّعوة من كَتَبَ الله له قبولاً، وكَتَبَ الله -جلَّ وعلا- له أثراً، وانتفع النَّاس بعلمه وبدعوته، وبهدايته وبوعظه، ولم يكن في ذلك لا متكلِّفاً، ولا سالِكا سبيلاً بعيداً، ولا منتقلاً عمَّا جاء في كتاب الله وفي سنَّة النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- وما أُثِرَ عن صحابته الكرام، ورأينا في المقابل من تكلفَ واجتهد فكان أمرهم إلى خللٍ، وربَّما قصُرَ ذلك الخلل وربَّما عظمَ، ولا نريد أن نزيد ولكن الواقع يشهد بأنَّ هذا الباب انفتح على أناس فوصل بهم إلى شرِّ كبيرٍ.

**؟ ذكرتم المسألة من حيث التَّأصيل، أمَّا من حيث التَّفريع والواقع نجد أنَّ بعض الدَّعاة يغشون إلى أماكن غير مناسبة للدَّعوة، فيذهبون مثلاً إلى حفلة غنائية ويدعون من خلالها، أو يذهبون إلى السُّوق فيأتون بسماعة كبيرة ويدعون بهذه الطريقة، ثم يقولون إنَّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو في الأسواق، فمثل هذا المسلك -غشيان البيئة التي لا تناسب الدَّعوة- هل هناك بيانات تناسب الدَّعوة وأخرى لا تناسب؟.**

- هذه مسألة مهمَّة، وأهل العلم ذكروا ما يتعلق بالدَّهاب إلى مكانٍ فيه معصية، فإن كان الدَّاهب يستطيع الإنكار ويمنع المنكر فلا غضاضة في ذلك، فهذا مشروط بشرط أصيل، وهو أن يأمن على نفسه، فإن كان يترتب على ذلك أن ينظر إلى مناظر فاضحة أو أن تبقى بعض الأمور السيئة، أو تُمارس بعض الأمور المحرَّمة فلا، فله غُنيَّة، ولا يحتاج إلى أن يدخل إلى هذه الأماكن، كأماكن الاحتفال، واختلاط النِّساء، وتعاطي الخمر، وغيرها؛ فإذا كان يستطيع أن يمنع ذلك وينتقل بهم إلى ما يكون فيه صلاحهم فينفصل الرِّجال عن النِّساء، وتستر النِّساء، ويكون بمنأى من الافتتان بشيء من ذلك، ويدعو النَّاس؛ فلا غضاضة.
- كذلك إذا كان في سوق، فإذا أمكن أن يعلم أنَّ الناس يستمعون إليه، ولا يستهزؤون، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108]، فإذا أمكن إيصال العلم في مثل هذا فلا بأس، لأنَّ هذا -كما قلنا- من النُّوع الأوَّل من الوسائل، التي هي قوالب للدَّعوة، فإذا غشي النَّاس في بعض أسواقهم أو تجاراتهم أو نحو ذلك فلا غضاضة، وأذكر أنَّ كثيراً من مشايخنا كان على هذه الطَّريقة، فالشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السُّعودية كان يوم الخميس -على وجه الخصوص- يعلم أنَّ البوادي



يقدمون من أماكن سكنهم وهم قليلي العلم ويحتاجون إلى التبصير ونحوه، فيستقروا في السوق، فربما خصهم بشيء من ذلك، وهذا قد جاء ما يُماثله، فإنَّ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- خصَّ النَّساء بحديث، فإذا أمكن ذلك على وجه لا يحصل به منكر، ولا يكون فيه امتهانٌ للسُّنَّة والأحاديث ونحو ذلك؛ فلا شيء في ذلك.

**؟ بالنسبة للأفلام الإلكترونية الكرتونية، أحياناً يُسرد حديث، ويُراد إيصال فكرة من خلال هذه الأفلام.**

**فهل هذا يُعتبر من التمثيل؟**

- الحقيقة أنا أرى أنَّ هذه لا تسلم من الخلل! وما تذكره يُمكن أنَّك متصوِّرٌ له، لأنَّك قد رأيتَ بعضه، وأنا الحقيقة لم أرى شيئاً من ذلك، أو رأيت قليلاً، فإذا كان ذلك يحتوي على رسومات آدميين ونحوها؛ فلن ينفكَّ من محظورات، وإذا لم يكن فيه شيء من ذا ولا ذاك وأمن من أن يكون مختصراً لما جاء به النَّص أو مُغيِّراً له أو نحو ذلك فمحتمل، ولكن مهما قلنا في هذا فإنَّها صورة ليست واحدة حتى نقول من أنَّها جائزة، بل هي منهاج، فإذا بدأ بالكرتون انفتحت عليك أشياء كثيرة ودخلت في الخلل! فلأجل ذلك نقول: إنَّ السَّلامة منها لا يعدلها شيء، فالأفلام الكرتونية التي تُطلب للصِّغار ويكون فيها أحياناً طلب بعض المعاني الجيدة لا تنفكَّ من إشكالاتٍ، فهذا زمان كثر فيه الخلل والخطأ، وعسى الله أن يعصمنا من الرُّلُل.
  - وأنا لا أزيد في هذا، فما ذكرته كان على سبيل المذاكرة لا على سبيل التَّقرير ولا على سبيل الإفتاء، وإنَّما على سبيل المراجعة، وعلى سبيل التَّنبيه أنَّه لا ينفك من أن يخرج عن دائرته أشياء لا يُمكن إتقانها أو ضبطها أو الإتيان على قيود معيَّنة فيمتنع ما سواها.
  - وكما قلنا: لورجعنا إلى بعض الأشياء التي وُجدت كان يُقال "بشرط أن تنتهوا إلى كذا أو إلى كذا"، فدارت الأيام فوق النَّاس فيما هو أشدَّ من ذلك بكثير، ولأجل ما وصلَ بعض النَّاس إليه في مسألة كمسألة الأناشيد أن انتقلوا من مرحلة إلى مرحلة حتى انتقلوا إلى الموسيقى الصَّريحة، **وقالوا:** لا فرق بين هذا وذاك. والله المستعان!
- ؟ بالنسبة لهذه الأناشيد، تجدها أحياناً مناسبة لحفظ بعض الأذكار للصِّغار. فما حكمها؟**
- أنا لم أتكلم في الأناشيد من حيث هي، أنا تكلمتُ من حيث إنَّها تُعتبر ممَّا يُدعى به إلى الله -جلَّ وعلا- بها، هذا من جهة.
  - الجهة الثانية: إن كنتَ تقصد بذلك بعض المنظومات التي تحتوي على بعض العلوم أو بعض الأشياء التي يستفيد منها الصِّغار، ولما كان الصِّغار يتلقَّونها مجتمعين قيلقنَّونها ويأخذونها بصوتٍ واحدٍ فهذا ليس محل الكلام، والأمر فيه يسير.
  - وإنَّما الكلام في الحداثات التي تُجعل على سبيل التَّطريب والتَّلحين، وتُملأ بها النُّفوس وتتحرك؛ فهذه هي محل الإشكال من جهتين:

◀ **أولاً:** من حيث سلامتها من الخلل ومن المعصية، وكونها مأذون فيها أو لا.

◀ **ثانيًا:** من حيث سلامتها من الإضرار إلى ما هو أشد، كإلحاق المؤثرات أو دخول بعض الأذكار فيها، أو غير ذلك من الأشياء التي تقع.

**؟** أكثر الإشكالات فيما يخص الوسائل المشروعة هي ما تأتي من الوسيلة نفسها، وإنما تأتي من مستعمل الوسيلة، يعني تجرأ بعض الناس في الدَّعوة لأجل توفرها لكل الناس، فبدؤوا يدعون امتثالاً لقوله -صلى الله عليه وسلم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>١٣٣</sup>، وهو ليس طالب علم شرعي؟.

- هذا كلام صحيح، وكنت أظنُّ أنَّ الحديث يسع لأن نتحدَّث عن هذا الموضوع، وهو: وسائل التَّواصل الاجتماعي، وطريقة الدَّعوة من خلاله.
- فهذا الباب من أكثر الأبواب التي يُحتاجُ فيها إلى الحديث، ووسائل التَّواصل الاجتماعي ومواقع الإنترنت ونحو ذلك -أو بعبارة أخرى: استعمال التَّقنية في الدَّعوة إلى الله جلَّ وعلا.
- إذا كان الأمر كذلك فهذه وسائل موجودة الآن؛ بل غالبيةً وطاقيةً، فهي انفجارٌ وبركانٌ وثورةٌ، حتى البهائم كادت أن تفهم من خلالها، لكثرة حصولها ووجودها وانتشارها، بل صارت أعظم من المخدِّرات، تجد أنَّ بعض النَّاس لا يستطيع أن يستغني عنها، وأناس في المجلس وليسوا فيه، وأصعب على الإنسان أن يُحبس عنها؛ فأن يُحبس في مكان أسهل من أن يُحبس عنها، فلو جعلت مع بعض النَّاس ما يصل به إلى هذه البرامج في مكان وحيد فريد فهذا أنس له، ولو جعلته في العراء والهواء وفي المدن يذهبُ ويحيي وأمسكت عنه هذه الأجهزة التي يدخل من خلالها إلى ذاك لظنَّ أنَّه محبوس!
- فلما كان الأمر كذلك احتجنا إلى أن نتحدَّث عن هذه الوسائل، من خلال أمور:

★ **أولًا:** الدُّخول فيها للدَّعوة إلى الله.

★ **ثانيًا:** التَّلقي منها.

★ **ثالثًا:** التَّفريق بين الأحكام فيها.

★ **رابعًا:** ما يحصل الآن من أنَّ كلَّ أحدٍ -مثل ما ذكرت- يتصدَّى للدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- تأتية مثلاً رسالة فيها حديث عن النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- فيقول هذا خير، فما يزيد إلا أن يضغط ضغطة للجميع فيُرسل ألف رسالة، ثم يرسلها كل واحد من الألف إلى ألف، ففي عشر دقائق يُمكن أن تصل إلى مليون!

فإذا انضمَّ إلى ذلك أن كانَ هذا الحديث موضوعاً؛ فكيف يتعلَّق بذلك من الخلل؟ وكما سنحتاج إلى تصحيح هذا الخلل، ونمنع تعاطي الناس لمثل هذا الموضوع؟

فإذا كان هذا من واحد في عشر دقائق، فكيف إذا كان من مليون؟ وكيف إذا تكرر ذلك بتكرُّر الدَّقائِق والسَّاعات؟!

وصلَّى الله على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

<sup>١٣٣</sup> صحيح البخاري (3226).

## الدرس الحادي عشر



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كنّا في المجلس الماضي استهللنا في نهاية الحلقة ما يتعلق بـ "وسائل التّواصل" والعمل من خلالها في الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- وذلك باب لا يُمكن اطّراحه ولا نسيانه ولا إهماله، كيف وقد صارت هذه المواقع وهذه التّواصلات نافذة أصيلة في كل ما يتعلق بنواحي الحياة، حتى لا يكاد الإنسان يستغني عنها في بابٍ من الأبواب، فإنّ المعاملات الرّسميّة وغير الرّسميّة والعلميّة وغير العلميّة صارت تُقَرَّب إلى النّاس من خلال هذه النّوافذ، فيدخلون إليها يقضون حوائجهم وينهون تعاملاتهم.
  - والعجب أنّ كثيراً من هذه الأبواب صارت باباً إلى شُروخ كثيرة وإضاعة وإهمالٍ للأوقات، وإهدارٍ للطّاقات، واشتغالٍ بما لا يُشتغل به، حتى صارت سمّةٍ لمرضى من أمراض العصر، وهو: الانفراد، التّوحد، الانعزال، ترك ما أَلْفَه النّاس من الاجتماع واللقاء والحبّيّة والأريحيّة في اللقاءات العائليّة والصّدقات ونحوها؛ ولمّا كان الأمر كذلك كان لابد من الحديث عن الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- من خلال هذه الأبواب.
  - حقيقة لأبْد من الكلام على أنّ هذه النّوافذ وهذه الأبواب لا حدّ لها، فلا يُمكن أن نقول: إنّ الكلام في الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- من خلال هذا الباب، أو من خلال باين أو ثلاثة.
- ولا يمكن أن نقول: إنّنا نتكلّم عن الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- من خلال هذه الأبواب كلّها؛ لأنّ بعض هذه الأبواب لا تنفك من شروء، فالدخول من خلالها يترتب عليه شرٌّ لا محالة.

• فإذا كان الأمر كذلك فإن الحديث لا يدخل فيه مثل هذه المواقع، وهي ليست قليلة، وذلك لأنها إمّا أن تكون مُرَوِّجَةً لنوعٍ من أنواعِ التواصلات المحرمة، أو التي فيها أصوات وموسيقى، أو ذا وذاك، أو ربّما كان غير ذلك ممّا فيه من إعلاناتٍ إلى أبوابٍ مِنَ الشُّرورِ وممّا يُضادُّ الشَّرْعَ ويُخالف ما جاء به أمر النَّبي -صلى الله عليه وسلم.

• فلأجل ذلك نحن نتكلّم عليها بجملتها لا بخصوص واحدٍ منها ولا باعتبارها كلها، ولكن من خلال هذه الأبواب التي يُمكن أن يفصل ما بين خيرها وشرها، ويُمكن تمحُّض الخير من خلالها والإفادة منها دون ما أن يرجع السوء علينا، ودون ما أن يرتد علينا باب من أبواب شرّها وبلائها؛ لأنَّ القَاعِدَةَ الشَّرْعِيَّةَ في منع الشَّرِّ مُقَدَّمٌ على جَلْبِ الخَيْرِ، وإذا وُجدت أبواب -ولو كانت قليلة أو ضعيفة أو صغيرة- فيها خير محض لم يُبح ذلك أن يُنتقل إلى ما عمَّ خيره مع ما شابهه من الشرِّ والبلاء، فإن ذلك لا يكون في الشَّرْعِ.

• ومن هذا المعنى حصل لَغَطٌ وَخَلَطٌ وَعَظَطٌ عند بعض النَّاسِ في الدخولِ إلى أبوابٍ من أبوابِ الخَيْرِ زاعمين أنَّ الخَيْرَ فيها، وأنه لا بد من اقتحامها، فاجتلبوا على أنفسهم أنواعًا مِنَ السُّوءِ، فما أن لبثوا حتى أزهرت لهم زهرة أو زهرتين، ثم غرقوا في بحر الضَّلَالِ والشَّهواتِ، فباؤوا بالفشل والضلال -نسأل الله السلامة والعافية- فلذلك لا بد من التَّأكيد على هذا الأمر.

• إذا تقرَّرَ هذا فمع قولنا إن الكلام بجملته فإن هذه ميادين لا حدَّ لها، وعالم لا يكاد يستوعبه أحاد الناس، بل لربما قلنا:

إن بعض هذه البرامج عالم وحده لا يمكن الإتيان عليه، حتى مَنْ صمَّه أو بدَّاه أو فتح طريقه؛ فإنّه لا ينفك أن يأتي عليه زوائد وأشياء، وتدخل فيه أمور فتغير حقيقته، أو يتشعب به الأمر.

وما دام أنَّ هذا التَّنبيه صار موجودًا أصالةً وابتداءً في أول حديثنا عن هذا الموضوع حتى لا يأتي آتٍ ولا يورد علينا مُورد فيقول: هذا الموقع فيه كذا! فنحن نتحدَّث عنه في الجُملة، ونحن نتحدَّث عن إمكان توصيل الدَّعوة من خلاله بدون ما أن يصل شرٌّ على الإنسان، وأن يتداخل معه باب من أبواب السوء والبلاء.

• إذا تقرر هذا الأمر فيمكننا الحديث بشيءٍ من التوضيح والأمثلة، ولا يمكن أن نأتي على الحصر في أبواب الدعوة ولا في طرائقها، ولا في تفاصيلها، ولكن حسبنا أن ننبه على واقعها، وبعض ما يُمكن من الإشكالات الواردة فيها، وكيف للداعية الذي أوتي قدرًا من العلم والهدى أن يخوضها على شيءٍ من النظر والتؤدة بما يحصل به الخير ويمنع من حصوص الشر.

هذه الأبواب والنوافذ الموجودة تتنوع بتنوع البلدان، وتختلف باختلاف أحوال الناس، وثمَّ نوافذ متنوعة منها ما يدخل ابتداءً إلى التَّصوير والحديث ونحوها، ومنها ما هو رسائل تُنقل، ومنها ما يجمع ذا وذاك، ومنها ما هي مجموعات مختصّة ويدخل من خلالها، أو غرف صوتيّة، وقل أشياء كثيرة مثل ذلك.

**؟ إذا أردنا أن نتحدَّث عن الدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- من خلالها فلنعرف واقعها، ما واقع هذه النوافذ**

**وهذه الميادين وتلك العوالم؟**

• نقول: "عوالم" لأنها ليست عالم واحد، ولا مجتمع صغير، ولا حتى قرية؛ بل كأنها مدينة كاملة تدار من خلال



هذه الأيقونة أو من خلال هذه النافذة، ويدخل فيها الإنسان فيدخل لجة بحرٍ لا ساحل له.

• إذا نظرنا إلى الواقع فواقعها متفرّق يجمعه العبث في جملته، وعدم الوضوح في كثرته، وحتى في المواقع التي لها عنوان أو لها طريق وسبيل وميدان إلا أنّ الدخول إليها في الغالب لا ينفك أن يخالطها أشياء ليست منها، فأول ما يجب على الداعية أن يتنبه له أنّ هذه مجتمعات ونوافذ وميادين السوء قريب كل القرب، والشّر أسرع ما يكون إلى الشخص.

فأول ما يجب الانتباه له:

أن يحفظ الإنسان نفسه، وأن يخاف على دينه، وألا يدخل مدخلاً يزل فيها أصبعه أو لسانه -وليس قدمه؛ لأنّ التواصل يكون فيها إمّا باللسان أو بالكتابة بالأصبع.

أو بعبارة مماثلة: أن يزل فيها حرفه وكلمته، وما أكثر ذلك وما أسرع!

• دعونا نأتي على أمثلة يسيرة:

من أشهرها: الواتس آب.

يمكن في دقيقة أو ثانية يُغير الشخص صورته التي يخرج من خلالها إلى من حوله بصورة فاتنة، أو بصورة سوء، أو بشرٍ؛ هذا شيء لا يمكن أن تتحكّم فيه البتّة، ولا تأمن من وصوله إليك في أي لحظة، ناهيك عن الرسائل التي قد تصل إليك من أناس تعرفهم أو لا تعرفهم، أو ناس يدخلون إليك قصداً أو بغير قصد، أو غير ذلك.

هذا مثالٌ واحدٌ للأمثلة كثيرة، وأبواب متنوعة أقرب ما تكون إلى الشّر.

فإذا كان الأمر كذلك فإنّ أول مسألة هي: الانتباه والحذر.

• وينبغي لطالب العلم والدّاعية إلى الله -جلّ وعلا- أن يدخل على حينٍ عليمٍ منه من أنّ السّلامة أول ما ينبغي ويجب عليه عليه الحرص عليه، وأخوف ما يخاف على نفسه، فإذا كان يطلب الخير لغيره فمن باب أولى أن يسبق ذلك ذلك الخير لنفسه والحفاظ على دينه.

### ما واقع الأمور الدّعويّة -أو المواد الشرعيّة- من خلال هذه المواقع حتى تعرف كيف تتعامل معها؟

• كما أنّ الشّرّكُم هائلٌ لا حدود له فكذلك الكم الهائل من المواد الدّعويّة أو الشرعيّة قدر لا حدود له.

◀ منها ما هو شيء صحيح له إطار واضح لا غش فيه ولا إشكال، وهذا أقلّه.

◀ ومنها أشياء فيها أبواب من الخير لكنّها ما بين غثٍ وسمين.

◀ ومنها ما يكون فيه خيرٌ كثير لكنّه ليس بموثوق إمّا لكونه معلومة مقطوعة، أو جاءت في سياق معيّن فانتزعت وقُصّت ولُصّقت وأعيدت في غير نطاقها، وإمّا أن يُضاف إليها ما يكون فيه شرٌ إمّا بإضافة صورة أو إضافة صوت أو موسيقى أو غير ذلك.

★ وإمّا أن يُؤتى إلى خيرك فيُضمّ إليه شرٌّ غيرك، فتبوء بتبعة ذاك من حيث لا تشعر.

★ أو أنّك تلقى الكلام على وجهٍ فيُصوّر بصورةٍ على وجهٍ آخر، أو يُخصّ به شخص، فكأنّك

تحدّث عنه بأن يأتي آتٍ فيجمع إلى ذلك تلك الصّورة فيبثّها، فيظنون أنّك قد قصصتها، ثم

ما يتبع ذلك من إشكالات كثيرة.

• ما دام أنَّ الأمر بهذا الواقع؛ فإذن نحن أمام أمرٍ لابدَّ من دخوله، وأذكر تقريباً لهذا المعنى: أنَّه قبل خمس وعشرين سنةً لما انتشرت القنوات ونحوها وكثر الشرُّ، وضعف انتشار الخير من خلال القنوات المتاحة والتي هي المسجد ونحو ذلك؛ فاحتاج الناس أن يبرزوا أو أن يوصلوا أصواتهم إلى الغير، وكان مشايخنا يتحفَّظون في التصوير بأكمله، سواء المرئي ونحوه أو ما قاربه، وسمعت شيخنا الشيخ ابن باز غير مرة، وكثير من مشايخنا كالشيخ صالح الفوزان كان من أشد الناس تحفُّظاً في الدخول في القنوات، ولكن لما رأوا حاجة الناس الملحة التي تكاد تكون بمثابة الجهاد في سبيل الله -جلَّ وعلا- رُوي أنَّ اقتحام ذلك مع ما فيه من الإشكال لازم وواجب.

• لكن حديثنا عمَّن هو متأهِّلٌ ومتصدِّرٌ للدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- وعنده من العلم الرّصين ومن العقل والفهم ومن حسن النّظر ومن جعل الأمور في مقاديرها مواضعها ميزانها دون ما زيادة أو نقص؛ أنَّ الدخول في ذلك قد يكون مُناسباً.

كذلك نقول: إنَّ مثل هذه المواقع الآن مع ما رأينا فيها من السّائبة، مع ما تنافرها من الشرِّ إلا أن الدخول يكاد يكون متحتّمًا لعظم ما يترتب عليها من الخير.

فإذا انضمَّ إلى ذلك ما رأيناه من شرٍّ كثيرٍ من خلال التسويق لبعض البدع والضلالات، والإتيان بالأحاديث الموضوعة، وليس الكلام عن الأحاديث الضعيفة؛ لأنَّ الأحاديث الضعيفة لأهل العلم فيها منهاج واضح في تقبلها وقبولها والعمل بها.

• أيضاً محاولة الاشتغال بالغرائب والأمور النادرة، والأمور التي لا حاجة للناس بها، أو عكسها؛ فتجد أن الناس يتيهون، فكل هذا يوجب علينا أن نوجد، لكن كيف نوجد؟ هذا هو محل السؤال.

سأذكر لكم مثلاً حتى يتبيّن هذا: جاء في بعض الأحاديث لما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة، قال: **((وصلاة الرجل في فلاة إذا أتم ركعوها**

**وسجودها بخمسين صلاة)).** جاء بعضهم وقال: الصلاة في الفلاة خير من الصّلاة في المسجد!

وهذا ليس بصحيح، ولما كان الأمر كذلك لما بنى النبي -صلى الله عليه وسلم- مسجده، ولما حثَّ على بناء المسجد ولا أمر بالصّلاة في الفلوات، ولكن كان مساق الحديث أن مَنْ تعذّر عليه المسجد لكونه في فلاةٍ في سفر والمساجد بعيدة، ومع ذلك يحرص على الجماعة ويؤتمُّ ركوع الصلاة وسجودها فقد حصل أمرين: إتمام الصّلاة مع كونه في هذا العناء والسفر وما يلحقه من التعب، وحرصه على الجماعة مع ما في أمر السفر من الوحدة والانفراد ونحو ذلك.

إذن هذه ومثيلاتها تزيد من العبء في توضيح الدعوة إلى الله -جلَّ وعلا.

• الإشكال الأكبر من ذلك أيضاً هو: أن الدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- إذا جاءت على وجهها قبلت، ولكن إذا جاءت على غير وجهها لا تكاد تُقبل أو لا تكاد تنفع.

أبيّن لكم ذلك بالمثال: الآن في مجموعات الواتس آب أو الفيس بوك أو الانتسجرام؛ تعال بموعظةٍ من أعظم الموعظ وأبلغها وضعتها في مجموعة من المجموعات التي أنت مُنضمٌّ إليها، لكن جاءت هذه الموعظة بعد نُكتةٍ

وبعد أحاديث فارغة من أفراد هذه المجموعة، هل سيكون لها فائدة كبيرة؟  
الشيء إذا جاء في موضعه نَفَعَ، كالمطر الذي إذا جاء في الأرض التي تبت أنبتت، وأمّا إذا جاء على أرضٍ مُبَلَّطَةٍ أو مُقَيَّرَةٍ -فهي قار- لا يُمكن أن تثمر.

بل المشكلة أنَّ تتابع هذه المواعظ في غير موضعها يُضفي على النفوس شيء من الإعراض عنها.  
نفس الشيء في الفيس بوك، تجد صورة لامرأة عارية، وهذه مُداخلة من كذا...، ثم بينهما موعظة! أليس كذلك؟! كيف يحصل النَّفَعُ؟.

• ومثلَ هذا في صور الانستجرام وغيرها، حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وبإزائه كل الصور والمداخلات الغير لائقة!

تعالِ إلى التَّعليقات تجدها تشين بها النَّفس من كلام اللغو ومن السُّوء ومن الفُجور والانحطاط، كُلُّ هذا يَصُدُّ النَّفسَ وَيُضَعِّفُهَا وَيَمْنَعُ خَيْرَهَا، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِغِيَّةٍ﴾ [الغاشية: 11]، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (25) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 25-26]، ما أعظم المجالس التي لا يُسمع فيها إِلَّا الْخَيْرَ وَالْهَدَى وَالْأَنَسَ وَالرَّاحَةَ وَالطَّمَأْنِينَةَ!

إذن هذا يزيد من الإشكل، فلأجل ذلك فإنَّ أوَّل ما ينبغي أن يُعلم، وأوَّل باب ينبغي أن يُؤكَّد عليه هو: إيجاد قنوات مُعتمَدة للدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- بحيث أن يُعرف أنَّها قناة للدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- فإذا دُخِلَتْ تُدخِل على وجهٍ صحيح، وإذا استَقِيَ منها يُستَقَى على وجهٍ صحيح، وإذا وُلِجَ إليها فإنَّه يُنتفع بها.  
وهذه إذا كانت مَوْثوقة من حيث القائِم عليها، ومن حيث ما يُلَقَى فيها، ومن حيث مناسبتها لعموم الناس؛ فإنَّ ذلك سيكون أقرب لانتشارها.

على سبيل المثال: من أشهر المواقع التي وُجِدَتْ وكان لها أثرٌ طَيِّبٌ موقع "الدُّرَر السَّنيَّة" في مواطن مختلفة، ونَحْ مُنْعَى عِلْمِيًّا، وبقيت على هذا السَّمت، وأخذت بملامسة العِلْم والتَّجدد مع الناس وملاحقتهم في ميادين مختلفة.

• وإذا قلنا: إنَّ هذا على سبيل المثال فلا يعني هذا الدخول في التفاصيل من حيث ما يتعلق بكل هذا الموقع وعدمه حتى لا ندخل في إشكالات؛ لأنه يُمكن أن يورد مثال آخر فيأتي عليه بعض الإشكال، ولكن نحن نريدها من حيث الجملة.

★ **الأمر الثاني:** على الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أن يَنْتَقِيَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عُمُوم النَّاسِ، فإنَّ هذه مواطن عموميَّة، فالفوائد التَّخصُّصِيَّة والفوائد العِلْمِيَّة والدَّقَائِق التي مَبْنَاهَا على مُقَدِّمات لا يفهمها إلاَّ آحاد طلبة العلم لا تُنشر في هذا العموم؛ لأنَّها إمَّا أن تُفهم على غير وجهها، أو أنَّها تُكسب شيئاً من الانكماش والانقباض عن قبول العلم والهدى، لكن إذا كانت المادة واضحة وجليَّة استطيع الاستفادة منها بوجهٍ صحيح.

★ **الأمر الثالث:** الدُّعَاةُ إلى الله -جلَّ وعلا- على درجتهم، منهم مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْآلَةِ وَالْقُدْرَةِ على أن يوجد شيئاً بنفسه، كأن يبدأ بما يتعلق بشرح صفة الصَّلَاة، فيجعل مَقْطَعاً في كل يوم يُرسله، أو في كل مناسبة يَبُثُّه، فيه بيان لتكبير الإحرام وما يتعلق بها، أو دعاء الاستفتاح وما يتعلق به من أحكام،

قراءة الفاحشة،...، إلى غير ذلك من الأشياء. فهذا جيد.

- وفيه مَنْ يَأْتِي يَسْتَوْد هذه المقاطع، وهذا موطن إشكال، فالذي يَسْتَوْد لابدَّ أن يستيقن أنَّ هذا المقطع صحيح، وأنَّ له أولاً وآخرًا، وأنَّه على وجهٍ صحيح، وأن يتحرَّى فيه الثِّقة، فإمَّا أن يُزِيل ذلك بالموقع الذي أخذه منه، وإمَّا بالشيخ الذي قاله، أو بالجهة التي أصدرته حتى يكون ذلك محلًّا للثقة والاعتماد. فهذا يكون له أثرٌ بالغٌ ونفع، أمَّا إذا وُجد فربما يُنقل عن الشيخ ابن عثيمين، ربما يُنقل عن الشيخ صالح الفوزان، ربما ينقل عن غيرهم من أهل العلم في البلدان، لكن نقل مختزل إمَّا لِقَلَّةِ فَهْمِهِ -وهذا أيسرها- وإمَّا أن يكون مُغرَضًا أرادَ أن يَقلِبَ الحقيقة، وإمَّا غابث شَوَّشَ هذا بهذا وليس عنده أي إشكال في أن يُدخل النَّاسَ في تبعاتٍ مختلفة.
- فإذا استطعنا أن نوجد مثل هذه فأقل الأحوال أنَّنا أوجدنا قدرًا مُعَيَّنًا يُمكن الانتفاع به، ونُطبق فيها الأصول التي ذكرناها في الدعوة إلى الله -جلَّ وعلا- في النَّظر فيما يُصلح النَّاسَ، والبدء بالأهم فالمهم، وما يتعلق بذلك من أمور.

**؟ مهما وجد عندنا من هذا الطريق، وشملت هذه النوافذ: إلا أنه لابد أن يوجد عندنا بإزاء ذلك -أو بمقابل ذلك- دفعًا. ما معنى الدَّفْع؟**

- يعني: ما من معلومة صحيحة إلا تقابلها معلومة مغلوطة، فيجب علينا أيضًا أن يوجد عند الداعية قدر من تصحيح وتخطئة ما يوجد وما يُنشر وما يُرفع على هذه المواقع من معلومات مغلوطة، حتى يُصححها أو حتى يبيِّن خطأها أو كذبها أو إشكاليها أو ما يَرِدُ عليها، فعند ذلك نستطيع أن نُقَرِّبَ مَادَّةَ صَحِيحَةٍ لا نقول إنها قريبة من النَّاسِ؛ لأنَّ هَذِهِ مواقعٌ مختلطة؛ لكن أقل الأحوال أن تكون هذه المواد الصحيحة مَنْ بحث عنها في مثل هذه المواقع يمكن أن يجدها، وَمَنْ طلب الحقَّ اهتدى إليه، ولم يكن صعبًا أن يدخل من خلاله. فهذه أمور من الأهمية بمكان.
- والواقع أنَّ الإشكال يأتي في أمر آخر، وهو: المناسبات والأحداث. المناسبات والأحداث دائمًا غُرْضَةٌ للكمِّ الهائل الذي يدخل على تلك المناسبة، سواء من الناحية الشرعية إثباتًا أو نفيًا، تأييدًا أو رفضًا، ثم ما يحصل من تقابل أناسٍ على ذلك الأمر والافتتال، فتكون كحلبة الصراع! فهذا مِنْ أَشْكَالِ مَا يَكُونُ، وَهُوَ سَبَبُ بَلَاءٍ عَلَى النَّاسِ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (118) **إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ** [البقرة: 217]، والواجب في مثل هذا أن يَعْلَمَ الدَّاعِيَةُ أَنَّ واجبه ليس المخالفة ولا المنازعة، وليس لمُرادٍ مِنَ الدُّخُولِ هُوَ الْوُجُودُ وَالْإِفْحَامُ، أو المجادلة والارتفاع على الخصم بأنَّه حَاجَهُمْ، فإذا كان المقام مقامًا ليس فيه إحقاق للحق، وليس المراد منه إلا زيادة في المنافرة، أو أنَّ أصل اجتلاب هذا الموضوع له منزَعٌ آخر إمَّا من ناحية اجتماعية أو ثقافية أو سياسية أو إقليمية أو غيرها؛ فيتنازعون من خلال ذلك، فينبغي للداعية إلى الله -جلَّ وعلا- أن يمنع نفسه من الولوج في مثل ذلك، حتى إذا صفا الورد يُمكن أن يدخل في ذلك ما يتقبَّله مَنْ يريد الحقَّ ويطلب العلاء.
- هذه المواطن التي يَرِدُ فيها الإشكال ويتكاثر فيها الزَّراع في بعض الأحوال ليست قليلة يُمكن أن نقول: إنَّ الحقَّ ملتبسٌ حتى على الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ -جلَّ وعلا- فبعض الدُّعَاةِ يَظُنُّ أنَّه لابدَّ أن يوجد حيث وُجِدَ النَّاسُ، ولابدَّ



أن يتكلّم ما دام أنّ الأمر مفتوحًا، أو أنّه ربّما إذا أرسل له على الخاص أو ربّما مُرّرت إليه رسالة، وربّما استُفدَ بشيءٍ من ذلك فيدخل!

• فما دام أنّ المسألة مسألة مُشكلة ولو بدرجة (10 %) عليك أن تسكت فتسلم من الغلط خير من أن تتحدّث فتزّر، وكون غيرك يُخطئ وأنت لست بعالم بالحقّ على وجه اليقين فليس عليك وزره، وليس عليك تبعته، لكن أن تجتهد وأنت لست أهلاً للاجتهاد فيزّل بذلك النَّاس ويخطؤون بخطئك فعليك تبعُ نفسك وتبعهم. كما قال: «فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ»<sup>١٣٤</sup> كما في قصّة النّجاشي، كما قال -صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»<sup>١٣٥</sup>. ومن أعظم ما يكون هذا يكون في باب الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- فإنّ بعض الدّعاة يدخلون في هذا، فكم ندّموا، وكم حصّل لهم بسبب ذلك من الإشكال، وكم أثّرت من العواصف والقيل والقال والأحاديث بسبب استعجال بعض الدّعاة إلى الله -جلّ وعلا- والدخول في موضع لم يكن لهم فيه آناة، ولم يكن لهم فيه يقين. فمن هذا نتبين أنّ هذا الأمر يجب الاستبانة فيه، والعلم بحقيقته.

• فإذن عندنا إبانة الحق، وأن يكون له مصادر معلومة وموثوقة يُمكن للنّاس أن يرجعوا إليها، ونكثّرها بحسب هذه المواقع، وكل منّا يتخصص في باب، وكل منّا يزيد من رصيد من معه، ونحاول أن نبثّ من خلالها علومًا صحيحةً مُتَحَقِّقَةً، وفيها من الخير واليقين ما ينفي الشكّ والخطأ، ودفع ما يقابل ذلك من السوء، والتّحفظ من المواطن التي هي مورد للإشكال ومواطن للعطب والرّيع، ثمّ ما يلحق ذلك من أنّ طالب العلم لا ينفك من أشياء تخفى عليه، فينبغي أن يحفظ قلّمه وأن يحفظ لسانه حتّى في الأمور التي قد يكون عنده فيها علم لكنّه ليس على وجه القطع واليقين، فإنّ له مندوحة في الدّخول، وليس مُطالبًا من المرء أن يوجد بقدر ما هو مطالب أن يدعو إلى الحقّ ويهدي النّاس إليه، وأن يبقى النّاس في جهالة حتّى ولو خاض غير أهل، ثم يأتي الحق فيزيح تلك الظلمات كلّها أسهل بكثير من أن يلبّس على النّاس في الحقّ فيبيان لهم الباطل على أنّه حقّ فيتديّنون به ويتعبّدون به ويفرحون به ويتناقلونه، ثم يتبيّن أن ذلك خطأ، فلا تدري هل يمكنك إصلاح ما انتشر من الخطأ؟

**؟ وهل يُمكن للناس أن يثقوا بك بعد أن زلّت أوزاغت بك اليد والقلم والرسالة والكتابة أو لا؟**

• ثم هل تسلم عند الله -جلّ وعلا- من التّبعة؟ لأن في كل هذه الأمور منزعٌ للنفس من حيث ها أنا ذا أول من قال في هذه أو أول من تكلم بهذا الأمر، الناس في التّبع...، إلى غير ذلك من حظوظ النفس التي هي مداعة للشّر-نسأل الله السلامة والعافية.

إذا تبين مثل هذا الأمر فعندنا أمران مهمّان:

أولهما: ثمّ مواقع قد يكون الأمر أخص فيها، وهو موقع "تويتر"، والحقيقة أنّ هذا من أكبر الإشكالات؛ لأنّ

<sup>١٣٤</sup> الحديث متفق عليه وقد جاء نصه في الرسالة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، أنه قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلِمًا، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [متفق عليه]

<sup>١٣٥</sup> مسلم (1017) عَنْ جَبْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

الرِّسَالَةَ فِيهِ لَابِدَ أَنْ تَكُونَ مَحْدُودَةً بِحَدٍّ لَا تَزِيدُ، فَلَا تَعْدُو بِضَعِ كَلِمَاتٍ، وَصَارَ النَّاسُ أَكْثَرَ مَا يَشْحَدُونَ المسائل والنقاشات والحوارات الشرعية وغيرها فيه، وصار الأمر دائراً بين أن يتكلف طالب العلم أو الداعية في أن يجمع شتات الموضوع الذي رُبَّمَا يُكتب في أوراق في كلمات، وإمّا أن يُختزل ذلك في كلماتٍ، أو أن يُنزع من إبانة الحقِّ إلى الجدال، وهُنَا يحصلُ الإشكال. أي: في هذه الأمور الثلاث!

- فما يتعلق بمثل هذا الموقع وما يمثله إذا وُجد، وهي أن تكون المادة العلمية التي يمكن نقلها أو إظهارها قليلاً مُشكلاً؛ فبناءً على ذلك ينبغي إمّا أن يُدخل عن طريق الروابط التي تضمن من أن من دخل وصل إلى الحق كاملاً، ولا أن يُبعض الحق، فقد يؤخذ بعضه ويُترك باقيه، فبعض الناس يقول "تغريدات متتالية"، ولكن بعض هذه التغريدات تؤخذ من سياقها ثم تُنشر، وهذا هو الأكثر!
- فما دام أن هذا هو الأكثر فإمّا أن يكون الأمر مُبيناً بأن يُظهر علامة أن هذه معلومة لم تكتمل، وإمّا أن يحجبه؛ لأن الغالب في الشرع له اعتبار، فإذا غلب على الظن أنّها تستعمل مقطوعة أو غير مُكتملة ويُحرّف فيها الحوار؛ فإنّ هذا موطن من مواطن الإشكال، فينبغي الحذر منه.
- ومثل هذه المواقع:

• **أولاً:** مبنية على الانفتاح العام.

- **ثانياً:** مبنية على الارتجال، يعني: معلومة تُطرح، مثل: أن تدخل مداخله فيها مقولة، فما أسرع أن يأتي عليك الإيراد أو يُغرّد بضد ذلك، فيستوجب من الإنسان أحياناً سرعة الرد، وسرعة الرد هي مزلة قدم، فقد يكون الإنسان ليس مُستحضرًا لهذه المسألة، قد يكون ما قيل له وجه لكنه لا يخالف ما ذكرت وإن كان ظاهره المخالفة، فإذاً هو مزلة من مزالات الأقدام، فينبغي أن يُتنبّه لمثل هذا، ومن لم يكن قادراً على أن يثق بأن إدخاله ودخوله في مثل هذه المواطن هو دخول يؤمن فيه من الخلل فإن عدم دخوله أولى؛ بل نقول: هو الواجب.

- وقد يكون الدُخولُ مَكْرُوهًا، وقد يكون الدُخولُ مُحَرَّمًا، بقدر ما يترتب على الدُخولِ من إشكالات، أو يُظن من وقوع الخلل والخطأ، فإذا كان الأمر كذلك فينبغي الحذر.
- فإذا عُلِمَ أو ظُنَّ أن بعض مثل هذه المواضيع مما قد يكون لها متعلقات أو يُمكن أن تُوظَّف من خلال جهات مُغرِضةٍ إمّا مفسدة، وإمّا مترِصة، وإمّا جهات عاملة على إفساد ما يتعلق بصورة طالب العلم ونقاء ما عنده من المعلومة والعلم والهدى؛ فينبغي له أن يكون أكثر حيطَةً حِفْظًا لِنَفْسِهِ، وَحِفْظًا لِلْعِلْمِ، وَحِفْظًا لِلْمِنْهَاجِ السَّلِيمِ، فَكَمْ دَخَلَ أَهْلُ الدِّمَاءِ وَالْفَنَاتِ الضَّالَّةِ وَأَهْلُ الْبَاطِلِ مِنْ خِلَالِ مَقْطُوعَةٍ قَطَعُوهَا، أَوْ مَقُولَةٍ نَقَلُوهَا، ثُمَّ دَحَرَجُوهَا حَتَّى جَعَلُوهَا عَلَى وَجْهِ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فربما نُسبَ إلى الدَّاعِيَةِ مَا يَسُوءُ وَمَا يَضُرُّهُ وَمَا يُلْحِقُ بِهِ التَّبَعَةُ فِي الدُّنْيَا، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ الْمُتَابَعَةَ وَالْمَلَا حَقَّةً وَنَحْوَهَا، أَوْ مَا يُسَيِّئُ بِالمَسْأَلَةِ القَانُونِيَّةِ وَالنَّظَامِيَّةِ وَغَيْرَهَا.
- إذن مثل هذه الأمور ينبغي أن يُتنبّه لها.

• وَتَمَّ مَسْأَلَةٌ مِنْ أَهَمِّ مَا تَكُونُ، وَهِيَ:

- أَنَّ الْمَسْأَلَةَ تُبْحَثُ، وَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا بَيِّنٌ، وَأَنَّ الْكَلَامَ فِيهَا مُتَّسِقٌ لَا إِشْكَالَ، وَإِنَّمَا مِثْلُ هَذِهِ الْمَسْأَلِ قَدْ تَكُونُ مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ فِتْنَةٌ، فَقَدْ يُلْقَى الْكَلَامُ وَهُوَ صَحِيحٌ لَا غَضَاظَةَ فِيهِ، وَلَكِنْ يُعْلَمُ أَنَّهُ يَتْلَقَاهُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا وَمَنْ لَا

يفهمه، فيضعه في غير موضعه، فيحصل بذلك زَلَلٌ "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ؛ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ" <sup>١٣٦</sup> كَمَا جَاءَ بِذَلِكَ الْأَثَرُ.

فَمِثْلُ هَذَا يَجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ مِنْ أَكْثَرِ مَا يَكُونُ مَجَالًا لِحَصُولِ الْإِشْكَالِ وَيُسْتَزَلِّ بِسَبَبِهِ أَنَا إِلَى بَلَاءٍ كَبِيرٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحَادِيثِ الْخَاصَّةِ لِلدَّهْمَاءِ وَالْعَامَةِ، فَيَكُونُ سَبَبَ ذَلِكَ فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ، فَمَا أَحْسَنَ أَنْ تُقَيَّدَ الْأُمُورُ وَأَنْ تُضَبَّطَ، وَإِذَا خَشِيَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ ضَبْطَهَا، أَوْ أَنَّهُ نَمَّ مِنْ يُمَكِّنُ أَنْ يَصْرِفَهَا؛ فَإِنَّ الْإِحْجَابَ عَنْ ذَلِكَ لَيْسَ أَوَّلَى فَقَطْ وَإِنَّمَا هُوَ الْمُتَحَتِّمُ لَا مُحَالَةَ.

### وَيَا مُوقِدًا نَارًا لِغَيْرِكَ ضَوْؤُهَا ☆☆☆ وَحَرُّ لَظَاهَا بَيْنَ جَنَّبَيْكَ يَضْرُمُ

يعني: يفعل الإنسان شيء يكون سبب بلاء عليه أو بلاء على المسلمين إذا فهموه على غير وجهه، فإن هذا من أعظم ما يكون.

لَوْ نَظَرْتُمْ إِلَى مَا تَطَرَّقْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ قَلِيلٌ بِالْمَرَّةِ، فَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ كَالْتَنْبِيهِ وَالْإِشَارَةِ إِلَى مَا يُغْنِي عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَارَةِ، ثُمَّ يَتَضَحُّ لَنَا أَنَّهُ مَا مِنْ بَابٍ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ تَوْجَدَ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَّا أَنَّ فِيهِ مَزَالِقَ كَثِيرَةً، فَلَوْلَا أَنَّهُ مُتَوَجِّبٌ عَلَيْنَا الدُّخُولَ فِي مِثْلِ هَذِهِ التَّوَافِدِ لَقُلْنَا بِقَطْعِهَا، لَكِنْ لَمَّا تَوَجَّهَتْ وَتَحَتَّمَتْ وَلَا يَنْفَكُ النَّاسُ إِلَّا أَنْ يَلْجُوا مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَعَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ وَالْإِتْبَاهِ.

وَلَا يَتَأَتَّى لِلْإِنْسَانِ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ كُلِّ حُظُوظٍ نَفْسِهِ، وَأَنْ يُؤْتَى التَّوَدَّةَ وَالسَّكِينَةَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ» <sup>١٣٧</sup>، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي إِسْرَاعِ الْخَطَى، فَهُوَ أَوْجِبُ فِي إِسْرَاعِ الْكَلِمَاتِ وَالْكَتَابَاتِ، فَلَا بُدَّ مِنَ السَّكِينَةِ.

### ★ **الأمر الثالث:** أَنْ يَتَخَلَّصَ الدَّاعِيَةُ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- مِنْ كُلِّ حُظُوظٍ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ وَقْتٍ تَتَرَيْنَ

نَفْسَهُ مِنْ خِلَالِ وَجُودِهِ فِي هَذَا الْمَوْقِعِ، أَوْ مِنْ خِلَالِ حُسْنِ تَغْرِيدَتِهِ، أَوْ مَا لَاقَتْهُ وَصَادَفَتْهُ مِنَ الْقَبُولِ، أَوْ مَا صَقَّقَ لَهَا مِنْ مُصَفِّقٍ وَإِعَادَةِ نَشْرِهَا مِنْ نَاشِرٍ؛ فَمَالَتْ نَفْسُهُ وَرَضِيَتْ وَأَعْجَبَتْ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الزَّيْغُ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، وَكُلٌّ مِنْ تَخَلُّصٍ مِنْ نَفْسِهِ فَيُوشِكُ أَنْ يُدْرِكَ السَّلَامَةَ.

أَذْكَرُ أَنَّ الشَّيْخَ بَكْرَ أَبُو زَيْدٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- أَوَّلَ مَا بَدَأَتْ الْفَتَاوَى، كَ بَرْنَامَجٍ "نُورٌ عَلَى الدَّرْبِ" وَهُوَ أَشْهَرُهَا وَأَوَّلُهَا وَأَقْدَمُهَا، أَوْ بَعْضُ الْبَرَامِجِ الْمِمَّاثِلَةِ لِذَلِكَ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا الْأَسْئَلَةُ مَسْجَلَةٌ فَيُمْكِنُ لِلْعَالَمِ أَنْ يَعِيدَ النَّظَرَ فِيهَا وَأَنْ يَتَأَكَّدَ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيَهَا.

لَمَّا جَاءَتْ هَذِهِ الْبَرَامِجُ الْمُبَاشِرَةُ الَّتِي تَكُونُ عَبْرَ الْهَوَاتِفِ وَعَبْرَ التَّلْفَازِ وَهَذِهِ الْمَوَاقِعِ، سَأَلَ الشَّيْخُ بَكْرٌ عَنِ الْمَشَارَكَةِ فِيهَا، فَقَالَ: "هَذِهِ الْفَتَاوَى الطَّائِرَةُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ وَمِنْ مِثْلِهِ" يَعْنِي: أُنْمَةُ الْعِلْمِ الرَّاسِخِينَ؛ لِأَنَّهَا غُرْضَةٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْخَلَلِ وَالزَّلَلِ، فَنَحْنُ نَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ.

<sup>١٣٦</sup> البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه

<sup>١٣٧</sup> وعن ابن عباس أنه دفع مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم وراءه زَجْرًا شديداً، وضرباً وصوتاً للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أيُّهَا النَّاسُ، عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ» [1634] رواه البخاري (1671)، «عليكم بالسَّكِينَةِ» أي: لازموا الطَّمَأْنِينَةَ وَالرَّفْقَ، وَعَدَمَ الْمَزَاحَةِ فِي السَّيْرِ.

فكيف وقد تصدَّى لمثل هذه الافتاءات طلبه العلم! بل وكيف وقد تصدى لمثل هذه الدَّعوة بما يسمى بـ "السكرتير" الذي كان عمله أن يقص وينشر، ثم صار أصلاً بنفسه في الرد، فصار هو المجيب، وصار هو العالم، وصار هو الذي يصدر عنه الناس.

• بعض الناس ينشر مقالات جيدة أو مواضيع مُهمّة يأخذها من هُنا وَهُنَا، حتى إذا كثرتابعوه رأى أنه هو الشيخ الذي لا يُشَقُّ له غبار، فنثر ما عنده؛ فإذا هو بلاء وإذا هو غبار، وما هو إلا مرض على الرئة تتنفسه فتعطب، وبلاء على الدين يدخل على المرء فيفسد -نسأل الله السلامة والعافية.

وكم بُيَّ بسبب ذلك من أناس كثير! وكم عرفنا من أناس كان لهم خير حتى إذا تزينت بهم الشاشات فرأوا أنفسهم فتناقلت بهم الوسائل فضاعوا وأضاعوا! وأدخلوا البلاء ودخلوا فيه من أوسع أبوابه -نسأل الله السلامة والعافية.

• فَلَمَّا كَانَ الأمرُ بهذه المثابة لا ينفك الإنسان عن أن يَطْلُبَ لِنَفْسِهِ السَّلَامَةَ، ثُمَّ لَتَعْلَمَ أَنَّكَ لَنْ تَسْعَ هذه المواقع كلها، فإن كنت ولا بد فانظر إلى أمرٍ تعرفُ من نفسك القُدْرَةَ عَلَيْهِ، والسَّلَامَةَ من بلائه، ثم اجعل فيه ما تظن أنه يكون -بإذن الله جل وعلا- بُلْغَةً لَكَ عند الله، وخيرًا لك عند مولاك، ولا يكون فيه عليك تَبِعَةٌ، ولا يدخل عليك منه داخلٌ سُوء لا من قريب ولا من بعيد ليحصل بذلك الخير كله -بإذن الله جل وعلا.

وصلّى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.





## الدرس الثاني عشر



الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- الدَّاعِيَةُ إلى الله -جلَّ وعَلا- في طريقه إلى الدَّعْوَةِ يعْتَرِيهِ ما يَعْتَرِيهِ ويلحقه ما يلحقه وليس له سلوان ولا إعانة إلا أن يُصَبِّرَ نفسه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: 200]، فنذْكَرُ بما قلناه من أَهْمِيَةِ الصَّبْرِ والمصابرة للدَّاعِيَةِ إلى الله -جلَّ وعَلا-.
- إذا ذكرنا الدَّعْوَةَ إلى الله -سبحانه وتعالى- فَتَمَّ من عباد الله مَنْ انبرى لهذه الوظيفة، وتصدى لهذا اللواء فحمله، وأتعب نفسه فيه، فحمله حتى كان ذلك ملء وقته وحياته، وهذا هو قول الله -جلَّ وعَلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]، وتلك حال أنبياء الله ورسله، فدعوا حتى ملؤوا أوقاتهم وأعمارهم بالدَّعْوَةِ إلى الله -جلَّ وعَلا-.
- لكن مع ذلك يجب على الدَّاعِيَةِ أن يعلم أنه كما أمر ووجب وتحتم عليه الدَّعْوَةُ إلى الله -جلَّ وعَلا- فَتَمَّ واجبات متحتمة، وأمور لازمة لا يجوز للدَّاعِيَةِ إلى الله -جلَّ وعَلا- أن يُخَلِّ بها، ناهيك أن يُضَيِّعها، فإنَّ من الدُّعَاة مَنْ يشتغل بالدَّعْوَةِ حتى ربَّما أضاع حقَّ زوجته وولده، والنَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- يقول: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»<sup>١٣٨</sup>، وإنَّ من الدُّعَاة وطلبة العلم مَنْ أنفق وقته كلَّه في الدَّعْوَةِ حتى لم يبقَ له وقت لورده من القرآن، ولا لصلاته من الليل، ولا لأنسه بالله -جلَّ وعَلا-؛ فَأَتَى لذلك أن يُعْطَى؟!

<sup>١٣٨</sup> رواه أحمد (6316)، أبو داود (1444).

إنَّما العبد بما يكتسب من عبادة الله -جلَّ وعلا- فإذا لم يتعبَّد الله -سبحانه وتعالى- يوشك أن ينفرطَ عقده وتذهب قوته ويَبِينَ خلُّه وضعفه، ويقرب منه شيطانه وزلُّه، فلأجل ذلك ينبغي للدَّاعية أن يعلم هذا. وأروع وأوضح ما يُضرب في مثل هذا من الدَّليل والبرهان: حال النَّبيِّ -عليه الصَّلَاة والسلام-

أليس الذي جاء إلى مشركين وثنيين، قد عمت الوثنيَّة في الأرض قاطبة، ومع ذلك لم يكن له ليشغل بالدَّعوة عمَّا أوجب الله عليه من الصَّلَاة، ولم يكن لينشغل بالدَّعوة عن بعض السُّنن التي هي تمام صلاحه كقيامه ليل، فكان يقوم حتى تورَّمت قدماه، وكان يستغفر الله في كلِّ يومٍ أكثر من مائة مرة، وله من أوراد الذِّكر ما هو معلوم وجاءت به السُّنَّة عنه -صلى الله عليه وسلم- فإذا جاء رمضان اعتكف، وبينَ الفَيِّنة والفَيِّنة يقصد مَكَّة للعمرة، هي ليست واجبة غير الأولى- هذا يدلُّ على أن الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- إذا لم يكن إقبال على ربِّه فلن يكون له نفع لغيره، فإنَّما القوة بالله، وإنَّما الاعتماد على الله، وإنَّما الخير بقدر ما تبعث في هذه النفس وتحملها عليه، فإنها تشرق على الناس، وكما قلنا:

**ويا موقداً ناراً لغيرك ضوءها وحرُّ لظاها بين جنبيك يضرُّ**

تدعو النَّاس إلى قيام الليل وأنت لا تفعله! وتدعو النَّاس إلى كتاب الله -جلَّ وعلا- وأنت لا تقرؤه! فما الذي يُجدي عليك؟!

طالب العلم ينبغي له من العلم بما يجب من الدَّعوة، وبما يجب لنفسه من الطاعة، وما يجب لأهله من الواجب، وما يتحتم عليه من اللوازم الأخرى، وكما في حديث أبي الدرداء: «إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»<sup>١٣٩</sup>، فهذا أمر مقطوع. وإنَّنا لنرى أناساً قد تصدوا للدَّعوة حتى أنقصوا ما يتعلَّق بأنفسهم، فما زالت بهم أيَّام حتى إمَّا فترا -وهذا أيسر ما فيها- وإمَّا ضلوا -وهذا ليس بقليل في هذا الميدان-

**هل الأجرة على العبادات صحيح أو ليس بصحيح؟**

الحنابلة والحنفية يُشددون في هذا، ولكن مهما قيل فإنَّ النَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قال: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»<sup>١٤٠</sup>، وفي حديث عثمان بن العاص «وَاتَّخَذَ مُؤَدِّنًا لَا يَأْخُذُ عَلَى أَذَانِهِ أَجْرًا»<sup>١٤١</sup>، دلَّ على أنَّ من المؤدِّنين من يأخذون أجراً، فلا يكون في ذلك حرج، وإنَّما هي درجة في الأولويَّة والأفضليَّة والكمال.

فلما صارت الآن الوظائف بلاء، ولا ينفك الإنسان عن محرَّم، فأن يكون في هذه الوظيفة التي هي وظيفة رفيعة، ووظيفة شرعيَّة وتُعِين على الخير، وهي أدعى لبذله والانقطاع له؛ فإنَّ ذلك يكون سائغاً ولا غضاضة في ذلك، وبدُّ من القول بهذا لما لحقَّ الوظائف من إشكالات كثيرة.

<sup>١٣٩</sup> سنن الترمذي (2350). صححه الألباني في صحيح الترمذي (2413).

<sup>١٤٠</sup> صحيح البخاري (5323).

<sup>١٤١</sup> رواه أحمد (15929)، وأبو داود في السنن (446).

ولو قيل بالمنع لترتب على ذلك أن تتوقف كثير من وظائف المسلمين كالقضاء والتدريس، وغيرها، وعسى الله أن يعفو أن عنا، عسى الله أن يتجاوز عنا، فما أكثر ما فات علينا من أجر الآخرة بسبب ما استعجلناه من أمر الدنيا.

• حتى جاء في الحديث «مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ نَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ»، مع أن الغنيمة مشروعة، قال: «إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثِي أَجُورِهِمْ»<sup>١٤٢</sup>، يعني من تجرد وابتدأ في الدعوة والجهاد مخلصاً فلا شك أن أجره أكمل وأتم، لكن من يتفرغ للدعوة ويستطيع الصبر على لأوائها، ولا ينشغل برزق أهله وعيشتهم يجد في ذلك قدرة وقوة على ذلك وتيسر له الأمور برمتها.

أما من لم تتسن له هذه الوظيفة فيبادر بالدعوة إلى الله -جلّ وعلا- بقدر ما يتاح له في مسجده بين أهله أو في مجتمعه القريب، وبكل ما أتاحت له مناسبة فينبغي له السعي على ذلك. أما الأول فينبغي أن يعلم أن هذه الوظائف مهما جعلت لهذا العمل فيآه أن يتأكل بها، وأن يتكثّر برئعها وهو لا يؤدي حقها، فكم من الذين أخذوا هذه الوظائف واستفادوا منها لم يدعوا إلى خير، ولم ينهوا عن شر، ولم يحذروا الناس، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم؛ فجمعوا السوء برمتها، حجبوا عن أنفسهم الخير، وحجبوا أن يتولاه غيرهم فيقومون به ويؤدونه على وجهه الذي أمر الله -جلّ وعلا- به.

**❓ ذكر في القرآن عن أحوال الأنبياء كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: 51]، فماذا يُقال في مثل هذا؟**

- نحن لم نتحدث عن المسألة من الجهة الشرعية، فقول الحنابلة والحنفية في عدم جواز ذلك له وجاهة ظاهرة، والقول بجواز أخذها هو قول أئمة من المالكية والشافعية ولهم معتمد صحيح، فمثل تلك الأدلة تحمل على الدرجة على الكاملة العالية الثامة، وهذه درجة الأنبياء والمرسلين ومن استأن بسنتهم وطلب طريقتهم، ولكن هذه وظائف موجودة، وكثير من الأعمال الأخرى لا تخلو من شر، فمثلاً في بلاد الغرب، هل يتوظف في مطعم لا يخلو من إشكالات أو متجر، أو يتوظف في مسجد؟
- فبقدر ما نقول إن فيه إشكالات، فالإشكالات هنا أكثر، فما دام أن لها مسوغ ولها باب صحيح، ويطرب عليها مصالح كبيرة، فلا أقل من أن يقال: إن من تصدى لها فله مندوحة، ويجب عليه أن يبذل أكثر لعل الله -جلّ وعلا- أن يجعل ذلك رفعة لشأنه، وأن يعقبه الخير في ذلك.
- فمن تصدى لمثل هذه الوظائف فالله الله أن يؤدي حقها، ومن لم يكن من أهل الوظائف الرسمية أو ما شابهها مما يتقاضى عليه أجرًا فإن ما جعل الله -جلّ وعلا- للأنبياء من وظيفة الرسالة ودعوة الخلق وهدايتهم هو كفيلاً بأن يتصدى الداعية -جلّ وعلا- لهذه الوظيفة وأن يقوم بها، وأن ينافح من أجلها، وأن يتحمل ما يلقاه من قلة ذات اليد، أو من شظف العيش، أو من فوات كثير من أمور الدنيا، وأن يطلب ذلك من عند الله -جلّ وعلا- وأن يحتسبه عن مولاه، فكثير ممن يبتدؤون في الدعوة إلى الله -جلّ وعلا- يرى قرينه

<sup>١٤٢</sup> صحيح مسلم (1906).

وصديقَه الذي كان بإزائه تخصصَ في الهندسة أو في الطِّبِّ أو في الاقتصادِ، ثم فاقَ واجتمعَ له، فيرى معه هذه السَّيَّارة وهذا البيت، وتحصَّلَ له ما لم يتحصَّلَ لغيره؛ فكم ينقطع القلب! والنَّفْسُ ضعيفة.

• فما دام أنَّ الإنسان يشعر بما أمامه ويتأمل ما أعدَّه الله لعباده، وتأمل قصر هذه الدنيا، وعظم ما يجعل الله من البركة، ومن الأمور الخفية ممَّا يمنع عن العبد الشرَّ، وممَّا يُفيض عليه من الرَّحمة، وممَّا يُعقبه من البركة في ولدٍ أو في زوجٍ، إلى غير ذلك من أمورٍ، وما أعدَّه الله له في الآخرة أعظم وأتمُّ؛ فإذا ملأ قلبه بذلك فإنَّه يوشك أن تلحق به القناعة، ومَن أوتي القناعة فقد أوتي الخير كلَّه.

فهذه الدنيا عرفناها، وعرفنا أهلها، وعرفنا مَن جمع شيئاً لم يجمعه كثير من الناس، فلم يزلوا في بلاء وتعب في جمعها، وفي المحافظة عليها، وفي ملاحقة الدُّنيا، وما يدخل عليهم من الحسد والمنافرة من القرابة، ومن غيرهم، فينفتح على النَّاس من الشُّرور ما لا ينفك منه أحد.

فلما كان الأمر كذلك، والله يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4]، فلأن تكون في مكابدة في العلم والهدى والدَّعوة والخير، خير من أن تكون في مكابدة في أمور قد تكون عاقبتها سوء ومعصي، وشرو وبال في الدنيا والآخرة.

### ؟ السُّؤال فيما يخصُّ الدَّعوة كوظيفة، بعض الجهات الرسمية قد تطلب رخصةً في هذا الأمر؟

- الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- ينبغي أن يحذَرَ ممَّا يُفسد دعوته، ومِن أعظم ذلك أن يطلب الطُّرق المأذون فيها والمسموح بها، وإن أي داعية يتجاوز ما أذن له فيه فإنَّه يفتح على نفسه بابَ شرٍّ عظيم وعلى المسلمين على سبيل المثال: طلب التَّصريح في الدَّعوة.
- ما دام أنَّه ممكن فإنَّه يطلبه حتى لا يُعرض الدَّعوة إلى ما هو أشد من ذلك، فإنَّ هذه دول وجهات ترقُب وتحسب لكلِّ حركةٍ حسابها، فما دام أنَّ الأمر كذلك لو بقي لنا باب مفتوح بقدر (10 %) خير من أن نأتي بدعاة لا يُسمح لهم بذلك، ثم بعد وقت قصير يُغلق ذا وذاك، فلا يبقى من الدَّعوة شيء مفتوح، وهذا واضحٌ في حوادثٍ حصلت في الغرب في أوروبا وفي غيرها، تنكَّست أمور الدَّعوة بسبب بعض الأمور الخاطئة، فلا ينفك الإنسان أن يطلب طرقاً سليماً سالمة من الخلل مانعة الإشكال.
- فإذا كان للمساجد -مثلاً- برامج معيَّنة يؤذن فيها، وثُمَّ برنامج لا يؤذن فيه، فلا ينبغي أن يؤتى إلى هذا البرنامج فيُفعل في المسجد، فيُغلق هذا ذاك، فينغلق على النَّاس شرٌّ كثير.
- وفي كلِّ العالم تقريباً تتفاوت هذه الأمور، فالدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- مائة باب، بعض الجهات تمنع عشرة، وبعض الجهات تمنع خمسة، وبعضها تمنع خمسة عشر؛ تتفاوت في ذلك تفاوتاً يسيراً، لكن أصلها مفتوح، فإياك أن تأتي إلى هذه الثَّمانين أو التِّسعين أو الخمس وتسعين باباً من الدَّعوة المأذون فيها فتفسدها بهذه الخمسة الممنوعة حينما تدخلها، فتعود عليك وعلى المسلمين بمنع ما أذن فيه من الخير.
- هذا من حيث الأصل، ولكن تفاصيل ذلك تختلف باختلاف الأحوال، وباختلاف ما يحتف في كل مسألة بعينها، فقد يترتَّب على ذلك حكماً يخصُّها أو مسألة يُمكن أن يفترق حكمها، فيُنظر إلى الأمور بخصوصها، ولكن من حيثُ الجملة فالأمر كذلك.



- ومن أعظم ما بُليت به الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- تلك الفئات الفاسدة التي تزعم أنَّها تدعو إلى الخير وهي تفسده، وتزعم أنَّها تدعو إلى الإسلام وهي تخالفه، وهي الفئات الإرهابية الدَّاعية إلى الدِّماء المكفرة لعباد الله، الفاتحة باب الشَّرِكَلَه، فما دام أنَّ الدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- ملتزم بالدَّعوة فينبغي أن يعلم أنَّ تلك الأبواب من أعظم ما يفسد عليه فيحذرهما ويُحاذرها ويُحذِّر منها، ويُبعد طريقها، وهذا إنَّما هو على سبيل المثال، ولكن كل ما مائل ذلك وقاربه من الأمور التي قد تؤثر على دعوتك يجب أن تحذر منها، وأن تتنبه لما يدخل من خلال ذلك فيفسد الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- وهذا أمر مهم.
- واستغلال الأبواب المفتوحة في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- عبر القنوات المأذون فيها النِّظامية من الجامعات أو المساجد أو الجهات أو نحوها كفيل بحصول الدَّعوة إلى الله وانتشارها، فإن لم يكن إلا مواقع التَّواصل -التي جرى الحديث عنها- فهو أيضًا كفيل بذلك.
- من الأمور التي تحصل لبعض الدُّعاة أنَّه إذا انفتح له باب في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- ربما يلحقه شيء من الحماسة فيريد أن يكبر ذلك، فيدخل في بعض المشاريع الدَّعوية، والدُّخول في المشاريع الدَّعوية لا غضاضة فيه ولا إشكال إذا كان هذا الأمر على وجه صحيح ودقيق، وتحت مظلة صحيحة نظامية لا إشكال فيها، ثم وثق أن يكون مساق الأمور النِّظامية والإدارية والمعمارية والمالية كلُّ بحسبه، لأنَّ بعض الدُّعاة قد يكون جيدًا في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- وقد لا يكون متهماً في سوء نيته في المال، لكن لا يُحسن إدارة المال، فإذا جاء إلى مثل هذه المشاريع ظنَّ أنَّ إدارة الدَّعوة وإدارة المال شيء واحد، فتولَّى ذلك فأفسد؛ فأتهم في نفسه! وربما دخل في المال فطمع فأفسد على نفسه، ومثل ذلك الأمور الإدارية وغيرها.
- فإذا ينبغي للدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أن يعرف نفسه، وأن يعرف مكانه، وألا يتجاوزَه، وأن يُعطى كلُّ ذي فنيَّ فَنَّهُ، وكمثل المثل المشهو "أعطِ الخبَّازَ خبزه وإن أكلَ عليكِ نصفه"، لأنَّه لا يُمكن لك أن تخبز وأن تصلح الخبز، فكذلك لا يُمكن للدَّاعية أن يتولَّى ذلك كله.
- ومن أكثر ما وقع فيه الخطأ عند الدُّعاة إلى الله -جلَّ وعلا- حينما تكبر دعوتهم ويبدوون في المشاريع وتتفرَّق بهم الأمور، ويدخلون مداخل سوء، أو يرتببون على أنفسهم إشكالات أو على غيرهم، أو يتصور شيئاً على غير وجه صحيح فيبدأ في أمور لا يحسنونها، أو لا يقدون على إتمامها، فيُفضي ذلك عليهم بالإشكال أو بالنقص، أو ربَّما بالمتابعة والملاحقة وما شابهها. هذا أيضًا داخل فيما ذكرناه من إفساد الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- وما يحصل من الإنسان من الخطأ.
- أنا أحذر من الأموال في الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- والانتباه لها، والأموال هذه أوراق مسؤولة يجب أن تدخل بوجه صحيح وأن تخرج بوجه صحيح، وكل الجهات والدُّول تعتبر للأموال أدق ما يكون، وينبغي للدَّاعية أن يكون كذلك، ويسعنا من الأمور المفتوحة النِّظامية ما يمنع أن يتعاطى الإنسان بأي شيء من الأمور سواها، وخاصة أن كثيرًا ممَّن يتربصون بالدَّعوة والدُّعاة يبتئون الأموال لعلمهم أنَّها تصل في غير سبيلها، أو أنَّها توصلهم إلى إفساد الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- أو أن تكون باباً إلى أهل الإرهاب والإفساد الذين قوتهم وزادهم المال، فيمِرُّون بعض البسطاء وبعض الدُّعاة إلى الله -جلَّ وعلا- فيجعلونهم كالنَّاقِل لهم من حيث لا

يشعرون، فيعطونك أنت أو يعطون لمشروع صحيح على وجه صحيح، ثم بعد ذلك يمرّرون عن طريقك ما ليس بصحيح، فوالله لو كانوا يعطونك مليون دولار، ويمرّرون عشرة آلاف دولار لغير وجه صحيح لكان لك أن تستغني عن المليون لتسلم من تبعّة العشرة، فكم يُقتل بها من أناس؟! وكم يحصل بها من شرٍّ؟ وكم يُفتح بها من بلاء؟! وكم يُمنع بها من الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا؟!

● فهذا أمر مهم، كيف والمال هو مفسدة للإنسان، ولذلك الإمام أحمد سئل عن الرّجل يجمع المال، قال: "السّلامة لا يعدلها شيء"، يعني: في أمور الخير والهدى.

● فإن كان ولا بد فكلما قلنا يكون جمع المال على وجه صحيح، وبأمر نظاميّة، وأن يُصرف في مصارفه، وألا يُحابي نفسه، وألا يجعل الحاكم على المال لنفسه هو نفسه، أن يكون هو المدير مثلاً فيجعل لنفسه راتباً، أو يتخذ من المال ضيافة، أو يتوسّع بها في أهله، أو غير ذلك؛ ظناً منه أنّه ممّن يسوّغ له ذلك، وعسى الله أن يعفو عنّا وأن يعصمنا من الزّلل في مثل ذلك الأمر.

### ✱ عمل المرأة في مجال الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا.

المرأة كالرجل سواء بسواء في سائر الأحكام الشرعيّة، إلا ما دلّ الدّليل على تخصيصها فيه، فهي تدعو إلى الله -جلّ وعلا- وتهدي الناس، وتعلمهم، وكم عرف من الصّحابيّات فمّن بعدهنّ ممّن دعت إلى الخير واهتدى النّاس بها.

● لكن ينبغي للمرأة أن تعلم أنّ ما اختصّها الله -جلّ وعلا- به من القيام بمسؤولياتها وبيتها وزوجها هو أولى وأوجب ما فيه الأجر والثّواب، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ»<sup>١٤٣</sup>، قال أهل العلم: في هذا إشارة إلى أن ما يُطلب من المرأة ليس بكثير، لكنه عظيم.

● فمن أجل ذلك لا يجوز لها أن تُقَدِّم الدّعوة إلى الله -جلّ وعلا- على بعض ما يجب، فتخرج من بيتها ولم يأذن لها زوجها، فإذا كانت لا يجوز لها أن تخرج لزيارة والديها إلا بإذن زوجها، فكيف بالدّعوة إلى الله -جلّ وعلا؟!

● وينبغي للمرأة أن تتحقّق، فإنّ من النّساء من تدعو وتدعو حتى تنفتح عليها الأمور، فربما دخلت الرّجال وربما خالطتهم، ولقد رأينا داعيات من النّساء عُرفن بالخير، فلم يزل يستجربهنّ الشّيطان حتى خرجن على الشّاشات، حتى ولو كنّ غير متجمّلات فما الذي حملكنّ على هذا؟! من الذي ألزمنّ بهذا وغيركم يقوم به؟! حتى ولو قلنا بجواز كشف الوجه فثمّ محاذير كثيرة، ثم رأينا من الضّحكات وغيرها من الشرّ الكثير، فأصله وفصله وتفصيله كلها لا تنفك عن شرٍّ، وهذا نذكره كالمثال، وإن أكثر النّساء لا يصلن إلى ذلك، فلا تنفك كثير من الدّاعيات من الدّخول إلى مجتمعات قد تستزلّ فيها القدم، وقد يحصل فيها الخلل.

<sup>١٤٣</sup> رواه أحمد (1661)، صححه الألباني في صحيح الجامع (660).

- فينبغي للمرأة أن تعرف الواجب الذي أوجبه الله عليها، وينبغي عليها أن تؤدّي الأمور بمعرفة ما جعل الله لها من القرار في البيت، ومن حفظ نفسها، ومن علمها بما يحصل بها من الفتنة، وأن تؤدّي ذلك بقدر يحصل به الخير، ويمنع من الشرّ.
- كم من دعوة يسيرة لامرأة أو غيرها جعل الله بها الخير الكثير، فلا تنظري إلى أن فلاناً يجتمع له مائة فيشترط حتى تبلغ دعوتك مبلغها أن يستمع لك مائة أو ألف أو نحو ذلك، ولا تنظري إلى أن فلان وهو لا يحسن في العلم كثير وجد له من القبول فلا بد أن يوجد لك مثله، ربّما تهتدي بك امرأة فيولد لها ولد فيكون من علماء المسلمين، فيبقى خيرك أبد الدهر - بإذن الله جل وعلا - فالأمور ليست بظواهرها وإنما بحقائقها.
- إذن، المرأة كالرجل إذا أتقنت العلم وأحسنته فإنّها تدعو إلى الله - جلّ وعلا -، دعوتها لا تنفي عنها ما أوجب الله عليها من واجبات في بيتها وزوجها وولدها، وما افترض الله عليها، مثلما قلنا إنّ الرّجل لا يفسد ولا يضيع ما وجب عليه من العيلة والأهل والولد.
- ويجب على المرأة أن تحفظ نفسها من مواطن الفتنة، فهي أكثر قرباً من الفتنة وأسرع إليها، وقد يُزَيّن لها الشيطان ذلك بداعي الدّعوة إلى الله - جلّ وعلا - فتذهل نفسها، فيقع خللها، فيلحق بها من الشرور ما لا يُعدّ ولا يُحصى.

**؟ ماذا يفعل الدّاعية إذا أوقف توقيفاً كاملاً عن الدّعوة، بأن لا يكتب ولا يخرج للنّاس، ولا للصلوات،**

**إلى آخره...؟.**

- إذا أوقف الدّاعية عن ذلك كله، فالحمد لله فإنّ الدّعوة لا تتوقّف عليه، وغيره يكفيه، وهو قد أدّى ما عليه، ويجب عليه أن يسمع وأن يُطيع، وهذا معروف عند أهل العلم، ومعروف في قصّة الإمام أحمد، فقد مُنع من التّحديث فامتنع، ولم يزل أهل العلم يتكلّمون على مثل هذه المسائل، فالحمد لله الخير باقٍ، والدّعوة منتشرة، وقد يكون ذلك خير للإنسان، وهذا إذا كان سبب إيقافه غير صحيح فيقف، فكيف إذا كان سبب الإيقاف صحيحاً بأن يكون عُرف منه العجلة، أو بعض مقدمات التّهور فيخشى عليه، أو يُخشى منه، أو اجتمع له بعض من يُخشى منهم، أو بعض من لا يوثق بهم، ومن تعلّقت بهم الرّيبة، أو لغير ذلك؟! فلاجل ذلك قلنا: حتى ولو كان إيقافه ليس له أصل شرعي صحيح، فلا يسعه إلا أن يسمع ويُطيع. هذا إذا كان في بلاد الإسلام.
- أمّا إذا كان في بلاد غير المسلمين، نقول له: يقف، لأنّه يحفظ نفسه من الشرّ، ويمنع أن يتسبّب على نفسه بلاء وفتنة، وعلى المسلمين كذلك، والله يتولانا برحمته.

**✱ من أعظم ما يعرض للدّاعية حصول الجاه والمنصب.**

بعض الدّعاة يكبر بالدّعوة، وبعضهم ربما كبر بغيرها كأن يوجد له منصب آخر فيفسد عليه دعوته. ولذلك جاء في الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «مَا ذُنْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ أَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ، وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»<sup>١٤٤</sup>.

<sup>١٤٤</sup> أخرجه الترمذي (2376)، وأحمد (15794)

معنى الحديث: أنَّ فساد المسلم بالجاه مثل فساد الذئب إذا دخل حظيرة الغنم، فإنَّ الذئب إذا دخل حظيرة الغنم ما يأكل واحدة ويذهب؛ بل يقتلها كلها ثم يأخذ واحدة ويذهب، فحتى التي لا يحتاج إليها يقتلها، فكذلك الجاه يُفسد على الإنسان دينه كله، وهذا معروف في الواقع وحاصل، ولأجل فالحافظ ابن رجب - رحمه الله تعالى - وهو ممن جمع الله له العلم والديانة والحديث والفقه والصلاح ألف رسالة مختصة بهذا الحديث لعظم ما يحصل به من الشر والفتنة.

• كتب الله في الدنيا كلها أنَّ الإنسان يتأثر بقريته، وتتحرَّك نفسه في اتجاهه، وكلَّما قويَّ القرين أو ظهر، أو برز وشهر؛ زاد حنق النفس وغلها، ولأجل ذلك لم ينفك النَّاس على مرِّ التَّاريخ حتى في الأمور الدُّنيويَّة أو الدِّينيَّة أنَّ كلَّ قرينين يتحاسدان، وكلَّ متمائلين يتباعدان، حتى إنَّ المرء ليلبغ به الحسد من أخيه أكثر ممَّا يبلغ به من الرَّجل البعيد، وإنَّه لربَّما رغب في أن يكون هذا الخير لقصيٍّ لا يعرفه خيرٌ عنده من أن يكون لابن أبيه وأمه، فلمَّا كان الأمر كذلك فإنَّ أعظم ما يحصل للدُّعاة إلى الله -جلَّ وعلا- الغيرة والحسد والتَّنافر بسبب ذلك بين الدُّعاة، فيفضي بالدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- أن يترَّص بغيره، أو أن يُظهر نقيصته، أو أن يخالفه، أو أن يباعد، أو أن ينفرد عنه بدراسة أو بمدرسة أو بعمل أو بغير ذلك، أو أن يفرح بسوءته فيُظهرها، أو أن يفرح بمخالفه فيقريهم، وكل ذلك من الأمور التي أشهر من أن تذكر.

• والواقع مليء بذلك، وهذا الحدث يتحدَّث عن نفسه في كلِّ يوم، فالدَّاعية إلى الله -جلَّ وعلا- إن لم يُحجم نفسه ويلجمها بلجام التَّقوى، ويخاف الله -جلَّ وعلا- ويحاسبها صباح مساء؛ فإنَّها لن تنفك بحالٍ من الأحوال أن تقع في هذا المزلق، وبدل أن يكون الدُّعاة أسرة وإخوة متحابين متعاونين، وأن يعفو الدَّاعية عن أخيه ويتجاوز عنه، وأن يَدْمَح زلَّته وأن يُقوي ضعفه، وأن يعينه على دعوته، وأن يجتمع في ذلك أن يعود على أخيه بالنَّقص والإضعاف، فهذا من تسويل الشيطان، وربما بلغ الإنسان في ذلك من السوء مبلغاً عظيماً.

أيها الإخوة ينبغي الحذر من هذا الباب أيُّما حذر، وإنَّه لباب يوشك أن يكون من أعظم ما بُليت به الدَّعوة إلى الله -جلَّ وعلا- حتى رمى الدَّاعية أخاه، وحتى أبعد، وحتى ألحق به كل وصمة وعار.

• فإذا تكلمنا عن الدُّعاة فلا أقلَّ من أن يكون الإنسان سليم القلب، سليم الصدر، ومن أعظم ما ينبغي للإنسان أن يُكثر الدُّعاء بأن يسأل الله سخيمة قلبه. وهذا ممَّا جاء في السنة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيدعو بدعاء ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10]، فيدعو لمن وجد نفسه تتحرَّك بخلافه، فإذا رأيت أنَّ فلاناً نفسك تنفر منه وتحسده فادعُ له، وإذا رأيت من شخصٍ آخر أن يحسدك ويُباعدك فادعُ له؛ فإن ذلك أطيب لنفسك أن تبعد عن الشر وأهله، وأن تطيب إلى الخير، وأن يكون ذلك صلاحاً لقلبك وصلاحاً لصاحبك، فمهما بُعد يوشك أن يقريه الله، ومهما أخطأ فيوشك أن يُبين الله -عزَّ وجلَّ- له الطَّريق ويعصمه، وإلا يكون له هداية، فلا أقلَّ من أن تكون قد سلَّمت من التَّبعة، وكتب الله لك الأجر مرتين: في العفو والصفح، وفي الدعاء وطلب الخير لأخيك.



• هذا أمر يجب أن يكون للدعاة في أفريقيا وفي آسيا وفي أوروبا وغيرها، فما يكون من الخلل والنقص فحُقه النصيح والتناصح «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»<sup>١٤٥</sup>، ويقول جرير: "بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالتَّصَحُّحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ"<sup>١٤٦</sup>.

وما يأتي من موضوع هجر المبتدع ونحوه هذا من المعروف عند أهل العلم أن بابه باب السياسة الشرعية، فإذا قوي الخير فهجر المبتدع انفع، وإذا ضعف الخير فإن هجر المبتدع لا يفيد، وكذلك هجر المخطئ، فلذلك ينبغي التَّحَبُّبُ إليه، وهدايته، وتبصيره للحق، وتخصيصه بشيء من ذلك؛ فإنَّ هذا أقرب إلى هداية الناس ودعوتهم.

• ومما ينتج عن ذلك وهي آفة هذا العصر: تتبع زلل الدعاة وإظهاره، والتَّعَبُّدُ لله -جلَّ وعلا- بذلك، وابن المبارك يقول كلمة عظيمة: "مَنِ اسْتَخَفَّ بِالْعُلَمَاءِ ذَهَبَتْ آخِرَتُهُ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بِالسُّلْطَانِ ذَهَبَتْ دُنْيَاهُ، وَمَنِ اسْتَخَفَّ بِالْإِخْوَانِ ذَهَبَتْ مُرُوءَتُهُ"<sup>١٤٧</sup>.

ويقول بعض أهل العلم المتقدمين: "إذا كان طالب العلم يتعلَّم الوقعة في الدِّين قبل أن يتعلَّم المسألة في الفقه متى يُفلح؟!".

ويقول بعض أهل العلم: إذا كان الديك -وهو طير- قد مُنِعَ من سبِّه لأجل أنه يدعو إلى الصلاة، فما بالك بمن جعله الله -جلَّ وعلا- أحمًا لك يُعينك، وهو على منهاجك، وعلى طريقة أهل السُّنَّة والجماعة، يُقرب الخير ويدعو إليه، فهو أولى من أن ألا يُسَبَّ أو يُنتقص أو يُغتَاب، أو يُحذَّر منه؛ حتى تُبَيَّن له الخطيئة ويُبَصَّر بالهدى ويُعان عليه؟.

• فإن قال قائل: فما بال الخطأ الذي بيَّنه أو أظهره أو أعلنه؟ نقول: هذا لا يخلو من حالين:

إما أن يكون هذا الخطأ ممَّا يتعلَّق بعموم النَّاس، كأن يُبيح شيئًا محرَّمًا، فيقول: الرِّبَا جائز. فنقول: لا ينفك النَّاس من البيان، فيُقال: الرِّبَا ليس بجائزٍ ومحرَّم، وكبيرة من كبائر الذُّنوب، إلى غير ذلك. وإن كان ممَّا لا يتعلَّق به عموم النَّاس، يعني لا يحتاجون إليه ولا يواقعونه، فهو أمر خاصٌّ؛ فلا ينبغي إظهار ذلك، ويُخصُّ بالدَّعوة ويُبيَّن له الحق، إلا أن يكون هذا ممَّن زاغ عن الحق في أصل من أصول أهل السُّنَّة والجماعة، أما الهفوة والهفوتان فلا ينفك أحد ممَّا من ذلك.

• فإذا كان كذلك فيُحذَّر منه لانحراف سبيله، لا لوجود هفوة أو خطأ، أو عنده مسألة أو مسألتان، من ممَّا يسلم من ذلك، حتى أهل العلم المتقدمين والرَّاسخين ذكروا عنهم ما ذكروا!

ثم إذا نُبِّه عليه في المسألة التي أخطأ فيها؛ فليس معنى ذلك استباحة عرضه، وليس معنى ذلك انتهاء حقِّه، وليس معنى لذلك أن يُتَّبَعَ في كل شيء، فيُبيَّن الحقُّ، ويُدعى إليه، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ، والهدية ينبغي أن

<sup>١٤٥</sup> صحيح مسلم (85).

<sup>١٤٦</sup> صحيح البخاري (56).

<sup>١٤٧</sup> سير أعلام النبلاء ص 251.

يُبْلَغ، وَيُنَبِّه على ما عنده من الخطأ، ثم يبقى له ما للمسلمين من حقوق بحسب حاله كما هو مقرر عند أهل العلم.

- ثم ينبغي هنا أن يُعْلَم أنَّ بعض ما يعتقده بعض الدُّعاة وطلبة العلم من خطأ أو خللٍ أو تكبير ذلك الخطأ قد لا يكون كذلك، فيُرجع إلى أهل العلم الرَّاسخين في الزُّلَّة التي وقع فيها، وما الذي يجب تُجاهها، وما الذي يترتب على قائلها والمتلبس بها، فإن ذلك أنجع في أن يقع الإنسان في الخطأ، وأن يستبج بذلك الأعراض.
- وأيًا كان ذلك فينبغي للمسلم أن يتخلص من حظوظ نفسه، لأنَّ بعض النَّاس قد يُخطئ، وقد يكون هذا الخطأ مما ينبغي أن يُستدرك؛ لكنه حينما تكلم إنما تكلم ليريد الحط من ذاك والرِّفعة من نفسه؛ فإن هذا من حظوظ النَّفس التي تفسد على المرء ولا تصلح، فنبغي للإنسان أن يُصلح نفسه، وأن يُصلح الخطأ، وأن يطلب رضا الله -جلَّ وعلا- في الأمرين جميعًا -في نفسه وفي النَّاس- فإن ذلك أدعى للحق، وأرجى لتحصيله.
- الدُّعاة عادة لهم مراجع يرجعون إليها، سواء كانوا العلماء، وهؤلاء العلماء قد يكونون في دول مختلفة، فنلاحظ أن المراجع هم الذين يتناحرون أصلاً! فيرجع هذا الدَّاعية الذي علمه قليل إلى هذا المرجع...، وهكذا. أولاً: إذا كان مسار المسائل وبيان الحق وهداية الحلق؛ فما ممَّا إلا رادُّ ومردود عليه، ولكن إذا كان ذلك تشقيًا وإظهارًا للنقص ونحو ذلك، فإن عند حصول الاختلاف يُرجع إلى مَنْ هو أعلم وأرفع، فما من مسائل تختلف فيها بعض طلبة العلم أو كُبر الخلاف واحتدَّ فيها الزَّراع إلا وثمَّ مَنْ يُرجع إليه ممَّن يُطلب به الحق والهدى، ويُرجى أن يكون محلًّا لثقة الجميع.
- ومَن امتنع من قبول الحق في مثل مسألة بخصوصها، فيقول: لا آخذ من هذا الشيخ هذه المسألة أو غيرها؛ فهذا ممَّن أصابه الهوى في قلبه!
- فبعض النَّاس يقول: هذه المسائل لا يعرفها الشيخ!!
- فهذه من الأمور التي يحصل بها شيء من الزَّلل، فينبغي الرجوع إلى أهل العلم فيها.

وصلى الله على نبيينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

